المَنْطِقَ

طبع في لبنان

المَسْطَر

رواية

ناصر الظفيري

ALMANSOUR
المنصور
PUBLISHING HOUSE

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1598-6

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

مكتبة المنصور للنشر والتوزيع
info@almansour.com.kw

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

إلى:

محمد الخازم - أوتاوا

عبدالوهاب سليمان- الكويت

"إما أن تركض مع الأرانب أو أن تصيد مع السَّلَق"

الخال "ضيدان"

"سأركض مع الأرانب وأصيد مع السلق."

"رومي جيمسون"

الناشر/المحرّر

-1-

"ملعونة هذه الرمال.. ابتلعت خمسين خالي!"

كان يتمتم بصوت أسمعه جيدا وهو يدور حول نفسه. يضع يده في جيب دشداشته البيضاء يمرر أصابعه في زواياها فتنزلق سبابته في ثقب في الزاوية اليمنى من الجيب الأيسر وأكاد أراها واضحة خلال القماش الأبيض الشفيف، يسحبها إلى الأعلى ثم يسحب يده كاملة.

"ملعونة هذه الرمال.... ابتلعت خمسين خالي!"

يقول بصوت خافت وكأنه يخشى أن يسمعه أحد.

كنا نقف تحت عمود الشمس، لا ظل لنا، يبحث في دائرة من الرمل الملتهب يتوقع أن القطعة الفضية سقطت فيها. يغمض عينيه وأفعل مثله، يدور وأدور معه في ذات الدائرة المحتملة.

"أين أسقطتها؟"

أسأله ولا يجيب إلا بعد أن يكمل دورتين حولي. "هنا" يقول ويشير إلى مكان غامض غير محدد. أعرف أنه ليس متأكدا أين سقطت قطعة المعدن. نحدق في الرمال جيدا. نرفع أعيننا نحو الشمس تاركين أكفّنا مظلة عبثية نحوها، لا بريق للفضة تعكسه الشمس الساقطة مباشرة على أدمغتنا. بدأنا نشعر بالدوار ونحن ندور حول بعضنا في ذات الدائرة كأننا عبدة الشمس. يعود إلى الخلف ويصنع

دائرة مماثلة قطرها المسافة التي سرناها من ديوان خاله متجهين إلى البقالة الخشبية في طرف الحي. يبدو كل شيء يلتمع كسطح القطعة التي أضاعها. يحرك أصابعه في الرمل ولاشيء سوى الغبار العالق بأطراف أصابعه.

"أين أسقطتها؟"

أعيد السؤال عليه ولا يرد. إحدى عينيه تزغل. يضيق بؤبؤها. الأخرى تتسع. يدور مرة أخرى في دائرة جديدة ويتوهم أيضا أن القطعة المعدنية سقطت هنا هذه المرة. لاشيء سوى الرمل الذي يحتد في أعيننا.

"لن نجدها هيا نرجع".

يتظاهر بأنه لا يسمعني. لم أعد أحتمل وهج الشمس.

"سأعود. لن نجدها لأنك لا تعرف أين سقطت بالتحديد".

"ملعونة هذه الرمال....."

وكأنه يسرق الكلمات التي اعتاد خاله ترديدها. يبحث عن معدنه الذي غاص في رمل لا يمكن تحديده، وما أخذه الرمل يبدو عصيّا على الرمل أن يعيده. يجلس القرفصاء ليكون أقرب إلى المكان المحتمل. يحرث الأرض بأصابعه. تتحول إلى أفواه صغيرة تسخر منه وتتظاهر بأنها لم تبتلع منه سوى وهمه وظلّه. ينهض ثانية. يصفق براحتيه ليتطاير الغبار تاركا رائحته عليهما. يدس يده في جيبه. يمرر إصبعه مرة أخرى كاملا في الثقب أسفل جيب دشداشته

"من هنا سقطت"

يقول بصوت عالٍ وكأنه يشخّص سبب الضياع ولكنه لا يستطيع أن يحدد مكان ضياعها. يضع يده في جيبه الآخر.

"كان يجب أن أضعها هنا".

يشير إلى جيبه السليم. لكن الزمن لا يعود به إلى الوراء. حين سلّمه خاله قطعة المعدن وطلب منه أن يذهب ليشتري علبة دخان "روثمان عريض" دسّها، دون أن ينتبه، في الجيب الخطأ. يده تدور دورة كاملة في الجيب الخالي، لاشيء سوى ثقب في أسفل الجيب. اخترقت الشمس دماغي وقررت أن أتركه وأعود بعد أن سرت الحرارة نحو قمة رأسي وأحسست بشسع نعلي يلسع ظهر قدمي. كان يجلس على الرمضاء ويصرخ

"ملعونة.. ملعونة هذه الرمال".

-2-

كانت تلك الحادثة هي الحادثة التي أتذكرها عن الشاب الهادئ والوديع كحَمَام المعابد والذي كنت أحد أصدقائه القلة الذين يسمح له خاله بمرافقتهم. وأنا الآن أحاول استعادة أشياء بعينها عنه ولا أتذكر الكثير. كان شابا غريبا لا يمت لنا ولا لعالمنا بصلة، وما يجمعنا به هو فقر وحياة رثة اقتسمناها في عشيش الجهراء. فقر ذو عدالة، فطبقات الناس حينها لا تصل إلى مستويات كبيرة من التباين، فالحال متشابه في معيشة الناس، والأغلبية التي تعمل في الجيش والشرطة لها هيبة رسمية بحكم ملابسها الحكومية أما دخلها الشهري فلا يختلف عن دخل الأعمال الحرة البدائية لبقية السكان الآخرون.

تحوِّل حياة الشاب لم يكن بسبب تغيّر مهنة خاله من تاجر أغنام متذبذب الدخل إلى عسكري ثابت الدخل، وإنما بسبب عقم الخال، وهو عقم وفّر للشاب رجلا حكيما مثقفا في مجتمع تغلب عليه الأمية يقوم على تربيته دون أن يشرك في رعايته أحد. عقم يعتقد الجميع حينها أنه كان السبيل الوحيد ليحافظ على حياته، وقد قبله الخال مضطرا دون أن يسأله الطبيب الشعبي الذي عالجه إن كان يفضّل حياةً لن يتمكن من وهبها لأحد بعده.

كانت الناس تطلق على منزلهم بيت "العقيم"، وهي بالتأكيد تقصد المساس بسمعة الخال الذي اشتهر في الجوار بأنه عقيم قبل أن

يتزوج. وتلك حالة قد يقرنها البعض بـــالعجز الجنســـي لشـــاب في العشرينات من عمره. لا أتذكر حادثة العقم هذه التي يتداولها الناس بينهم ولكن الخال على أية حال عاش حياة هادئة مقارنة بنـــا نحـــن وكان استثناء القاعدة وبالطبع عاش ابن أخته هذا الهـــدوء وكـــان استثناء أيضا.

اعتادت العائلات لأسباب معيشية أن تسكن بيتا واحدا يجتمع فيه الأبوان والأبناء وزوجاتهم وأبناؤهم، فليس من السهل أن يتـــدبر الرجل وزوجته وأبناؤه مسؤولية بيت مستقل رغم أن الأرض مشاع، فالحكومة لا تعارض بناء المزيد من العشيش في الصحراء الخاليـــة. لا يقبل الابن الذي يستطيع الاستقلال أن يتخلى عن والديه وإخوتـــه الفقراء فيفضل الحياة معهم تحت سقف واحد يقتسمون كل شـــيء بالتساوي كالماء في الأواني المستطرقة.

وإذا أردت أن أقارن بيتنا كمثال لهذه القاعدة مقابل بيت العقيم فأستطيع وصفه بقبيلة صغيرة. كانت الحجرات التي يتكون منها بيتنا بعدد النساء المتزوجات تتوسطه عشة كبيرة قســـمت إلى مايشـــبه مهاجع العسكر، تنام البنات في زاوية منها ونننـــام نحـــن الصـــبية في الزاوية المقابلة. تقوم جدتي كل يوم بما في ذلك العطـــل الأســـبوعية والأعياد بإيقاظنا دفعة واحدة لنخرج كالعساكر في زرقة الفجر نجـــر أقدامنا إلى أمهاتنا كأننا نمشي على قاع البحر.

تستقبل كل زوجة من زوجات أعمامي بناتها لترتيب شعورهن وملابسهن وعلى الصبية تولي مسؤولية ذلك بأنفسهم. كـــان علـــى إحدى النساء أن تقوم بالعمل المنزلي كاملا متى كان ذلك دورهـــا. وهي أدوار تقسمها جدتي بالعدالة المستحيلة. أعرف أنه لا توجـــد

عدالة مطلقة أبدا ولكنني لا أستطيع حتى أن أسمي عدالتها ممكنة. فعلى عاتق هذه الجدة، كما هو بالنسبة لنساء أخريات في البيوت المجاورة ربما كن جدات أو أمهات، أن تكيل لصاحبة الدور في العمل المنزلي ما ستطبخه من أرز أو ما ستعجنه من طحين وما تحتاج إليه من بصل وثوم. هو عمل قد يبدو للبعض سخيفا وسلطويا نوعا ما ولكنه العمل الأكثر أهمية، لا يوازيه سوى تدبير الجد للنقود التي يحصلها الأبناء في نهاية الشهر لتكفي حتى نهاية الشهر القادم متوقعا اضطرابا هنا أو هناك، كأن يحل ضيف على الأسرة أو يتوفى جار أو يتزوج أحد أبناء القبيلة. حين ينتهي صخب الفجر وتشرق الشمس تضع المرأة العاملة طبق الخبز أمام الجدة لتتولى توزيعه علينا، فتكون حصتي نصف رغيف ونصف بيضة أو قطعة جبن أو أكتفي بنصف الرغيف مدهونا بسمن الغنم وكوب شاي بالحليب من إبريقين عملاقين تتولى المرأة العاملة الإشراف عليهما بصمت دون أن ترد على إزعاجاتنا ونزقنا. ولم يكن ذلك مقتصرا علينا فالرجال الأربعة، وهم أبي وأعمامي، كانوا أيضا يتناولون إفطارهم تحت إشراف جدتي. الوحيد الذي يذهب إفطاره إليه في الديوان هو جدي.

لم تكن الجدة مسؤولة عن توزيع الأدوار فقط ولكنها تتدخل أيضا في العلاقات السرية في غرف النوم، فتعرف من أعطت زوجها ومن منعته. وتعرف من عليها أن تمتنع تلك الليلة، كما حدث لزوجة عمي الأصغر، العروس الجديدة التي منحتها جدتي ثلاثة أيام قبل أن توكل إليها مهام العمل المنزلي أسوة بكناتها الأخريات.

كان ذلك اليوم هو يومها في العمل. أعدت إبريقي الشاي والحليب ودلّة القهوة العربية كما تحبها جدتي مع الرطب العراقي

اليابس. غادر كل من في المنزل عدا النساء وذهبتُ يومها إلى موقف الباص الذي تأخر فدوختني الشمس الصيفية. عدت أجلس إلى جدار المطبخ الخشبي حين سمعت جدتي تعاتب العروس الجديدة. كان حوارا لم أفهمه حينها، وهي تكاد تخفيه بنبرة صوت لا تصل لبقية كناها.

"كانت رائحتك فائحة في القهوة. لَمَ لَمْ تستحمي قبل أن تعملي القهوة؟"

"لو استحممت لفضحت نفسي أمام الرجال والنساء وربما الأطفال أيضا".

"لأنك صحوت متأخرة".

"لا لأنه أرادني متأخرا".

"كان عليك أن تمنعيه".

"ألم تقولي من تمنع زوجها تلعنها الملائكة؟"

"تلك التي ليس عليها أن تصنع لي قهوة الصباح".

"سأمنعه في المرة القادمة".

"لا. اتركيه ولا تعملي القهوة إلا بعد أن يذهب الجميع وتستحمي".

"حسنا".

سمعت صوت بوق الباص في الساحة أمام بيتنا وركضت ألحق به.

كان ذلك الترتيب الاقتصادي مهما جدا للحفاظ على موارد الرزق القليلة التي يستطيع الرجال الأربعة العاملون توفيرها. ففي أول كل شهر يتسلم جدي مرتباتهم ويوزعها ثانية حسب تقسيم خاص

يراه مناسبا لتكون كافية طيلة الشهر. لم يكن ذلك سهلا لمعسكر صغير يضم ثلاثين نفسا. كانت متعتي حين يكون دوري في الذهاب معه لشراء تموين البيت من أرز وطحين وسكر وشاي ومعلبات وزيوت تعمل النسوة على تفريغها في براميل من الألمنيوم مصفوفة في حجرة تسمى دار "الكيل" تغلق بقفل نحاسي متوسط الحجم تعلق جدتي مفتاحه حول رقبتها في النهار وتدسه تحت وسادتها في الليل. أحصل في تلك الرحلة على كيكة مُدهنة وعلبة عصير "كورتينا".

تلك كانت حياة أغلب أسر العشيش باختلافات لا تذكر و لم تكن تلك حياة العقيم. ليس لقدرته المادية فقط ولكن أسرته الصغيرة التي تتكون من أخته وابنها ووالده المريض منذ عرفته والذي مات و لم أره، وحتى بعد أن أضيفت للأسرة زوجة الخال فلم يكن للأسرة حاجة للترتيبات المعيشية التي تعمد إليها بقية الأسر. كنت أشم رائحة اللحم بشكل أسبوعي كل يوم جمعة من عشة مطبخهم كلما مررت ببيتهم أسال عن ابنهم "رومي". تلك رائحة لا أشمها في بيتنا إلا في المناسبات الطارئة والأعياد الثابتة. وبسبب تلك الرائحة لطم والدي والدتي حين فهم تذمرها من انعدام اللحم في بيتنا شكّا في ذمة والده الذي يدير المنزل.

عاش الخال حياته انعزاليا لا يخرج إلى الحياة العامة إلا في الأعياد ومناسبات الزواج والوفاة، حتى بعد أن نجحت أخته، والدة الشاب، في أن تقنع أسرة فقيرة بتزويج ابنتها للخال على أن تقتنع هي الأخرى بأن لا تهب الحياة لأحد. لم يكن قرارا صعبا على طفلة لم تتجاوز الخامسة عشرة ولا أعلم إن كان الأمر كذلك على أسرتها التي كانت ترى في الزوج مستقبلا جميلا يضمن للفتاة رغد العيش.

لم يستمع أحد للكلمات التي رددتها الأم على مسامع ابنتها وهي تشرح لها حياتها القادمة مع زوج لن ينجب. و لم يكن ذلك الإقناع لكسب موافقتها التي تمت نيابة عنها ولن تملك رأيا مغايرا لرأي الأب، إنما محاولة لتطهير النفس من جلد ذاتها أو تجنبا لعقاب الله فيما لو رأى في ذلك الزواج ما لا يرضيه. لكن الزواج جعل "رومي" ابنا للخال يلاصقه أينما ذهب، يهتم به كابن تبناه وإن لم يهبه الله له. لا يسمح له الخال أبدا باللعب معنا في الساحات الخالية أو التسكع أمام البقالة الوحيدة في طرف الحي. أجبره أن يكون صديقه ونديمه، فلم يكن رومي يستمع للمطربين الشعبيين الذين كنا نستمع إليهم. لا يحضر سهراتنا التي نقيمها في الفراغ الممتد من عشيشنا إلى الأفق، يسهر كل ليلة بصحبة خاله مع أحد مشاهير الغناء العربي الذين تبث إذاعة الكويت أغانيهم كل ليلة من الحادية عشرة مساء حتى منتصف الليل.

يعلق الخال راديو "National" من جرابه البني ذي الفتحات الدائرية المتساوية على مسمار بارز في خشب الديوان ويجلس خلف منقل الفحم في الشتاء ويعلقه على جدار الحوش في الصيف ويجلس أمام الديوان. حين يغيب الخال في معسكره كان الفتى يمارس ذات الطقس وأجالسه أحيانا ولكنه يبدو مندمجا مع صوت مطربيه "المملين" يدندن وهو ينظر إلى السماء مستلق على قفاه كمن يطلب مني أن أتركه وحده. في مرات كثيرة أحب الأغاني التي يسمعها وأتظاهر بالعكس، ومرات عديدة أسأله عن معاني الكلمات الصعبة في القصائد التي تغنيها أم كلثوم. "كيف عرفت معنى كلمة "رضاب"؟ ويعلق بفخر "خالي شرحها لي". و لم يعرف أحد حتى

الآن كيف تعلم خاله القراءة والكتابة والشعر والموسيقا والطب وهو لم يذهب إلى مدرسة في حياته. حين سألته يوما عن ذلك، قال لا أعلم. كان هو من يقرأ لي منذ السنة الأولى في المدرسة. لم نهتم كثيرا بالموضوع ويكفي أن الخال كان كنزا لنا نحن الغلامين في سنوات التعلم الأولى. صرت أقلد الخال في قراءة الكتب والمجلات وأصبحت أذني تحب أصوات مطربيه وألحانهم القاسية والطويلة.

يحتفظ الخال ضيدان في زاوية الديوان بصندوق خشبي كبير بدون غطاء يكدس فيه الكتب والمجلات التي يحضرها معه كل يوم جمعة. وهو اليوم الوحيد الذي يسمح لي بالبقاء معهما طيلة الفترة الممتدة من عصر الجمعة حتى مغيب الشمس. يجلس الخال متكئا على مسنده يقرأ كتابا أو مجلة "طبيبك"، المجلة الأكثر توافرا في الصندوق مقارنة بغيرها. فيما نجلس نتصفح دواوين الشعر ومجلات عربية وحكايات الشعوب البعيدة عن عالمنا الضيق.

في مرات عديدة كنت أسترق النظر لهذه المجلة الأثيرة لدى الخال. كانت الصفحات المطوية في كل عدد من أعدادها هي صفحات تتناول العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة وتفاصيل القضيب والمهبل والأوضاع الجنسية فأشك دائما بأن الخال ضيدان مهووس جنسيا.

لم يتوقع متفائل أن هذه الحياة ستتغير إلى نقيضها رغم أن مواد البناء لا تغير أطباع الناس وعاداتهم ولكنها استطاعت الحد من حريتهم، فالبيوت التي كانت مفتوحة تقريبا بروائحها وأصوات ساكنيها، المفعمة بزغاريدهم وأغاني رقصهم والمهمومة بعويلهم وأصوات شجاراتهم أغلقت على نفسها في بيوت من الطابوق الخرساني بأبواب حديدية كسجون صغيرة.

في عام 1978 ارتبك كل شيء من حولنا حين قررت الحكومة هدم منازل العشيش وصفائح "الشينكو" وقامت بنقل العسكر ورجال الداخلية إلى مساكن شعبية ذات دور واحد، فيما طلبت ممن سواهم البحث عن ملاحق البيوت المخصصة للكويتيين وشقق البنايات للسكن فيها. تفرق الجيران ولكنني لم أفترق عن "صديقي" وخاله. سكنوا في قطعة سكنية تفصلها عن مسكننا قطعة سكنية.

كانت البيوت ذات نظام عربي متشابهة كمعلبات السردين المستطيلة تتكون من ثلاث غرف نوم ومطبخ وحمام واحد، وبالتأكيد من صمم بيوتنا لا يعرف شيئا عن حياتنا الاجتماعية. لذلك اضطرّ الجميع فيما بعد إلى بناء ديوان وحمّام خارجي للرجال بديلا للديوان الذي يطل على الخارج والداخل ببابين متشابهين، وكاد التشابه القاتل لهذه البيوت في البداية أن يشعل جرائم صغيرةً هنا وهناك لولا سعة الحلم وتفهم الناس لأخطاء قد تحدث منهم ولهم. أخطأ كثير من الرجال فدخلوا بيوتا غير بيوتهم. يدخل الرجل على نساء جيرانه ولا ينتبه حتى تتوالى صرخات النساء، تدخل المرأة بيت جيرانها لتفاجأ برجال بملابس الظهيرة فتولي هاربة تتمنى ألا يعرفها أحد. اخترعت الناس طرقا مختلفة لتمييز بيوتها عن بيوت جيرانها المتلاصقة جدا، وهو التصاق يمتد لعشرة منازل وأكثر أحيانا. أما بيت الخال ضيدان فكانت تميزه سيارة نقل فورد حمراء موديل 67 وتلك كانت آخر دفعة سيارات تصدرها شركة فورد وصلت الكويت قبل أن تقاطعها الحكومة بعد هزيمة حزيران التي شارك فيها الخال شخصيا. كان ذلك هو الانتقام الوحيد من إسرائيل الذي استطعنا فعله. لم يشتر الخال السيارة في ذلك التاريخ، وإنما بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا وكنا في

الثانوية العامة. يبدو أن السيارة تعطلت قبل أن ننتقل إلى المساكن الجديدة لأن الخال اضطر لنقلها بعربة نقل السيارات إلى مدخل البيت. تغير اسم بيت الخال من بيت العقيم وأصبح يحمل اسم السيارة ولونها. وحين يريد أحد سكان القطعة السكنية أن يصف بيته يقول بعد بيتين من بيت "الفورد الأحمر" أو البيت المقابل لبيت "الفورد الأحمر". وبقيت السيارة تقف على منصة من الطابوق الخرساني لا تتحرر من منصتها إلا في أشهر الربيع والتي تبدأ في ديسمبر وتنتهي في منتصف أبريل، ثم اختفت عام 1980 حين نقلها الخال إلى مكان لا يعلمه أحد واستبدلها بسيارة نقل أخرى من طراز GMC تشابهها في اللون ولا تفوقها في الهيبة.

اعتاد سكان البيوت على أرقام بيوتهم المثبتة بلوحات زرقاء ونقلوها بأصباغ الرش إلى جدرانهم الخارجية. تآلفوا مع المسافات فحفظوا خطاهم نحو أبوابهم بقلوبهم لا بأبصارهم فقط، ولم يعد يشار إلى بيت الخال بأي صفة ولم يعد أحد يهتم به وبصفته. بدا البيت وصاحبه أكثر انعزالا من ذي قبل لا يزوره سوى رفيق من رفاقه في المعسكر وأنا محافظا على علاقتي السابقة كدين له برقبتي. لم أنقطع عن زيارته إلا يوم عزاء أخته.

أنشأ الخال في حجرة الديوان مكتبة ضخمة لا تناسب بيئتنا تضم كتب التاريخ والشعر والأدب والطب الذي ظل يعشقه أكثر من غيره من صنوف العلم الأخرى. كنت أذهب في موعدي القديم ذاته إلى ديوانه، يعيرني رواية اشتراها من باعة الكتب المستعملة أو مجلد نادر أحضره بطريقة ما من مكتبات بغداد ولا يعيرني غيره حتى يتأكد من إعادتي له. استمرت علاقتي بالخال ضيدان بعد غياب

"رومي" الذي رحل تاركا جرحا عميقا في عقل الخال وقلب البيت.

في بداية صيف 1978 أنهينا، رومي وأنا، الثانوية العامة معا ورفضتنا الجامعة معا والتحقنا بالجيش معا. التحقت بوحدة التوجيه المعنوي لأمارس هوايتي بالكتابة والصحافة والتحق رومي بسلاح الجو لرغبته بالسفر ولو لأعوام قليلة في دورات الطيران التي كانت ترسل الدولة منتسبيها إليها. لم أره منذ غادرنا المعسكر، ولكنني عرفت فيما بعد أنه سافر إلى فرنسا لدراسة تقنيات طائرات الميراجF1 و لم يعد. منذ ذلك اليوم لا أحد يعرف عنه شيئا. لم يكن الخال ضيدان يذكره أثناء زيارتي له، والمرة الوحيدة التي سألته عنه كانت في عزاء أخته الذي لم يحضره رومي. التفت خاله نحو رجل إلى جانبه وراح يحادثه متجاهلا سؤالي. فهمت أنه لا يريد الإجابة. لو كنت مكانه لفعلت الشيء ذاته. كان شابا عاقا ذلك ما يعرفه الجميع.

بعد أعوام طويلة من غيابه أدركت بأن الشاب كان على حق، وكان يجب أن يفعل ما فعله كي لا ينتهي الأمر به كما انتهى بي وأمثالي. وإن لم أذهب إلى الدّفن اليوم كصديق لم يكترث كثيرا بصداقتي له، سأذهب لأصلّي على خاله الرجل الطيب الذي فتح أمامي بوابة القراءة وكأنه يدخلني إلى حياة لا تشبه حياتنا، وربما كان سببا لما آلت إليه أموري الآن.

وأنا أوقف سيارتي في مواقف المقبرة وأترجل منها متجها إلى حيث الصلاة على الجنازة لاحظت أن الحضور قليل جدا. ربما بعض الجيران الذين ألزمتهم جيرة لم يقتسمها الخال كما يجب يؤدون واجبا

لرجل لم يزعجهم في جيرتهم و لم يشاركهم فيها أيضا. توقعت أن الرجال الذين خدموا معه في حياته العسكرية الطويلة سيكونون هناك ولكن ذلك لم يحدث. هاهو الآن يموت وحيدا كما عاش وحيدا.

رأيت صديقي، وأنا هنا أحاول أن أقنع نفسي بصداقة حدثت فعلا يوما ما وإن لم تستمر، يحمل النعش من سيارة إسعاف البلدية برفقة أربعة أشخاص. لم يكن الوضع مناسبا للسلام عليه. لاحظت كم يبدو غريبا عن كل شيء. كأني تذكرت الآن فقط لون عينيه، شعره الذي يغلب عليه اللون البني، بشرته البيضاء وغربته وهو يسكن معنا تحت رعاية الخال فجعلته أشبه بملاك سقط من كوة في السماء لم تنتبه له رمال الجهراء. شاب بملابس أوروبية يرتدي بذلة كحلية وقميصا أزرق فاتح اللون وربطة عنق. الشعر في وجهه يدل على أنه لم يحلق ذقنه وشاربه منذ أيام، غزا رأسه شيب خفيف منحه مهابة وجاذبية. نحيف الجسد متماسك تماما حتى بدا كأنه أحد المتبرعين للعمل الطوعي في المقبرة.

سرت خلف جثمان الفقيد فوق المحفة الحديدية وقد لُفّ بعباءة من الوبر. وقفت في الصف الوحيد الذي تشكل للصلاة، كان رومي يتابع المصلين ويقتفي إثر حركاتهم. انتهت الصلاة وحُمل الجثمان إلى قبر يقف حوله عمال البلدية بملابسهم البرتقالية. انتهى الدفن سريعا وعاد الجميع إلى المظلة الحديدية لتقديم واجب العزاء للشاب وقد وقف وحيدا يتمتم بعبارات غير مفهومة لأشخاص لا يعرفون من هو. حين جاء دوري ضغط رومي على يدي وقال لي لا تذهب أريدك. تصورت أنه أشار إلي أن أقف إلى جانبه فوقفت إلى جانبه كقريب له. مثلت دور القريب الثاني للمتوفى، أرد على كلمات

العزاء بصوت أعلى من صوته. حين انتهت مراسم العـــزاء الســـريع انفضّ الناس من حولنا وجلسنا وحدنا تحت المظلة.

- هل تريد أن نذهب الآن؟

سألته. كان ينظر بعيدا إلى جهة القبور ومن بعيد أرى العمـــال يحفرون قبورا جديدة لقادمين جدد لم تحددهم الأقدار بعد.

- هل أنت مشغول؟

سألني فقلت لا. أخذني من يدي وسرنا بخطوات ثابتة كمـــن نتمثل حزنا لا نشعر بعمقه. قال لي فجأة

- هل تعلم أن في كل قبر من هذه القبور كتابا لم يكتب؟

ولأنني لا أعلم لم أرد عليه. لا أعرف إلى ماذا يرمي بكلماتـــه. بدا لي كمن يترجم جملة من لغته الأخرى. ابتسم وكـــأنني سمعـــت قهقهة خفيفة في صوته لم أحبذها. لم يكن المكان ولا الحالـــة تبـــيح ذلك. وحين لاحظ تعابير وجهي فهمها.

- يجب أن نتعامل مع الموت كبديل أفضل لحياة المعـــذبين، ويجب أن نفرح لهم وإن كانت نهايتهم لا تروق لنا. هـــل تعرف شيئا عن خالي؟

يبدو أنه كان يعرف أنني لا أعرف شيئا عن خاله وسمعت خبر وفاته من نساء أسرتي لا من رجالها، ولكي أكون صـــادقا حـــتى لا يفاجئني بسؤال آخر يكشف كذبـــي قلت

- لم أر خالك منذ عزاء والدتك؟ سألته عنك و لم يفضـــل الإجابة.

- ربما كان يعرف أن ذلك لن يضيف للأمر شـــيئا. أنـــا لم أكن أنوي العودة إلى هنا. كنت أعلم بأن ســـلالته لـــن

تستمر. جاء إلى هنا كمن سيؤدي دورا صغيرا في الحياة، ومضى دون أن يتذكره أحد.

ولكن الحقيقة أن خاله لم يكن كما وصفه، لقد فعل كل ما هو مطلوب منه بإخلاص شديد.

سرنا ثانية عائدين نحو المظلة وكانت المقبرة تزدحم الآن استعدادا لجنازة أخرى.

- تعال نخرج، هل أنت مشغول؟

وللمرة الثانية قلت له لا. وكنت أود فعلا أن أسمع منه شيئا عن هجرته من عالمنا الصغير إلى العالم الحقيقي. أحسست بالعطش وشربت من ماء السبيل في المقبرة وأنا أضع الكأس الفضية المعلقة بسلسلة صدئة إلى مكانها سألني

- هل الماء هذا نظيف؟ يبدو أن الجميع يستخدمون الكأس نفسها.
- ذلك يزيد مناعتنا.

ابتسم ثانية، توقعت أنه كان عطشانا و لم يشرب. خرجنا من الباب الرئيس للمقبرة

- هل لديك سيارة؟
- نعم ولكن يبدو أنها لا تليق بك.
- لا يهم. تركت سيارة استأجرتها في المستشفى وركبت سيارة الإسعاف مع خالي. تعرف أنني لا أتذكر هذه الشوارع جيدا.

اصطحبته بسيارتي. حين أدرت المحرك سمعت آلة التسجيل تغني بصوت عال فأردت إغلاقها. ولكنه وضع يده على يدي.

- لا عليك. لقد كنت تسمعها قبل أن تصل إلى هنا.

فأخفضتُ صوت الآلة وأنا أنظر إليه. لا يبدو لي شخصا سويا، وربما لا أبدو له شخصا سويا. لا بد أنه نسي أمورا كثيرة من أهمها ما يتركه الموت على حياتنا. توقعت مثلا أن يبحث عن قبر أمه، أن يصلي على روحها. ربما نسي الآيات القرآنية التي تعلمها في المدرسة. أو أنه لا يعرف كيف يصلي الآن. ليس لي أن ألومه، لقد عاش تكونه الحقيقي بعيدا عن هنا وليس له من ذاكرة هذا المكان إلا الجزء الطري والذي لم يمنحه الوقت الكافي كي يتشكل. فلو قدرت له تقسيمة منصفة ستكون هكذا: ست سنوات طفولة لا يتذكرها تماما، واثنتي عشرة سنة حياة مدرسية في بيئة جافة قاحلة لا يحب أحد أن يتذكرها أصلا، وأشهر قليلة انتهت برحلته الأخيرة والتي أمضى فيها خمس عشرة سنة هي عمره الحقيقي. أما ما فاجأني فيما بعد هو إجادته التامة للغته الأم التي تأسست جيدا كبديل للحياة القصيرة القاسية التي عاشها هنا.

- هل تريد أن نذهب إلى سيارتك؟
- لا خذني إلى "الشعبيات".
- اسمها "تيماء"
- "تيماء". جميل الاسم

وابتسمت. الاسم جميل فعلا ولكنه لا يليق ببؤسها. لا أدري لماذا أحسست بالخجل وكأن رجلا أمريكيا يطلب مني أن يرى خيبتنا.

- هل تحن إلى وطنك؟
- لا بالتأكيد.

أخرج سيجارة من علبة دخان مالبورو وقدمها لي

- أمريكية أصلية
- لا أعرف إذا كانت تختلف عن هنا. لم أكن مدخنا.

أشعل سيجارته وسحب دخانا كثيفا فأحسست بأننا سنختنق إذا دخن سيجارته كاملة بهذه الطريقة، فتحت الشباك من جهتي. ألقى رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه وقال بصوت حزين:

- لا يحن المرء إلى وطن لم يعشق فيه امرأة.

ربما كان على حق، ولكن لماذا يريد الذهاب إلى تيماء وهو لم يعش فيها سوى أشهر لم تكمل في مجملها سنة. لم أود أن أسأله. سلكنا طريق الجهراء متجهين إلى الشمال. كانت الأرض تئن مرة أخرى وتوقعت الناس أن الحرب ستقوم ثانية. أشار إلى طريق "المطلاع".

- من هنا طريق الموت. أليس كذلك؟
- صحيح ولكنهم نقلوا جميع الآليات الآن إلى منطقة "مشرف".
- هل كنت هنا في الحرب؟
- لا. غادرت البلد مع من غادره. لم يبق هنا الكثير من الناس.

زم شفتيه على عقب سيجارته ونظر من الشباك إلى جانبي الطريق وكرر كمن يحدث نفسه "بالتأكيد لم يبق هنا الكثير من الناس".

حين اقتربنا من "تيماء" طلب مني أن أتوقف عند أولها. كان ينظر إلى المنازل ذات الدور الواحد والتي لا ترتفع عن الأرض بأكثر

من ثلاثة أمتار تعلو أسطحها خزانات المياه وعشش الحمام وقد بنى الناس عششا خلف مساكنهم من الصفيح لأولادهم الذين ولدوا في غيابه. كان صِبية خلف المنازل يطاردون كرة القدم بأقدام حافية وصيحات قبيحة. ابتسم وهو ينظر إلى الصف الطويل من منازل قطعة 4. نظر إلي وهو يقول

– تعرف بماذا يصفون هذه الأرض عندنا؟

و لم أرد. كان بودي أن أعلق على كلمة "عندنا" تلك الكلمة التي توحي بأن الرجل انفصل تماما عنا كما ينفصل طائر القطا عن سربه فيلتحق بسرب النسور ويتحدث باسمها. فأكمل

– قطعة الفلّين الطافية على بركة نفط.

فهمت ما يقصد و لم أرد. أكملنا الطريق. دخلنا المنطقة المقسمة إلى 8 قطع متشابهة المعمار وتختلف بألوان الطابوق الخرساني الخارجي، بيوت بلا تشطيب نهائي لا يختلف بيت عن آخر إلا بأنواع السيارات التي تقف أمامه، والتي لا تتناسب موديلاتها وألوانها مع حالة سكانها. توقفنا أمام بيت خاله.

دخل بعد أن طرق الباب طويلا قبل أن يسمح له بالدخول و لم يمكث طويلا. كنت أعرف أنه لن يستطيع أن يلتقي امرأة خاله في حدادها، ربما قال شيئا لأمها أو قريبة من قريباتها. عاد ثانية ثم سألني أن نذهب إلى حيث العشيش.

– لم تعد هناك، أصبحت منطقة سكنية "للكويتيين".

دعوته كي أستضيفه في بيتنا القريب ولكنه رفض بشكل قاطع. قررنا أن نعود إلى سيارته وفي الطريق أخبرني أنه يريد أن ألتقيه ليلا في فندق الشيراتون حيث يقيم. افترقنا عند مواقف مستشفى

"الصباح". سلم علي بحرارة وأكد موعدنا الليلة. ولا أعـــرف لمـــاذا تجرأت وسألته

- ألن تقيم عزاء لخالك؟

نظر بعيدا في عيني ثم صافحني

- هل قلت لك أنك لم تعرف خالي؟ لا تنس موعدنا، هـــذا ما أردت أن ألتقيك من أجله.

ركب سيارته، وقبل أن يدير محركها انطلقت وأنا أفكر بـــيني وبين نفسي إذا ما كان يجب علي أن ألتقيه الليلة أم لا.

في المساء لم أفكر طويلا وقررت أن ألتقيه، كان الفضول هـــو المحرك الأساس لرغبتي. كنت أود أن أعرف ما حدث له خلال هذه الرحلة الطويلة التي قطعها من عشيش الجهراء إلى فرنسا وأمريكا. لا أريد أن أخدع نفسي بالشعور الحقيقي الذي ينتابني وأنـــا أرافقـــه. أشعر بشيء من الغيرة لجرأته وقسوته وشيء من الحســـد وأنـــا أرى نفسي كالتابع له حين يتفوق علي حضارة ووجودا.

-3-

دخلت بهو الفندق وتذكرت أنني نسيت أن أسأله رقم الغرفة التي يقيم فيها. سألت رجل الاستقبال ونظر في عيني كمن يستغرب أن يسأل مثلي عن مثله.

- أريد أن أرى الأخ رومي راضي

بحث قليلا في الجهاز أمامه ثم رفع رأسه إلي

- هل تقصد السيد "جيمسون"؟

وقبل أن أقول لا.... قال بصوت حازم

- انتظر لحظة.

كان الرجل متجهما على غير عادة موظفي الاستقبال. تحدث معه في الهاتف ثم سألني:

- اسمك؟

وقلت اسمي وكأنني أمام محقق نيابة لا موظف استقبال. وعاد إلى الهاتف

- يقول اسمه عبدالكريم

ثم قال

- حسنا.

كان الرجل يتنقل من غاية اللطف في الحديث معه وغاية الصلافة في الحديث معي.

- انتظر لحظة.

أحسست بالضيق وكأن الرجل الذي سأزوره ليس هو جاري السابق في عشيش الجهراء.

أشار إلى أحد العمال الذين يرتدون زيا رسميا للفندق

- خذ الأخ إلى جناح السيد "جيمسون"604.

ابتسمت دون أن يلحظني وسرت خلف العامل حتى المصاعد متوقعا أنه سيصحبني إلى أحد الضباط الأمريكيين الكبار الذين مازالوا في البلاد بعد انتهاء أزمة عام 1994 والتي توقعها الناس نسخة ثانية من عام 1990. فتح المصعد ودخل العامل قبلي ثم لحقته و لم نتبادل حديثا أو سلاما إلا أنه قال لي "تفضل" بلكنة آسيوية وحين فتح باب المصعد ثانية وخرجنا كان أيضا يسبقني ويسير أمامي وأنا أفكر بكلمتي "جناح وجيمسون".

طرق العامل الباب مرة واحدة وأنا أقف إلى جواره مبتعدا خطوتين، حين لم يفتح الباب طرقه مرة أخرى طرقة واحدة وعاد خطوة إلى الخلف مبعدا رأسه إلى الوراء كمن يتحاشى لكمة متوقعة. فتح رومي الباب وطلب مني أن أدخل بعد أن شكر العامل الذي انحنى بأدب وغادر.

- تفضل كريم!

قالها بحميمية وبالاختصار الذي كان يناديني به في الأعوام التي خلت. كنت أثق بأن الذاكرة التي تتشكل ببلوغ الإنسان يصعب محوها أبدا.

كان الجناح أكبر بكثير من الغرفة التي توقعت أنه يقيم فيها، ينقسم إلى صالة بها كنبة جلست عليها أنا وكرسي وثير جلس عليه

هو وغرفة موصدة هي بالتأكيد غرفة نومه. كانت هناك زاوية صغيرة عليها "ميكرويف" وآلة قهوة وتعلوها خزانة صغيرة من ضلفتين، وفي الخلف طاولة طعام بأربعة كراسٍ إلى جوار الشرفة. كنت أنظر إلى بشرته وقد ازدادت بياضا وعينيه وكأن لونهما العسلي بدا أكثر بريقا وذكاء. كان يرتدي "روبا" أبيض من سلك الحرير عليه شعار الفندق وأسفله بنطال جينز وقميص أبيض، يضع رجلا على رجل ثم يسألني "هل تشرب؟" وقبل أن أرد نهض إلى الخزانة الصغيرة وأخرج زجاجة "بلاك ليبل" وكأسين. أعاد كُمّ الروب إلى منتصف ساعده ثم رفع غطاء صندوق الثلج وملأ الكأسين ثلجا وفتح الزجاجة ليصب منها. حاولت أن أقول له إنني امتنعت عن الشراب ولكنني قررت في تلك اللحظة أن أشرب معه. فربما أرادني أكون نديمه المؤقت حتى سفره إلى بلده. ناولني كأسي وعاد ليجلس الجلسة ذاتها أمامي ملصقا ظهره بمسند الكرسي وكأنه في قاطرة مسرعة. رشفت قليلا من الكأس ووضعته أمامي على الطاولة الخشبية التي تفصلنا بينما بقي ممسكا بكأسه وهو يحدثني.

- أتدري لماذا أريدك؟
- لنشرب معا.

لم أكن اعرف أن التباين الثقافي قد يصل بين صبيين عاشا طفولة واحدة بائسة إلى هذا الحد. عليّ أن أعترف بأن الساكن الذي أمثله لا يمكن أن يقارن إلا بساكن مثله، أما هذا المتحرك فله الحق في أن ينسلخ من مساره كحجر من مقلاع، وليس لي الحق في أن أطالبه بتمثيل دور الملتزم لرهبة الفقد وقدسية الموت. على العكس من ذلك، فربما علي أن أحترمه لأنه لا يرتدي قناعا لمجرد أنني هنا.

وهأنذا الآن فقط انتبه لصوت موسيقى هادئة جدا تنبعث من زاوية ما وكأنها تأتي من النافذة العريضة المطلة على البحر.

- لا ليس لهذا و لم أتخيل أنك تشرب أساسا.

قال ووضع الكأس جانبا ثم نهض ثانية إلى المكتب. تناول مغلفا بنيا ضخما وفتحه ليخرج منه مجموعة ضخمة من الأوراق لا أستبين منها سوى الصفحة الأولى والتي كتبت بخط اليد. سلمني الأوراق وهو يقول:

- أريدك من أجل هذا.
- ما هذا؟

و لم أقرأ الصفحة الأولى بعد والتي ركزت فيها للتو وهو يتحدث

- حين سألت خالي عنك قال لي أنك لم تعد إلى عملك

رفعت رأسي إليه وكمن أصحح له أو أذكره بما كان خاله قد قاله بدقة

- تقصد أنهم لم يعيدوني إلى عملي

صمت برهة وهو ينظر إلى وجهي كمن يبحث عن ألم محتمل، وهو ألم لم أعد أحمله بل أشعر أنه يحملني ولا أعرف كيف سيراه أو أين سيراه فهو كلي منذ أن تغيرت حياتي كليا.

- هل سرّحوا كثيرين من الخدمة؟
- كثيرون وجدوا أنفسهم في العراء وكأنهم لم يكونوا في العراء أصلا.

نظرت إليه وفي عينيه تعاطفا غريبا لا يبدو حقيقيا، ربما هو متهكم ولكني لا أجزم إن كان يتهكم علينا نحن أم على السلطة. فأكملت

- تعرف. إنني أغبطك الآن على جرأة لا يمتلكها شـــاب في مثل عمرك.

ابتسم وهو يدير الكأس بيديه فيتحرك السائل الأصـــفر بـــين مكعبات الثلج.

- لا لم يكن الأمر كذلك، إنها قصـــة طويلـــة لا أريـــد أن أشغلك بها. ما قاله خالي هو أنك الآن تمتلك دار نشـــر ومكتبة صغيرة في المدينة.
- العناوين كبيرة "مكتبة ودار نشر" ولكنها لا تصرف على أسرة بما يكفي.

لم أرفع رأسي إليه. قرأت الورقة الأولى وحاولت أن أتذكر هل كان خطه بهذا السوء حين افترقنا. الخط السيّء عادة يوحي بأنـــك ستقرأ بطريقة مضنية ولكنك ستقرأ كتابة جيدة. الورقة الأولى. جمل غير مكتملة. جمل مشطوبة وفقرات صغيرة تنتهي ببياض تبدأ بعـــده جمل أخرى. قلّبت بقية الصفحات وكانت فعلا كما توقعت مجموعة من الطلاسم تحتاج جهدا كبيرا لفك شفراتها. وكمن يتابع امتعاضي وأنا أقلب الأوراق دون أن أستقر على ورقة معينه تجذب اهتمـــامي قال:

- أعلم أن خطي سيّء ولم يكن لدي وقـــت كـــي أنقـــح كتابتي، ولكن ما بين يديك هو عملي الوحيـــد باللغـــة العربية وأنا أيضا لست روائيا بالإنجليزية. ولهذا اخترتـــك كي تعمل معي على تنقيح العمل وإعادة تحريره. أريـــدك أن تكتب منه رواية خالي ضيدان كما سردها لي في أيامه الأخيرة. وبالطبع تطبعها وتنشرها.

وضعت المخطوط جانبا. ورشفت الرشفة الثانية من الكأس الذي نسيت أمره و لم أحب طعمه.

- سأعمل ما تريده مني لسببين: الأول لأني أحب خالك جدا وأذكره بكل خير والثاني لأني أريد سيرته أن تنشر ليس من أجله فقط ولكن من أجل كل هؤلاء الذين ضحوا بكل شيء من أجل لاشيء.

لم يكن خجلا بل كان يتعامل معي كرجل مهمة عليه إنجازها

- سأدفع لك كل تكاليف التحرير والنشر والتوزيع وما تحتاجه من مصاريف أخرى

حاولت أن أوضح أن ذلك ليس هدفي من النشر ولكنه بدا مصراً. نهض إلى المكتب ثانية وأحضر رزمة من الدولارات الأمريكية. وضعها أمامي

- إذا لم تكفِ سأرسل لك غيرها.

كنت فعلا بحاجة لذلك المال ليس فقط لتحرير وطباعة رواية لشخص مغمور لا يعرفه أحد هنا ولا يتذكره أحد، ولكن لتسيير أمور المكتبة التي تمر بضائقة مالية. أضف إلى ذلك أن ليس للأدب سوقا رائجة هنا وأعتمد في دخلي على طباعة وتوزيع كتب الطبخ والأبراج وبعض الكتب الدينية والسحر وفضائح الفنانين وتفاهات أخرى تتصدر واجهة المكتبة التي تعتمد في مبيعاتها على مراهقين ومراهقات يلهثون خلف صور نجومهم ونساء يزجين الوقت بكتب الطبخ وتفسير الأحلام وشبان يبحثون عن كتب دينية أشتريها عادة من معارض الكتب. في أفضل أحوالي أقتسم كتابا مع أحد المتملقين الذين يمتدحون أميرا هنا وشيخا هناك ويسطرون فيه ما ليس فيه

فيمنحهم الأخير ثمن نفاقهم وهو يبتسم.

أعتقد أن ذلك سيكون كافيا، لن نحقق أرباحا ولن أخسر شيئا.

هو الآن يحقق هدفه من لقائه بـــي ولكنني حتى الآن لم أجـــد طريقة لأحقق رغبتي في معرفة ما حدث معه ليتغير مـــن العســـكري البسيط "رومي راضي" إلى السيد "جيمسون" كما لفظهـــا بتـــبجح مقصود موظف الاستقبال، وكما أتخيلها مكتوبة باللغة التي افتتن بها. الحوارات التي تلت ذلك العرض الذي قدمه قادتني، دون قصـــد، إلى ما أريد.

- لماذا كتبت عن خالك و لم تكتب عنك؟
- أنا لم أفعل ما فعله خالي و لم أعش ما عاشه، لقد استمرت سلالته منذ آدم إلى الآن، وها هي انقطعت حـــتى يـــوم القيامة وكان قدري أن أكون شاهدا عليها، سأترك كتابا يذكر حكايته، ذلك كل ما يمكنني فعله.

لمحت لي فكرة أن أعرف حكايته التي تثيرني. أن أجعله هو أيضا موضوعا في الكتاب.

- لماذا لم تفكر في الخروج من هنا؟

سألني فجأة.

- حتى لو فكرت جديا في الخروج لا أستطيع، لدي زوجـــة وستة أطفال وأم وأب وإخوة أصغر مني والبيـــت الـــذي نسكنه لعمي الأصغر وزوجته وأبنائه وقد هددني مرة بأنه سيطردنا من البيت إذا مات والدي.

أعاد الكأس إلى الطاولة و لم يمتعض، لم يبد عليه أنه يهتم كثيرا. وأحسست بأنني حدثت رجلا عن أشياء خاصة جدا ليس له علاقـــة

بها، بدوت كأنني أشحذه اهتماما. و لم يفكر كثيرا بما قلت. رد بصورة باهتة

- أنت تؤمن بالقدر.

لا أعرف إذا كان ذلك سؤالا أم تقريرا. ولكنني فعلا أؤمن بالقدر. فسألته

- وأنت ألا تؤمن بالقدر؟

توقف برهة، عرفت أنه يبحث عن إجابة لا تزعجني ولا تخدش شعوري مع أن ذلك لا يهمني وإن أجاب بأنه لا يؤمن بالقدر. نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامه. وراح يردد معها محركا سبابته باتجاه حركة عقاربها. تك.. تك.. تك. تخيّلت أن صاحبي سكر من كأس لم يكملها بعد. وضحكت، ولكنه هزّ سبابته بسرعة "لا لا" وأكمل:

- لا تضحك، انظر إلى الزمن، إنه لن يتوقف ولن يعود إلى الوراء. أنتم أوقفتم زمنكم هنا واستسلمتم للقدر، لكنني سرت إلى الأمام ووصلت إلى زمن كان يسبقني كثيرا.
- ولهذا أبدلت اسمك؟
- لم أبدل اسمي. أضفت إليه اسما لم استخدمه هنا. اسمي في الجواز هو "رومي رادي جيمسون". أنا يا صديقي كنت أنتمي إلى هنا حتى اكتشفت مبكرا أن الوطن كذبة صغيرة لا تستحق حتى إثمها. الوطن هو ما في داخلك كالإله الذي تعبده إذا لم يسكنك لن تعرفه. الوطن ليس قدرا.
- يجب أن تفرق بين السلطة والوطن!

- السلطة مؤمنة بأنها تمتلك الوطن ومن يعيش فيه. تمنح هذا مواطنتها وتمنعها عن هذا. وحين تستطيع أن تفصل السلطة عن الوطن تستطيع أن تطالبني بالتفريق بينهما.

وكأنني أحرجت نفسي و لم أحرجه.

ربما كان محقا، ما أعرفه عنه يتلخص بالسنوات التي عرفته فيها، طفولة بائسة له وأكثر بؤسا لي، مدارس متفرقة كنا ننتقل إليها في الجهراء من مرحلة إلى أخرى ضمن حياة رتيبة عشناها في مكان منزوٍ من عالمٍ لم يتسع أمامي كما اتسع أمامه، نهاية غير موفقة لتحصيلنا العلمي، إخلاصه الغريب للفيزياء والرياضيات وتعلقي الغبي باللغة والأدب. الأشهر القليلة حين كنا نستقل سيارة خاله أحيانا أو سيارة والدي. كان الرجلان بلباسهما العسكري المثاليْن الممكنيْن اللذين رأينا أن قدرنا يقودنا في اقتفاء أثرهما. زحامنا مع المئات أمام معسكر "الجيوان" للالتحاق متطوعين في العسكرية وكأنها نهاية الشوط الذي ركضنا إليه في سباقنا مع الزمن. كنا ندرك معا أنه ليس بداية أي شيء كما ندرك أنه ليس نهاية لأي شيء وإنما ثبات الزمن وتوقف كل شيء عن تطوره.

العسكرية هي الوظيفة الوحيدة التي تذهب إليها بعد أن تترك عقلك في البيت، وأحيانا كرامتك الشخصية. الحياة الطويلة التي نسير فيها إلى النهاية التي تتجسد أمامنا لعسكر سبقونا إليها. عساكر يحكون لنا عن خوفهم حتى من الريح وهي تمر بين الأشجار. حين رأيته مرة وقد غربت الشمس يجلس بعيدا عن ضجيج الثكنة المزدحمة بالشباب سألته بماذا يفكر، قال لي كلمة واحدة ونهض تاركا لي المكان "الأسوار". كان قليل الكلام يتلقى أحيانا عقابنا الجماعي

بصمت. حين يغضب منه المدرب البدوي ويشتمه يضع رأسه في الأرض ويواسيه المدرب الأردني الذي كان يحبه ولا يملك لعذاباته شيئا. أعرف الآن سر كلمته. هذه الأسوار أطبقت علي تماما وحين أفلتتني من قبضتها وقد اعتدت عليها وألفتها لم أجد لي مكانا في الحرية، كانت الأماكن كلها لهم، هؤلاء الذي لم تُرسم أقدارهم كأقدارنا بأقلام الرصاص الرخيص.

بعد الكأس الثالث بكيت، و لم يكترث.

- لن أطالبك الآن أن تغير شيئا، أن تتحرك في الوحل الذي وصل إلى أذنيك.

قال لي وهو يُدني مني علبة المحارم من على طاولة تفصلنا. طاولة تبدو لي الآن وكأنها الكرة الأرضية باتساعها. نهضت إلى الحمام وغسلت وجهي وأنا أنظر إليّ في المرآة كمن يتذكر ملامحه التي غابت في ثلاث كؤوس خمرة. عدت إليه كان واقفا ينظر إلى البحر من الشباك. قال لي ببعض الوجوم:

- هل تعلم أنني لم أر هذا البحر من قبل؟
- ربما لا تتذكر إن كنت رأيت هذا البحر من قبل.
- ربما، سأحاول أن أتذكر رغم أن ذلك ليس مهما، ولا يستحق أن أعبث بذاكرتي المرتبة جيدا من أجله.

عاد إلى مقعده ليقابلني ثانية. وحاول أن يصب لي الكأس الرابع ولكنني رفضت. كان عليّ أن أعود إلى البيت ولا أريد أن تحدث لي مشكلة مع رجال الشرطة في الطريق إلى البيت.

- لن تذهب إلى البيت، بإمكانك أن تنام هنا. اتصل بأهلك. سنمضي الليلة معا فربما لن نلتقي ثانية.

- هل أنت سعيد بلقائي؟

و لم يرد. ما يفعله الآن هو مجرد خوف عليّ من قيادة سيارتي من العاصمة إلى الجهراء وأنا ثمل، بالتأكيد هو لا يعرف أنني لا أمتلك أوراقا ثبوتية ولا رخصة قيادة ولا ما يدل على أنني أنا.

لم أرفض مقترح أن أنام عنده وإن لم أصرح له بذلك. رفع سماعة الهاتف وتحدث بلكنة أمريكية مع خدمة الغرف حتى أنني لم أفهم كلمة مما قال، وكأنني لم أدرس هذه اللغة ثمان سنوات، ربما تذكرت الآن فقط أنني نسيت ذلك منذ ست عشرة سنة. تحرك ناحية الخزانة وأخرج زجاجة نبيذ أحمر وكأسين وأزاح زجاجة الويسكي وكأسينا عن الطاولة لتحل زجاجة النبيذ وكأساها مكانها. لم يكن للزجاجة فلينة أدار غطاءها المعدني بيده وفتحها.

- لا أعرف إن كان هذا النبيذ جيدا أم لا؟ سنرى.

قال وهو يصب قليلا منها في كأسه ثم يديره كمحترف شراب ويتذوقه.

- لا بأس. ليست جيدة ولكنها ليست رديئة أيضا.

وترددت قليلا ولكنني سألته

- من أين تحصل على المشروب هنا؟

وابتسم أو ضحك بهدوء وهو يتكلم

- من القاعدة العسكرية؟ ألا تعرف أن لنا قاعدة هنا؟

ولأنني أعرف أن "لهم" قاعدة هنا سكت. ولكنني لا أعرف أنهم يبيعون فيها خمورا.

صب لي كأس نبيذ، كان لونه مغريا، حاولت أن أرفضه و لم أستطع. قلت:

- هل تعلم أنني أصلي؟
- وهل تعلم أن كل ما أنا فيه الآن لأنني كنت أصلي؟

لم أفهم ما قصده حينها، حاولت أن أستدرج ذاكرته إلى نقطة نلتقي عندها. لا أعلم الآن لماذا أريد أن أعيده إلى أيامه الأولى؟ لماذا أريده أن يعود كواحد منا وكأن خروجه منا سينقصنا شيئا وعودته إلينا ستزيدنا أشياء.

- تتذكر حين كنا نصلي خلف خالك في كل جمعة أزوركم فيها.

نظر إلي وكأنه يصدني عن محاولتي بأن أذكره بشيء من ماضيه، رشف قليلا من الشراب ومسح شفته السفلى بإصبعين. وضع الكأس على الطاولة وأشار إليّ بسبابته وبدا كمن يهددني.

- أنت تعتقد أنني نسيت كل شيء. لا لا لا (يكررها وهو يهز سبابته أمام عيني كبندول ساعة) أنا لم أنس يا صاحبي، أنا فقط لا أريد أن أتذكر. سأقول لك شيئا. أنت لا تعرف خالي هذا الذي كنت تصلي وراءه، ستعرفه من هذه الأوراق لتتعرف إليه. ستتعرف على الوجه الآخر له، لا لا لا ليس الوجه الآخر تحديدا، بل الوجه الأخير، الوجه الذي لا يعرفه أحد. الوجه الحقيقي الذي غادرنا به.

وكانت تلك فرصة ثمينة لأن أصل إلى هدفي

- وأنت هل لك وجه آخر منذ غادرتني.

ابتسم وقهقه وقبل أن يبدأ في الكلام رنّ جرس الباب فنهض إليه. فتح الباب عن شاب من الهند يدفع عربة صغيرة عليها أطباق مغطاة

بأغطية من النحاس، طلب منه أن يضعها على الطاولة الصغيرة بين مجلسنا والشرفة المطلة على البحر. رتب الغلام الطاولة وهو يقف إلى جانبه يرشده إلى أماكن الأطباق. أخرج الغلام من جيب معطفه الأبيض فاتورة وقعها مضيفي، ثم أخرج من محفظته مبلغا دسه في يد الشاب. وودعه حتى الباب. قبل أن يخرج وضع يده على كتف الغلام

- من أين أنت؟

قال بإنجليزية فهمتها جيدا.

- من الهند يا سيدي

- هل أنت سعيد هنا؟

هز رأسه الغلام نافيا

- لا يا سيدي

- اذهب إلى حيث تكون سعيدا.

فتح له الباب وخرج الغلام وقد أحنى رأسه قليلا وتمتم بكلمات لم أسمعها.

عاد إلى مجلسنا الصغير وحمل الزجاجة وكأسه وطلب مني أن أحمل كأسي وننتقل إلى طاولة الطعام الصغيرة خلفنا. كان حول الطاولة أربعة كراسٍ. أزاح كرسيين وهو يقول "لن نحتاج إليهما" وأعادهما إلى الخلف قليلا. ثم جلسنا إلى الطاولة. رفع الغطاء عن طبقي. قطعة من اللحم المشوي وقليلا من الخضار المسلوقة ورفع غطاء طبقه و لم يكن يختلف عن الطبق أمامي.

- فلنأكل ونعود إلى حديثنا.

كانت قطعة اللحم أمامي غير ناضجة تماما، فأحسست بالقرف من الدماء في نسيجها. لاحظ ذلك.

- لو أنضجوها تماما لن تأكلها. ستكون قاسية جدا. هكذا أفضل. ستعتاد عليها.

يقولها وكأنني سأقيم في الفندق بقية عمري. ولكنني بعد القطعة الثالثة أو الرابعة وجدتها لذيذة فعلا، ربما هو النبيذ الذي كنت أتجرعه بعد كل قطعة وكأنني أخلط الخمر الأحمر بالدماء وقد ملأت الصحن أمامي الآن وسالت إلى الخضار المسلوقة. سأعود الآن للفرصة التي أفسدها علي الغلام وهو يطرق الباب، ولأقطع هذا الصمت الذي يبدو أنه سيطول حتى ننتهي من وجبتنا.

- سألتك إن كنت أنت الآن ليس الشخص الذي عرفته.

مسح فمه بالمنديل القطني أمامه ثم أعاده إلى الطاولة

- هل تعتقد بأنني نفس الشخص؟ أم أنك تريد أن تعرفني الآن، أقصد في النصف الثاني من حياتي. سأقول لك شيئا تعلمته هناك: أنا لست الطفل أو الشاب الذي عرفته وأنا أيضا لست المسن الذي سأكونه، أنا سأكون دائما ابن الزمن القادم، الأكثر أهمية أن أطوعه كما أريد لا أن يطوعني كما يريد.
- تقصد أنك تتبدل كما يوحي الزمن.
- أقصد أنني كمن يصعد تلة لا يعرف ماذا على الجانب الآخر ولا يتوقعه ولكن عليه الوصول إليه. الحياة ليست خطا مستقيما.

هززت رأسي بالإيجاب ورأيت أن أقترح عليه اقتراحا ربما نال استحسانه.

- لماذا لا نبدأ الرواية بحكايتك أنت، أقصد حكايتك مع خالك حتى افتراقك عنه؟
- فكرة جيدة. ولكنها ليست مهمة.

وأحسست بأنه يفلت مني مرة أخرى. وعلي أن أعود إلى محاولة أخرى تقنعه. إلا أنه فاجأني بسؤال لم أود الحديث عنه.

- لماذا لم تعد إلى عملك؟ هناك كثيرون عادوا.

كانت تلك حكايتي المؤلمة وكنت أريد أن أتخلص منها، أريد أن أنساها. ورغم أنني فشلت تماما في التخلص منها أو طيها كما نطوي رزنامة السنة المنصرمة ونستبدلها برزنامة جديدة تاركين عليها كل أفعالنا الجيدة والسيئة، كانت سنواتي تتجدد دائما بألمي الذي سيقضي علي.

- سأخبرك قصتي إذا وافقت على مقترحي.
- وما هو؟
- أن نبدأ الرواية بحكايتك.
- موافق. ولكنني لن أكتب شيئا. سأحكي لك وأنت تكتب.
- وأنا أيضا موافق.

وعدت إلى حكايتي

في فجر اليوم الثاني من أغسطس أيقظني والدي وهو يرتدي ملابسه العسكرية، كان يركلني بعنف، أتمنى الآن لو أنه تركني نائما. ربما لو كان يعلم ما سيحدث بعد ذلك لي وله لتركني نائما حتى الآن ونام هو أيضاً. كانت الجهراء تشتعل في الشمال وطائرات غريبة تملأ السماء وأصوات قذائف وأعمدة دخان نراها قريبة في

المعسكرات التي تحيط في المدينة. ركبت سيارتي و لم تشرق الشمس بعد وكأنني في سباق مع موتي أو كمن يلهث خلفه. كان أبي أيضا قد تحرك إلى معسكره في الشمال. لم تكن الشوارع قد امتلأت بعساكرهم بعد. وصلت "الجيوان" بأقل من ربع ساعة. كان ذلك زمنا قياسيا للمسافة بينه وبين الجهراء. أوقفت سيارتي في الخارج ودخلت بأقصى سرعتي والعسكر يدورون حول أنفسهم حتى أننا لم نتبادل تحية أو سلاما. كان كل شيء مرتبكا في الداخل.

صرخ بي أحدهم أن أتجه إلى مخزن السلاح وأستلم سلاحي وذخيرتي. لم تكن لنا مهمة محددة سوى أن نصد العدوان عن معسكرنا. مرت ساعة أو أكثر ونحن نترقب الهجوم. سمعنا أصوات أعيرة نارية وقذائف مدافع الهاون تسقط في ساحات معسكرنا. صعدت وزميل إلى السطح الأقرب واتخذنا سور السطح متراسا ونحن نسدد إلى حيث يطلقون علينا النار. لكن النيران التي واجهتنا كانت عنيفة وأزيز الرصاص في الساتر الخرساني يكاد يخترقه، طلب مني زميلي أن نترك مكاننا ونتخذ مكانا آخر. زحفنا على بطوننا باتجاه المخرج فشعرت بقدمي تتمزق. كان الجرح باردا في أول الأمر وحين حاولت جرّ قدمي لم أستطع، فصرخت. "أصبت في قدمي" قلت له. عاد إلي وسحبني حتى المخرج ثم نزلت دون أن أشعر بجراحي. كنت أتوقع الرصاصة القادمة في ظهري. كان الألم في المكان المتوقع أن تصيبني فيه الرصاصة أشد من الألم في المكان الذي أصبت فيه فعلا. لا أعلم كيف تمكنت من تسلق السلم الخارجي للمبنى ولكنني سقطت إلى الأرض قبل أن أنهي سلالمه الحديدية. صرخ زميلي الذي يتسلق السلالم خلفي برفاقنا أن يسعفوني. نقلت

إلى المستشفى العسكري بسيارة إسعاف الوحدة، خرجت السيارة من الباب الخلفي للمعسكر وسائقها يتوقع وابلا من الرصاص من جهة لا يعلمها.

وصلنا المستشفى عبر طرق داخلية. أدخلني الممرضون بسرعة إلى الملاحظة وتم استخراج الرصاصة من قدمي. مكثت هناك أسبوعا أو ستة أيام لم أعد أتذكر. لا أعرف ماذا يحدث إلا من الطاقم الطبي وهو الآخر لا يعرف الكثير عماّ يجري في الخارج. اتصلت بأهلي من هاتف المستشفى وعرفت أن والدي لم يعد. لم أود أن أتصل مرة أخرى لتخبرني أمي أنه لن يعود أبدا. في اليوم السادس أو السابع بدت حركة غير طبيعية في أروقة المستشفى وشباب يبدو أنهم عسكرنا بملابس مدنية يصرخون بآخرين لا نراهم "أخرجوهم من هنا بسرعة". أحضروا لي ملابس رياضية وطلبوا مني أن أستبدل ملابس المستشفى بها وفعلت.

كنت لا أستطيع المشي ولكني فهمت منهم أن الجيش العراقي يدخل المستشفى الآن. أخرجوني من أمكنة يعرفونها جيدا وركبنا سيارات مدنية. دخلنا نادي الصيد القريب من مستشفى القوات المسلحة وتركونا هناك ثم عادوا ليسعفوا الباقين على أن يعودوا لنا ولكنهم لم يعودوا. كان ذلك ألما حقيقيا، أن لا تعرف مصير من يغادرك ولا مصير من تغادره. كل من يفترق عن الآخر يمتلك يقينا بأنه لن يراه ثانية. حين خرجت من بيتي كنت أفكر بأبي وأمي وزوجتي وأولادي، وحين خرجت من المعسكر كنت أفكر برفاقي الذين تركتهم خلفي والآن أفكر بهؤلاء الشباب الذين غادروني ووعدوا أن يأتوا و لم يعودوا.

كان في المقر شاب هندي وسائس خيول مصري، كنا خمسة عساكر تبرع الرجل المصري بتوصيلنا إلى مناطقنا ولكننا فضلنا أن ننتظر حتى تغرب الشمس ويحل الظلام، لو اكتشف أمرنا لا نعرف عاقبتنا ولا ما سيحل بالرجل المصري. وحين لم نجد حلا بديلا اقترحنا عليه نقلنا إلى أقرب منطقة سكنية. طلب أحدنا أن ننتقل إلى أقربائه في منطقة "خيطان" المقابلة لنادي الصيد والتي يفصلها عنه طريق الدائري السادس السريع وهو طريق يصل بين الجهراء وساحل البحر. تركنا الرجل المصري في منزل أقرباء الشاب وغادر دون أن نسأله عن اسمه، في لحظات كهذه لا تبدو حتى أسماؤنا مهمة، فنحن لا نعرف أسماء بعضنا. في آخر النهار تذكرت أنني تركت كل بطاقاتي الشخصية، هويتي العسكرية وإجازة القيادة في ملابسي العسكرية في المستشفى. ستعرف فيما بعد أن تلك كانت آخر بطاقات تعريفية أحملها منذ ذلك التاريخ.

حاصرتني الدموع ونهضت مبتعدا عنه متظاهرا بأنني أتابع لوحة تشكيلية معلقة على الحائط، كنت أحاول أن أرعى قطيع ذكريات لا يرغب حزني في جمعها. قال لي وقد نهض دون أن يكمل طعامه حاملا كأسي نصف الممتلئ وكأسه.

- اشرب! لكي لا تنسى، يجب ألا تنسى.

حاولت أن أبتسم.

- يقولون إن الشرب يساعد أن ننسى.

عاد ليجلس على الكرسي، ربما ينتظر أن أعود إلى الكنبة ولكنني فضلت أن أبقى واقفا.

- ليس في حالة كحالتك، سيساعدك أن تبوح، أشعر وكأنك تقول هذا للمرة الأولى.

- لا. ليست المرة الأولى. قلت هذا من قبل في التحقيق وفي القضاء.

تظاهر بأنه مندهش لما سيأتي أو كان مندهشا فعلا. لا أستطيع أن أستبين تعابيره بدقة. عاد مرة أخرى إلى طاولة الطعام وبدا وهو يتابعني كمن ينظر إلى شاشة تلفاز.

في المساء اجتمع شباب من أماكن عدة لدى صاحب المنزل يفكرون بطريقة ينقلوننا فيها إلى منازلنا. كنت وعسكري آخر نسكن الجهراء، لم أكن أعرفه من قبل. كان صغير السن منكسرا ويتلفت حوله كثيرا، يكاد يرتاب في كل شيء.. سألني سؤالا واحدا عرفت منه لماذا هو خائف. "أنت كويتي؟" قال. كان سؤالا غبيا فقلت "ماذا ترى"؟ قال لي "أقصد أنت.." وقبل أن يكمل قلت "نعم أنا عسكري كويتي". كنت أعرف الإجابة التي يريد ولكني بخلت عليه بها كي يطمئن أنني معه.

أمضينا الليل نتحدث كثيرا عما حدث بعد أن قدم صاحب المنزل لنا الطعام وطلب منا أن ننام على أن نرحل في الصباح الباكر. كانت السيطرات العراقية تسد كل شارع من الشوارع الرئيسة. سمعت الرجل يتحدث لأصحابه وكأنه يقصدني. من الذي سيجازف بنقل شخص مصاب برصاصة. فكرت بالحمل الذي ألقيته على عاتقهم. نمنا كيفما اتفق في الديوان وشعرت أنني أنام دون خوف. ولكن الشعور الذي أفزعني في الصباح لا أعرف كيف أصفه. كانت الغرفة خالية من الذين اقتسموها معي ليلة البارحة. توقعت أنهم خرجوا لشأن ما وسيعودون. لكن الوقت مرّ ببطء قاتل. طرقت الباب بهدوء متوقعا أن يجيبني أحدهم. لا صوت في البيت. قررت أن

أخرج إذا انتصف النهار و لم يدخل الغرفة أحد أو يرد على طرقي الباب. سمعت فجأة صوت رجل وامرأة من الداخل فطرقت الباب ثانية و لم يردا عليّ. لست بحاجة لذكاء خارق لأعرف أنهم يريدون مني الخروج ويتحاشون طردي.

قبل الظهيرة بقليل سمعت جلبة في الداخل وصراخا يبدو عراكا بين رجل وأكثر من امرأة. توقعت أنني معني بموضوع هذا الجدل وأن العائلة تحاول التخلص مني وعلي أن أخرج من البيت ولا أتسبب بمشكلة للعائلة. حاولت أن أحدث أحدا ليتبرع لي بدشداشة وشماغ أو غترة بيضاء ولكن الصوت أصبح الآن أكثر ارتفاعا وحدة ثم فجأة اختفى صوت الرجل وبقي صوت امرأة يبدو أنها في عمر متقدم تتحدث مع أخرى شابة. لا يبدو الوضع الآن مريحا وعلي أن أخرج وأجد طريقة للوصول للجهراء.

خرجت ووجدت نفسي في منتصف فناء البيت حين فتح باب داخلي خرجت منه امرأة في الستينات من عمرها توقعت أنها صاحبة الصوت الأعلى في الجدل قبل قليل. قالت "لاتذهب ياولدي! أنا سأوصلك حتى باب منزلك" واعتذرت منها كي لا أسبب لها مشكلة هي في غنى عنها. "لن تخرج وأنت مصاب سيعدمونك". لفت عباءتها وطلبت من الفتاة الشابة أن تأتي معها. "هل تستطيع قيادة السيارة؟" سألتني فقلت "نعم أستطيع". "سأكون أنا مريضة وعليك أنت وابنتي نقلي إلى المستشفى". كانت تلك خطتها، بسيطة كبساطتها. ركبت هي والبنت في المقعد الخلفي وقدت السيارة متجها إلى مستشفى الفروانية أولا. كانت نقطة سيطرة واحدة لم تهتم بنا كثيرا. كان العسكري يطل برأسه من النافذة ليرى من في

السيارة ويعلق تعليقا سخيفا ثم يتركنا نكمل طريقنا. تجاوزنا مستشفى "الفروانية" ومررنا بسيطرة أخرى في الطريق إلى الأندلس ومنها إلى الجهراء وأحسست براحة وكأنني عائد الآن إلى وطني.

كان أداء المرأة رائعا في كل نقطة تفتيش حتى وصلت تيماء ودخلت شارعنا. أوقفت السيارة. نزلتُ وأخذتْ مكاني الفتاة الشابة وأنا لا أجد كلمات شكر تستحقها هذه السيدة التي لا أعرف من هي ولن أعرف. "شكرا ياخالة، وشكرا لك" أقصد الفتاة "أمك امرأة شجاعة" وردت الأم "شجاعة و لم تنجب رجلا شجاعا، اعذره ياولدي". عرفت أنها تقصد ابنها الذي كان يجادلها في التخلص مني.

حين وصلت البيت دخلت متكئا على عصا مكنسة خشبية أخذتها من نادي الصيد. لم أر والدي في مجلسه. سقطت أمي تحت قدمي ووضعت زوجتي يدها على فمها وقد اتسعت حدقتا عينيها. ركض أطفالي إلي وتعلقوا بقدمي السليمة وأنا أبعدهم عن المصابة.

عرفت أن أبي لم يعد ولكن أمي وكأنها كانت مطمئنة عليه "لا تخف هو أسير" ثم التفتت إليّ وهي تنظر إلى قدمي الممددة أمامها. "إنهم لا يقتلون الأسرى، العرب لا تقتل المنيع". كانت أمي تصور الحرب وكأنها غزوة بين قبيلتين. على أية حال أن يكون أسيرا أخف وطأة علينا بالتأكيد. أن نعيش أمل عودته حين ينتهي هذا العبث المباغت خيرا من أن نعيش يقين فقده.

لم أشعر برغبة بسرد تفاصيل مؤلمة لا طائل منها. كان كل شيء يتجسد أمامي كأنه الآن، تفتعل ذاكرتي بكل ما أريد لها أن تدفنه في الخلايا الميتة من الذاكرة. أحسست بأن عليّ اختصار

الحكاية والتي بدا يستمع إليها دون رغبة حقيقية في التفاعل معهـــا. كان يهز رأسه كغريب يستمع لحديث غريـــب في موقـــف قطـــار وسيفترق عنه دون أن تترك الحكاية فيه أثرا مستقبلا. ولن يتـــذكر حين يصل إلى بلده شيئا منها. كنت أتحدث إليه وهو لا يزال يمد يده إلى الطبق أمامه ويأكل بعادية من يستمع إلى من يحدثه عـــن قصـــة تاريخية من القرون الماضية.

- أكمل! تبدو حكايتك حزينة فعلا.

قال وهو يتناول قطعة خضار من الطبق أمامه. ويرشف قلـــيلا من خمرته.

أنت لا تتخيل الحياة التي عشتها في الأســـابيع الأولى، كنـــت منعزلا عن كل شيء، لا أرى العالم حولي وكانت أمـــي وزوجـــتي يحرصان على اختبائي في غرفتي كمن يحرصن علـــى عـــذراء مـــن السبـــي. زارني أعمامي فترة من الوقت وكانوا يوفرون مؤونة البيت حتى بدأ الطعام يشح ويؤثرون به زوجاتهم وأطفالهم. لم يفكر أحـــد بأبـــي الأسير الغائب وبوضعي كجريح حرب. وليس لي أن ألومهم، كانوا جميعا يرون أنفسهم أولى بالاهتمام. أحسست بالـــذل الـــذي يتعرض له الرجل حين يعيش مختبئا كامرأة وسط النساء.

كانت أمي ترعى البيت وتوفر معيشته وتبيع حليتـــها دون أن أعلم. قررت أن أخرج من مكاني وليكن ما يكـــون. زودني أخـــي الأصغر بإجازة قيادة مزورة. مرّ اليوم الأول بشكل طبيعي، أوقفـــتني نقطة التفتيش وكنت أرتعد وأنا أمد رخصة القيادة بأطراف أصابعي للعسكري الذي لم تتغير ملامحه، نظر إليها وكأنه يؤكد لي أنها مزورة ومقبولة. أشار بيده أن أمضي ومضيت.

اليوم التالي كان يوما مختلفا. كان العسكري يقف إلى الخلف ويتصدر المشهد ضابط أنيق بعض الشيء. شاب مفتول العضلات أبيض الوجه لم تؤثر على سحنته شموس شهر آب الحارقة. "انزل!" قال لي. ونزلت. "تعال". وأنا أقترب منه محاولا أخفي عرجي قليلا كان يحدق بقدمي. "تعرج؟" وهززت رأسي بنعم. ثم أشار إلى العسكري خلفه أن يرفع ثوبي ليرى رجلي ملفوفة بشاش أبيض. "هل هذه رصاصة؟" قلت "نعم" وأكملت "لم يقصد الجندي إصابتي كانت عن طريق الخطأ". طلب مني أن أركب سيارة عسكرية مكشوفة كان قد جمع بها شباب ورجال بأعمار مختلفة قادتنا حتى مخفر "تيماء" ومنها إلى معسكر "الجيوان" لنمنح خيارين لا ثالث لهما: الترحيل إلى العراق أو الالتحاق بالجيش الشعبي. اخترت الثانية بدون تردد.

حين خرجت من معسكر "الجيوان" أخبرت أسرتي بأنني سأخرج الليلة من هذا الجحيم حتى وإن قتلت في الطريق. لن أخون قسمي ووطني. عبرت الصحراء إلى السعودية سيرا على قدم ونصف قدم بدأته بعد غروب الشمس حتى وصلت الحدود في منتصف الليل. لا يستطيع أحد أن يتخيل ما يشعر به بدوي ترك وراءه نساءه وأطفاله وعاش الأشهر الممتدة من أيلول إلى فبراير ينظر إلى السماء كل ليلة لتملأها الطائرات بالضجيج. كان الحنق يملؤني وأريد الحرب حتى لو مت فيها، ذلك هو الحل الوحيد الممكن لعودتي لأسرتي وعودة والدي. انتهت الحرب وعدت إلى البلاد وعاد والدي.

ولكن الموضوع لم ينته هنا.

حين عادت البلاد وعاد والدي من الأسر وإلى عمله تم إلقاء القبض علي وسجنت سنة كاملة دون محاكمة. جاءت براءتي من

التهمة بعد ستة أشهر أخرى من المحاكمات ولكن ذلك لم يُعدني إلى عملي. تم تسريح والدي من الخدمة لكبر السن. استعادت الحكومة بيتنا الشعبي لننتقل للسكن جميعنا مع أحد أعمامي. توقف دخلنا وكان علي أن أبحث عن سبيل أعتاش منه فجاءت فكرة المكتبة ودار النشر بعد أن تخلت زوجتي عن حليّها على وعد أن أعوضها ما أخذت وهو وعد لم يكن باستطاعتي الوفاء به.

استغربت أنه كان يبتسم وهو يستمع لجملتي الأخيرة. ورحت أتابع شفتيه حتى اختفت ابتسامته ليقول ببرود.

- هل يقلقك أنك تخلصت من قيود الجيش؟

أعدت رأسي للوراء حتى لا أنظر إليه

- يقلقني أنني أصبحت وهما. هذا القيد كان كياني كله. بهذا القيد كانت لي أوراق ثبوتية وأوراق مالية كل شهر، حين خسرت القيد خسرتها... أنا الآن لا أستطيع أن أثبت أنني أنا.

كان بودي أن أشرح له أن أطفالي الذكور يدخلون المدرسة بالتناوب عاما بعد عام والبنات لم يعدن إلى المدرسة أثناء سجني وكلفني ترتيب ذلك ثانية عناء ليس له أن يفهمه. لكنني لا ألومه ولا أطالبه بأن يفهم أو يتفهم. كان بودي أن يعرف أن الحياة التي كان يعتبرها صعبة حين كان هنا أصبحت أقرب للعتبة الأخيرة من الجحيم. وأنني أمشي على قدمي خائفا وأقود سيارتي خائفا وأعمل في مكتبتي خائفا وأنام خائفا وأحلم بلا شيء سوى الخوف، الخوف الذي يكاد يلتهمني.

- هل تعرف أنني خائف الآن؟

كان السؤال المباغت الذي وجهته هو نهاية حوار داخلي لم يستمع إليه. ولكن السؤال كالرصاصة خرج ولن يعود.

- أنت خائف من نفسك.

قال لي. وعرفت أننا شخصان متباينان لن نكون على ذات الصفحة أبدا.

- أنا خائف مما حولي.

ولكنه كان مصرا أنني خائف من نفسي.

- أنت تخاف أن تخرج من خوفك، تماما كما كنت خائفا من التخلص من قيدك.

بدا لي الحوار جديا وليس تعليق رجل أجنبي خرجت يده من النار إلى الماء منذ زمن طويل وامتثلتْ للشفاء التام. فغرت فمي وكأنني استنكر حقيقة لا أريد أن أعترف بها.

- أنت خائف من مغامرة تخسر فيها البسيط الذي لديك، الفتات الذي يلقى لرجل لا فائدة منه.

كان ذلك مؤلما ووددت تغيير الحديث ولكني آثرت الصمت.

نهض من مكانه واقترب مني. وضع يده على كتفي وهز رأسه وكأنه يعتذر بصمت بليغ وقبلت اعتذاره بذات الصمت.

- لا تغضب. فقط أردت أن أقول بأن الحياة ليست سيئة دائما في المجهول ولكن عليك اكتشافها.

و لم أرد. ليس بالإمكان أن أبدو مقنعا وأنا أتحدث عن عشقي للمكان وانصهاري فيه. لا يبدو ذلك مقنعا حتى للكائن الذي يسكنني ويجادلني أحيانا ويهزمني.

- سأنام الآن وسنكمل في الليلة التالية.

نهض إلى غرفته وأحضر لي وسادة وغطاء وضعهما على الكنبة واستأذن ليدخل غرفته. كانت رأسي ثقيلة بفعل الخمرة والزمن الذي بدا لا نهائيا وعشوائيا. لم أنم حتى أشرقت الشمس وتلألأ الضوء من خلف الستارة. في التاسعة صباحا أيقظني لتناول الإفطار في مطعم الفندق وكنت أحتاج النوم أكثر من الأكل ولكني فهمت أنه وداع لكي أذهب. تناولت قهوة سوداء واكتفى هو بقطعة خبز فرنسي وزبدة وقهوة بالحليب ولم يحدثني بشيء.

- أعتقد بأنني تأخرت وعلي أن أذهب.

قلت وهز رأسه ولم يرد. نهض وصافحني

- سأراك الليلة.

قال. هززت رأسي موافقا وغادرت.

الليلة الثانية. صعدت إلى غرفته مباشرة دون الاتصال به من الاستقبال اللعين الذي حاولت جهدي أن أمنحه ظهري وأنا أتجه مباشرة إلى المصاعد. كانت الساعة تقترب من الثامنة ولم يحدد لي موعدا ولكنه كان في استقبالي وكأنه على أهبة الخروج يرتدي قميص "لاكوست" أخضر وبنطال جينز.

- هل كنت خارجا؟

وابتسم

- كنت أنتظرك لنخرج، شاهدت على البحر وأنا عائد من السفارة الأمريكية مكانا رائعا. سنذهب إليه لتناول العشاء.

وشعرت بشيء من الخجل.

- كان من المفترض أن أدعوك على العشاء.
- لا عليك هذا عشاء عمل.

خرجنا مباشرة إلى البحر. كان الهواء مشبعا برطوبة البحـــر و لم يكن خانقا في هذا الوقت من السنة. سرنا قليلا من موقف السيارات حتى صالة المطعم. كانت واجهته الزجاجية تمنحنا مشهدا بانوراميـــا للبحر وفي الأفق البعيد بواخر عملاقة تمخره إلى جهة مـــا. الصـــالة خالية من الزبائن تقريبا. هناك طاولة يحتلها شاب وفتاة وأخرى لثلاثة شباب عرب يدخنون الأراجيل. جلسنا في زاوية بعيدة عنهم مطلـــة على البحر كاملا.

– –ماذا تأكل؟

سألني.

– أي شيء.

قلت.

تركت له أن يختار وكان للأكل رائحة شهية، مازلت أفكر في السؤال الذي لم أجب عليه قبل أن يضعوا الأكل أمامنا.

– هل تفكر جديا في مغادرة البلد؟

وجود النادلة بالقرب منحني قليلا من الوقت لأفكـــر جـــديا وبعيدا. بعد صمت ترددت وقلت له

– –لا أستطيع.

وبدا مستغربا ومغتاظا، وكأنه يعرف المنطقة الرخوة في عاطفـــة الأب.

– ألن تفعل ذلك من أجل أطفالك؟

– لن أفعل، لا أعلم ماذا ينتظرهم هنا أو هناك.

حين تناول بعضا من قطع اللحم إلى صحنه فهمـــت أنـــه تجاهـــل الموضوع. ربما لم أمنحه فرصة ليقدم لي عرضا أو طريقة للخروج من هنا.

ولكي يزيل هذا الجو القاتم الذي خيم على عيني قال لي:

- ربما ستغير رأيك حين تكتب حكايتي التي ستسمعها الليلة.
- ربما. ولكنني لا أعتقد. لقد مددت جذوري إلى أعماق يصعب على أي حكاية أن تقتلعها.

ليس له أن يتخيل الآن أن أقسى فترة في حياتي هي سنة ونصف قضيتها في السجن الذي أقامته الحكومة في مبنى مدرسة من مدارسنا القديمة. المدرسة/السجن تحمل اسم أحد صحابة النبي محمد وتقع في منطقة كان يسكنها المهمشون والذين تتطابق حياتهم وحياتنا في الجهراء. لم أكن أحد طلابها ولكنني تخيلتها مدرستي وعلي أن أمضي مدة سجن لم يحددها لي أحد ولا أعلم متى تنتهي كأنني طالب راسب لن يتخرج منها أبدا. حين دخلتها أول مرة، بعد أن أحالني أمن الدولة دون محاكمة إليها، كنت أتخيل أنني سأسجن في المرسم أو في غرفة الموسيقا. لم يكن شعورا جميلا أن تسجن في مدرسة ولكنه شعور يبعث على السخرية، السخرية التي لا تتمكن معها حتى أن تبتسم. مرّ بي الحارس الذي يدفعني أمامه ككتلة بشرية من اللحم الفاسد والجلد الزائد عن الحاجة ليمر بالمكتبة وهي الغرفة الوحيدة الخاوية ومهدمة الواجهة و لم تكن بقضبان كغيرها من الغرف. فلا تعرف هل كان ذلك توقيرا لها أم احتقارا لأنها لا تصلح لشيء.

رفعت رأسي إلى الأعلى لأرى الممرات أمام الفصول في الدور الثاني حيث كان يجري بها التلاميذ في استراحتهم أو في الدقائق العشر بين الحصص وقد حجبتها القضبان الحديدية وأحالتها لمنظر آخر، منظر بشع وتهكمي. لم أر صورا للخرائط ولا أتذكر الآن إن كنا

نعلق على الجدران صور علمائنا وشعرائنا، وإن كنا نفعل ذلك لا أجد مبررا لوجودهم كي يعيشوا وضعا كهذا.

دفعني الحارس بعنف لجوف إحدى الغرف، لا أعرف ما أسميها الآن، زنزانة أم فصلا أم توقيفا مؤقتا أو مزمنا، وكأن بيني وبينه ثأرا شخصيا لا أتذكره الآن. حين التفتُّ إليه وأنا في منتصف الغرفة ابتسمت ولكنه تجهم أكثر كمن سمعني أشتمه سرا.

كنت صبورا بطريقة غريبة لم استطع أن أتفهمها. تم سجني في عنبر أطلق عليه الحرس "عنبر الشعراء" وكان يضم شاعرا واحدا قبل أن ننضم نحن المتهمين والمهتمين بالكتب. وكنا نعرف بعضنا كأسماء، أما الشاعر فأعرفه شخصيا وكان يتجاهلني ولا يتحدث أمامي. كنت أعرف سبب خوفه وتوجسه المرعب من وجودي معه في العنبر حتى انفجرت في وجهه ذات يوم "هل تشك برجل لا يعرف متى تتم محاكمته وما هو حكمه؟" ولم يرد نهض إلى زاوية من الزنزانة وراح يدخن دون أن ينظر إلي.

يتحول باب "عنبر الشعراء" فجأة إلى حائط مؤقت يتم انشاؤه سريعا. بينما يقف أحد الحراس بيننا حين نستمع إلى وقع الخطوات أمام العنبر ونستمع لهمهمات بلغات أجنبية نعرف أن جمعيات حقوق الإنسان تزور المكان وتلتقي السجناء ولكنهم لا يسمحون لنا بالتحدث إليهم ولا يسمحون لهم بلقائنا. في تلك اللحظات يجبرنا الحارس على الصمت التام حتى تختفي أصواتهم وأصوات أحذيتهم.

كان الشاعر متهما بالتعاون مع حزب البعث أثناء الاحتلال وشاركهم أكثر من مرة في اجتماعاتهم في الكويت ولم يحاكم حتى

الآن. وكنت أعرف ذلك كما يعرفه الجميع وليس بإمكان أحد أن يثبته. لم يكن يهمني سواء كان بعثيا أو جنيّا. لكنه كان يشك بي كجاسوس عليه لتتضخم ذاته ليس إلا. في أحد الأيام توقفت شخصيات أجنبية أمام عنبرنا و لم تتحرك. احتد نقاش بينهم وبين ضباط السجن فصرخ الشاعر باللغة الإنجليزية "نحن هنا، نحن هنا" فأسرع إليه الحارس ليسكته. لكن صوت الشاعر ارتفع أكثر فسقط الحارس فوقه وتعالت أصواتنا نحاول التفريق بينهم ثم صمتْنا وأحدهم يطرق الحائط المؤقت الذي يسد باب العنبر "هنا. اكسر هذا الحائط" كان الصوت صوت امرأة وخلال دقائق أزاح الحرس الجدار وضابط السجن ينظر بحنق إلى الحارس الذي كلّف بمراقبتنا والحارس يشير إلى الشاعر بعينيه الزائغتين.

جلس الفريق الأجنبي معنا لأكثر من ساعتين يسألنا عن كل شيء ويختتم حديثه "هل ترغب بالهجرة إلى أوروبا؟" وافق الجميع وحين جاء دوري قلت "لا. سأبقى هنا". كان الجميع ينظر إلي باستغراب أما الشاعر فقال" كنت أعرف.. كنت أعرف". وابتسمت بوجهه وكأنني أؤكد له شكوكه بأنني الجاسوس الذي زرعوه ليراقبه.

بعد أقل من شهر رحل زملاء عنبر الشعراء إلى بلدان جديدة وبقيت وحدي. اقترب مني الضابط وهو يقول بحزن

"لماذا لم ترحل معهم يا بني؟"

"ولماذا أرحل؟"

"هناك حياة أفضل لكم".

"لم تعد لي رغبة بالحياة. ما بدأ هنا يجب أن ينتهي هنا".

طلب من الجميع أن يحسنوا معاملتي ولكنهم لم يفعلوا ذلك دائما. لم يقنعني بؤس حالي أو مستقبلي بأن أترك وطني، ربما كان ذلك تحديا غبيا ومعاقبة الذات وجلدها بالصبر المرّ. كان البديل هو ذاك الذي أتخيله يصنع مني سيد رادي آخر، حينها سأكره نفسي. تلك كانت فكرتي عن الانسلاخ من المكان وارتباطها القسري بالانسلاخ عن الذات.

كان رومي يتناول طعامه بلذة واضحة وكأنه لم يأكل منذ زمن.

- نادرا ما أجد فرصة هناك لتناول وجبة طيبة، ليس لدينا في أمريكا ثقافة حقيقية في الأكل. لسنا كالفرنسيين أو الايطاليين ولسنا كالأتراك والإيرانيين أيضا، نحن أسوأ شعب يأكل.
- هل تتذكر أكلنا نحن؟

قلت له وأنا أضغط على مخارج حروف كلماتي.

- أتذكّر أننا كنا نأكل اللحم المسلوق مرة في الأسبوع وغالبا لا يكفي المرأتين والرجل والفتى الذي كنته.

وابتسمت وأنا أقول له

- كنت أكتفي برائحة اللحم.

حين رفعت النادلة الأكل سألني

- هل تشرب شايا أخضر؟.
- لا. أريد شايا أعرفه.

وطلب له شايا أخضر وشايا أحمر لي ثم التفت إلى البحر.

- أشعر بسعادة غامضة الآن. سأقول لك كل شيء كما توحي خفة سنوات عمري القليلة.

وللحظة ولسبب لا أفهمه بدا اهتمامي السابق بحكايته يخفت كأي لهفة مر عليها ليلتان. لكنني سأسمعه على أية حال ربما سأتجاهل تدوين ما سيقوله حين أكتشف أنه لا يستحق أكثر من الزمن الذي صحبته فيه وهو يسرد حكايته.

طلب مني أن نذهب للجلوس على الشرفة الأرضية المطلة على البحر وكنا نستمع لصوت رفٍّ من الطائرات الحربية تحلق فوقنا متجهة إلى الشمال الشرقي. بدا مترددا لا يعرف من أين يبدأ حكايته ولكنني كنت أود أن أعرف حكايته من فترة رحيله وهي المرحلة التي لا أعرفها، إلا أنه بدأها من زمن تشاركنا به معا. في الحقيقة لم أكن أعرف كثيرا من تفاصيل سردها علي.

الروائي

مداخل التكوين

-1-

كان الوقت عصرا مرتخياً كشفاهٍ مذهولة، حين عاد خالي "ضيدان" من البرية يتقدم الراعي بمسافة طويلة حافظا عليها معا كما يحافظ العسكر على الخطوة في المسير، وحافظت عليها الأغنام. راح صدى جرس "مرياعها" يضج وكأنه يضرب الأفق البعيد ويرتد. كان المرياع كبشا بصوف أبيض ورأس أسود وعينين صفراوين واسعتين وكأن قيادة قطيع الماشية التي أوكلت إليه ورثها عن أسلافه والذين أعتقد أن خالي ضيدان وحده يعرفهم. ورغم انقياد القطيع السلس للمرياع، الذي يجد متعة يعتريها الزهو تمنحه إياه صفة القيادة، كان الراعي يرى أن مسير قطيعه مرتبك بعض الشيء فيترك المقدمة ليدع مهمتها كاملة للمرياع ليهرول خلف القطيع يلملم أطرافه وقد تمددت بفعل كبشين شقيين يتناطحان على لا شيء وفحل أخرق يجرب حظه مع أنثى في أول البلوغ. ودون أن ينتبه إليه خالي يمارس الراعي الزجر أحيانا والعصا أحيانا أخرى وكان الخال يتقبل الأولى على مضض ويرفض الثانية رفضا تاما فهو يرى أن الحيوان الذي يعتاش عليه يستحق معاملة كريمة.

كنت أسير خلف الجميع أتابع غباراً ناعماً تثيره قوائم الماشية وأداعب بكلتا يديّ برتقالة اشتراها خالي من ساحة الصفاة دون أن أطلبها منه، كان ذلك بالأمس، ومازلت أداعبها منذ صباح الأمس بمتعة أريد لها أن تطول وبرغبة لا أريد لها أن تنتهي. أمررها بكامل استدارتها على صفحة خدي وأشم رائحتها عبر مائها الذي تنزه مساماتها تحت ضغط راحتي على خدّي.

اقترب القطيع قاطعا الدوّ الفسيح من تلال "الأطراف" شمالا حتى المساحة التي تفصل عشيشنا عن عشيش جيراننا وهي مسافة بحجم ملعب كرة قدم طولا وعرضا. حين وصلنا البيت اقترب الخال ضيدان من كوز الماء فعبّ نصفه في جوفه ثم أخرج أحواض الحديد إلى الخارج وثبت أول الخرطوم الذي كان يتلوى على الرمال كصلٍّ في فوهة صنبور أحد خزانات حديدية ثلاثة تقعي بأشكالها المربعة المتساوية وترتفع عن الأرض بنفس العدد من الطابوق الإسمنتي. أدار الصنبور فارتعد الخرطوم الأسود وكاد يرتفع قليلا عن الأرض وهو ينزّ الماء من ثقوب صغيرة على جسده المتشنج تحت ضغط الماء. ملأ خالي ضيدان الأحواض وانتظمت الأغنام بتلقائية اعتادت عليها. تركته عائدا إلى أمي كمن يحمل بشارة خير "عدنا وخالي بالأغنام". ولكنها لم تهتم كثيرا التصقت بالباب لتطل من فتحات خشبه شبه المتساوية وانسحبت بسرعة حتى بدت من خلف الأخشاب كستارة حجبت الضوء قليلا وانحسرت.

كنت في السادسة أرافقه كظله وأحيانا أتسبب بنزق طفولي بإزعاج يومه المرّ ولكنه لم يكن ليشعرني بضيقه وتأففه، كان يحتملني بصدر محب وأنا أجمع صفات لا أشعر بها في حينه: اليتم، الفقر، والتبني.

وربما شعور آخر لا أعلمه، وحتى وفاته وأنا أبحث عن حقيقتـــه دون أن يخبرني بها. فحكاية يتمي واختفاء أقارب والدي عن الحياة التي عشـــتها منذ طفولتي حتى اغترابـــي واليوم الأخير الذي اقتسمناه معا قبل موته لم تكن لتدخل عقلي الطفل حتى يستوعبها عقلي الناضج.

عدت مرة أخرى إلى الخارج وكانت الأغنام منهمكـــة تضـــع رؤوسها في الأحواض ثم تهزها حين ترتوي نافضة الماء بمـــا يشـــبه السخرية لتبتعد عن الأحواض وكأنها تدرك القادم. بدأ الراعي ينـــزل أكياس العلف من علية تقع إلى جانب مطبخ والدتي مـــن الخـــارج وينثره في أحواض العلف فيما راح يثبت في الأرض أربعـــة أعمـــدة يوصل بينها بأربعة حبال تتدلى منها عقد مستديرة يلفها حول قوائم الأغنام المستسلمة لحركته الرشيقة. كنت أعتلي أحد الخزانات وأنظر نحو الشمس التي بدت تغرب خلف تلة "النّهد" وخالي ضيدان يلـــح على الراعي وقد أنهى عمله أن يعود إلى البرية ليرعي بقيـــة القطيـــع الذي تركناه هناك. كان المرياع هو الكبش الوحيد الذي تـــرك دون قيد ليلحق بالراعي الذي همّ بالعودة. تحرك المرياع خلـــف الراعـــي وكأنه يدرك أن تلك هي حركة العودة دون أن يطلب منه أحد ذلك ودون أن يعترض عليه أحد. ابتعدا في المساحة الخالية بين منازلنا وتل "النهد" باتجاه أعمدة الكهرباء الضخمة وأنا أتابعهمـــا مـــن بعيـــد يترافقان كشقاء يصاحب شقاء، ولكن المرياع حـــافظ علـــى ذات المسافة التي فصلته عن الراعي في رحلة الـــذهاب وخَفَـــت صـــوت الجرس حين أخذهما البعد عن بصري وسمعي ليختفيا تماما.

غابت الشمس وهدأت نقنقة الدجاج في القن. جلـــس خـــالي ضيدان وحيدا في الديوان قبل أن تنهي والدتي عشاءه الذي اعتاد عليه

حد الإدمان: رغيفا خبز تنور وحليب يعلوه سمن حيواني لا يطيق الامتزاج به وكأنهما لم يكونا اشتقاقين لمصدر واحد. يقطّع خالي الرغيفين بيديه بذات العجلة التي يكررها كطقس ويرميهما في طاس الحليب ثم يرفع كم دشداشته إلى منتصف ساعده الأيمن ويهرسهما دون أن يذوبا في السائل الذي بدأ يتجانس عنوة حين يتشربه الخبز. لا أتذكر أنه دعاني مرة إلى عشائه هذا كما يفعل في أوقات أخرى و لم أعرف حتى الآن سبب ذلك. حين ينتهي يسألني:

"هل تعشيت؟"

وهو يلعق يده المبللة بالسمن ويمصّ أصابعه بذات اللذة.

"لا. أمي لم تضع العشاء بعد".

"اذهب لتأكل وارجع لنستمع للراديو معا".

وكأنها تستمع إلينا تطل من خلف الباب الجانبي المؤدي للديوان وبصوت خفيض تنادي "رومي. ادخل لتأكل" وخالي ضيدان يحرك سبابته أن أذهب إليها.

كانت والدتي تعلق السراج الأزرق على أحد أعمدة العريش ليترك دخانه سوادا مشبعا على طرف العمود كي تتمكن من رؤية صميل اللبن الذي يتأرجح بين الأعواد الثلاثة القصيرة كجسد طفل منتفخ بلا أطراف. وضعت أمامي رغيفا طازجا وزبدة بيضاء أخرجتها من صميل اللبن قبل أن تنادي علي.

"هل ستشرب شايا وحليبا كالعادة؟"

وهززت رأسي بنعم.

جلست أمامي كأنها تنتظر ما يتفضل من طعامي.

"هل تأكلين معي؟"

وضحكت.

"لن أخدم أحدا وأنا جائعة".

وكأنها نسيت شيئا باغتها تذكُّره فنهضت واقفة كمن شاهدت دبيبة على الرمال الدافئة. دخلت المطبخ وبعد أقل من دقيقة عادت تحمل طبقا بيد وسراج المطبخ باليد الأخرى لتدخل حجرة جدي – والدها – في الزاوية اليمنى من الحوش وهي أصغر الحجرات تحتوي بساطا محاك يدويا مفروشا على حصير بلاستيكي عريض ووسادة رأس وأغطية للشتاء نضدها أمي على صندوق حديدي مقفل بقفل أخضر كبير وكأنه يخبئ كنزا لن يفتح إلا عند وفاته.

سمعت همهمة الجد وصراخ أمي وهو مشهد لست بحاجة لأشهده حتى أعرف تفاصيله. مشهد يتكرر غالبا في الوجبات الثلاث المقدمة عنوة للجد. أو المرات التي تقوم بتنظيفه ومسح جسده بقطع القماش المبللة بالماء. أما استحمامه الأسبوعي فتلك مهمة خالي ضيدان الذي لا يسمح له بالممانعة. فيدلق إبريق الماء النحاسي على جسده بسرعة أولا وبمجرد أن يجرده من ملابسه. ينتفض الجد قليلا ويبدأ بهمهمة نفهم منها أنه يشتم قبل أن يصب الخال الإبريق الثاني على الجسد المرتعش، فيهدأ الجد إما تحت وطأة الاستسلام أو الانتعاش فليس له ملامح تدل على شيء. يوسده خالي ثانية ويغطي جسده حتى الرقبة يقبل جبينه فيبتسم الجد كمن يعتذر عن شتائمه الصامتة.

أنهت أمي فصل صراعها مع الجد الذي يرفض كل ما يمنحه الاستمرار في الحياة وفي المقابل يرفض أهلي تقبل فكرة أن ينهي حياته بإرادته. حياته التي توقفت منذ زمن لم أدركه وما أعرفه هو قصص

ترويها أمي لي ليس حبا في الحكي ولكن لاستعادة ذكرياتها معه حين كان رجلا كاملا.

وكنت ألاحظ كيف تغلق عينيها على صوره المبللة بالدموع.

سهرت تلك الليلة مع خالي وهو يستمع للأخبار أولا ثم الأغاني حتى منتصف الليل. قال لي:

"اذهب لتنام في فراشك"

كنت نعسا ومتعبا منذ الصباح. ارتقيت السرير الخشبي المرتفع عن الأرض قليلا وضغطت جسدي على السجادة التي أنشفتها الشمس فسمعت أنين الخشب ونمت.

-2-

صحوت حين لسعت حرارة الشمس قدمي العاريتين ودعكتهما ببعضهما ولكن ذلك جعل الأمر يزداد سوءاً. تململت ونهضت قبل أن يصل صوت أمي "إنه الظهر.. حين تبدأ المدرسة لن تسهر حتى منتصف الليل". وقلت "أين خالي؟" و لم ترد. مسحت شفتها السفلى بسبابتها وهي تنظر بعيدا في عيني. والدتي تجيد استخدام لغة خاصة أداتها الوحيدة سبابتها. فحركة كهذه تعني "لعنة الله عليكما". وحين تحركها تحت عينها اليمنى تعني "إنك تبالغ وكذاب" وحين تعض عليها أفقيا تتوعدني بأن تسلخ جلدي.

قفزت عن السرير الخشبي إلى الأرض وركضت إلى الديوان حيث ينام خالي و لم أجده. سمعتها تنادي "لقد خرج وتركك". وكأنها تحاول تشويه علاقتي به. عدت مرة أخرى إلى البيت لأخرج من الباب الرئيس متوقعا أن خالي خرج بالأغنام إلى المرعى. كانت الأغنام أمام البيت وقد رفع لها خالي شراعا على الأعمدة الأربعة تستظل به من حرارة الظهيرة .كان خالي ضيدان في ذلك الوقت شابا فتيا في الثانية والعشرين من عمره تقريبا يفوقني بست عشرة سنة وكوني من مواليد 1960 فهذا يعني أنه من مواليد عام 1944 ضخم العظم نحيل الوجه أخمص بساقين طويلتين له شعر خفيف فوق شفته العليا ولحية قصيرة الشعر. شعر رأسه طويل حتى الكتفين يشدّه دائما بكوفتيه الحمراء

يربطها حول رأسه بما يشبه العمامة. له بشرة داكنة كقشر الرمان بفعل شموس الظهيرة لا تتوافق مع بياض بقية جسده. حين التحقت بالسنة الدراسية الأولى اكتشفت للمرة الأولى أنه يقرأ ويكتب ولكنني لا أعرف إن كان ذهب إلى مدرسة قبل ذلك أم لا. وكانت أيضا المرة الأولى التي يضربني بها هي حين أخطئ في قراءة كلمة أو رسم حروفها.

قبيل العصر عاد خالي بعربة يجرها خيل كديش هزيل اجتمع حوله الذباب حال وقوفه بين خزانات الماء والساحة الترابية الخالية حيث نصبت فيها خيمة الأغنام. بدأ سائق العربة بإنزال ألواح الخشب فيما دخل خالي ضيدان البيت وهو يحمل صندوقا خشبيا وأنا أركض خلفه

"لماذا لم أذهب معك؟ ما هذا الصندوق؟ لماذا تركتني نائما؟"

و لم يرد إلا وهو يخرج ثانية إلى العربة

"تعال ساعدني!"

وراح يساعد صاحب العربة وهو يصف الألواح بعناية مفتعلة على الرمال الناعمة بجوار الخزانات.

أنزلت من العربة خشبتين قصيرتين، يبدو أنهما كانا فيما سبق قطعة واحدة قبل أن يفصلهما المنشار إلى قطعتين متساويتين بطول متر ونصف. يتشابهان في نهاية طرفيهما القريب مني والذي بدا طريا مقارنة في نهايتهما من الطرف اليابس البعيد. كان خالي قد أنزل بقية الألواح وخشب "المورين" المربع وودع صاحب العربة. راح كديشها يجرها بخفة بعد صرختين من صاحبها. ثم سار إلى جانبها قليلا قبل أن يقفز إلى داخلها كلاعب السيرك.

توقعت أن تلك هي مساعدتي التي طلبها مني الخال، إلا أنه استوقفني وأنا أهم بدخول البيت.

"إلى أين؟ ألن تساعدني؟"

التفت إلى الخلف محدقا بالأخشاب أمامه

"ساعدتك"

ضحك ثم ركض نحوي ورفعني إلى أعلى ليوقفني على قمة تل الأخشاب.

"ليس بعد، سنبني حظيرة للأغنام".

تركني متصلبا كشجرة صغيرة فوق الأخشاب ودخل البيت ليعود بالصندوق الذي أدخله قبل قليل. لم نغرس في الأرض نصف أعمدة "المورين" بعد حين نادت أمي أن ندخل لنأكل وكنت جائعا فعلا وتذكرت أنني لم آكل منذ الصباح.

"ماهذا؟"

قال خالي وهو ينظر إلى حساء العدس والأرز الأبيض. وصبت أمي عمود نظرها نحوه غضبا.

"عدس".

ضحك و لم أفهم ما يقصد

"أمك متأثرة بالعسكر".

كنت آكل وهو ينظر إلي كلما رشف قليلا من العدس

"إنه لذيذ". قلت.

قال وهو يتحاشى نظرات أمي

"لذيذ ولكن عليك أن تبتعد عنه حين تتزوج".

و لم أفهم و لم أسأل ماذا يقصد. كنت أتوقع أن خالي يبحث عن مشكلة يشاكس بها أمي. عاد إلى العمل وأمي تخرج مرة أخرى بالسحنة ذاتها ونظرة يفهمها خالي جيدا، كما أفهم حديث سبابتها،

تحمل إبريق الشاي وصينية وضعت عليها كأسا واحدة له تركته فوق ألواح الأخشاب وانتظرتْ قليلا كمن تريده أن يعلق وحين رأتْ أنه مشغول دخلتْ البيت. استمر الخال في عمله يسابق الشمس التي بدأت تنحدر في البعيد وهو ينظر كمن يتوسلها أن تتوقف على حد الأفق حتى ينهي ضلع الحظيرة الأبعد عن حوش البيت الذي مثل جداره الضلع الرابع لها.

تسمح لي الزرقة الآن أن أتابع صوت المطرقة على مسامير الأربعة إنشات دون أن أتمكن من رؤية المسمار. حين يختلف صوت الطرق لسبب أجهله أرى شرارات النار تجدح أمام عيني خالي وأكاد أستمع لوجيب نَفَسه يعلو ويهبط. يبدو مستعجلا وهو يجلس القرفصاء يرفع يده بالمطرقة لتتحرك فوق كتفه وتهوي بخفة على المسمار الذي يخترق الخشب اليابس بثلاث طرقات أو أربع وبنفس العدد من الأصوات المتباينة حتى الصوت الأخير حين تهوي المطرقة عليه وقد اكتمل دخوله جسد الخشب. ينتقل خالي إلى لوح خشب جديد يلصقه على المورين القائم والمدفون ثلثه تقريبا في الأرض. يضع مجموعة مسامير بفمه ويمسك باللوح يضغطه بيد واحدة على المورين، وبالأخرى يختار مسمارا من بين أسنانه يضغطه بقوة في اللوح ثم يطرقه بشدة ليربط اللوح بالمورين القائم. في الطرقة الثانية وبصوت مغاير عن أي صوت سابق يجدح المسمار بلهب أزرق مقاوما صخب الحديد الثقيل للمطرقة بما يملك من حديد.

فجأة يصرخ خالي وهو يضع راحته على جبهته ثم ينهض وقد طأطأ رأسه نحو الأرض قليلا. خرجت أمي من البيت على صرخته. هرعت إليه وكنت قد سبقتها

"ما بك خالي"؟ قلت.

تقدمت أمي نحوه لترفع يده عن جبهته لكنه رفض

"دعني أرى".

"لاشيء مهم".

حين اقترب من السراج المعلق في عمود العريش رأيت الـــدماء تملأ راحته وتمر بين أصابعه. عادت أمي وفي كفها خليط من الـــبنّ ورماد النار في خرقة بيضاء تضعهما على الجرح مباشرة، الجرح الذي لم أتمكن من رؤيته جيدا لكنني تخيلته ثقبا غائرا في جبهته. بعد زمـــن يسير، التأم الجرح وتحول إلى ندبة سوداء بين عينيـــه الواســـعتين لم يتمكن الزمن من محوها وفي أيامه الأخيرة كان الجرح ندبة عميقـــة تحدّث عنها الخال ضيدان بمرارة.

-3-

اليوم الأول للمدرسة. خالي يبدي حماسا غير طبيعي ولا يقارن بفرحة أمي. أقابله بكثير من الحزن ورغم محاولتي أن أتماسك فشلت وبكيت. توقعت أن رحلة هذا الصباح للمجهول وأنني لن أعود بعدها إلى البيت. تركني خالي في الفصل الذي أشار إليه وكيل المدرسة والذي يبدي جهدا استثنائيا في استقبال التلاميذ الجدد. في آخر النهار عاد بي خالي إلى البيت لأجد أمي متهللة وقد ذبحت دجاجة في غير يوم الجمعة. كنت جائعا وأكلت بشراهة. خالي يفتش الحقيبة التي أخذها خالية وعدت بها تمتلئ بكتب لا أعرف ما الذي كُتب فيها.

خالي يقرأ ويكتب، ويطلب مني أن أعيد الدرس الذي درسته اليوم ويقرأه بالإتقان ذاته الذي قرأه به الأستاذ السمين هذا الصباح. نظرت بدهشة إليه

"أين تعلمت القراءة"؟

وضحك قال تلك قصة طويلة حين تكبر سأقولها لك. و لم يجد فرصة يحدثني عنها إلا في الأيام التي قضاها معي قبل وفاته وبعد عقد ونصف من الزمان وكثير من الأوجاع.

توقف عن مصاحبتي للمدرسة بعد يومين فقط لسببين مختلفين. الأول أن الحكومة ترسل الباصات المدرسية لتقلّنا من أمام بيوتنا

وتعيدنا إليها. والثاني أنه لم يعد في البيت. في ذلك الصباح سألت أمي عنه قالت

"إنه يذهب إلى المسْطَر".

ورفعت يديها إلى السماء بطلب من الله لم أسمعه جيدا. لم أكن أعرف ماهو المسطر ولماذا يريد خالي الذهاب إليه وماذا يريد منه. تلحفت أمي بعباءتها وخرجت إلى موقف الباص وحين رآها جارنا أشار لها أن تعود وأخذني من يدي بيمينه وهو يمسك ابنه عبدالكريم بيده الأخرى. سألني

"أين خالك؟"

قلت مرددا كلمات أمي

"ذهب إلى المسطر".

كان جارنا أكبر سنا من خالي وكنت أريد أن أسأله

"لماذا لا تذهب إلى المسطر معه"

ولكنني ترددت حين قال

"سيصبح عسكريا إذا"

و لم أعرف بماذا أرد. كان والد عبدالكريم الوحيد من بين أخوته الذي يرتدي ملابس عسكرية.

مرت أسابيع طويلة وأنا أترقب أن أرى خالي الذي يغيب عن البيت ولا يعود. أتخيله في البيت يهتم بأغنامه أمام البيت أو نائما في الديوان. وعندما يستيقظ يبدأ بتدريسي الحساب والعربي ويطلب مني أن أنام بعد مغيب الشمس بقليل. ولكنه لم يعد هنا. افتقدته كثيرا وأنا أعرف الآن أنه هناك في معسكر "الجيوان" يتدرب على الأسلحة التي يقاتل بها العسكر أعداءهم. قالت أمي بأن المعسكر بعيد عن سكننا وأن

خالي ضيدان لا يُسمح له بالخروج حتى تنتهي مدة تدريبه ولكنها تخشى أن يرسلوه في يوم ما إلى الحرب لقتال اليهود.

كان يوم خميس بعد غياب خالي لأكثر من شهر ونصف، وهو ليس كباقي أيام الأسبوع حيث نعود في الظهيرة تقريبا وأستطيع أن أسهر إلى ما بعد العشاء، أنهيت غدائي، غسلت يديّ ورفعت رأسي ناحية الباب الذي تلعب به الرياح فتئن مفاصله ليدخل خالي بلباسه العسكري وقد لوحت الشمس وجهه أكثر مما سبق ونحف جسده وكأنه يرتدي ملابس عسكريةً ليست له. صرخت أمي فرحا وهي تركض إليه وتحيط عنقه بكلتا يديها وتنهمر عليه بالقبل والأسئلة وأنا أنتظر أن أحتضنه، كان ينظر إلي من خلف كتفيها ويبتسم في وجهي، حين أفلتته دون أن يجيب على أسئلتها رفعني إلى كتفيه وهو يشدني بقوة إلى جسده ويقبلني ثم يعيدني إلى الأرض، يثني إحدى ركبتيه ويضع كفيه اليابسين حول وجهي.

"اشتقت لك يا صغيري"

كأني رأيت لمعانا في عينيه. أمسك بيدي واتجه إلى حجرة جدي الذي كان يجلس على كرسيه ملتحفا ببطانية من الصوف رغم الحر والجو الخانق. وقبل أن يتجه خالي إليه سمعت جدي للمرة الأولى يصرخ بصوت مبحوح ويهز يده في وجه خالي بما معناه "لا لا لا لا لا" ولكن خالي وضع يده فوق يد جدي وأنزلها ثم انحنى على رأسه وقبلها وهو يقول

"أريد أن أعيش كباقي البشر".

حين افترقا رأيت دمعة تنزلق على خد جدي دون أن يراها خالي. وتظاهرت أمي التي تقف بالباب بمن لا يعرف لم كل هذا.

سهرت وخالي ليلة الخميس تلك حتى منتصف الليل ولكنني نمت على فخذه و لم تنه "أم كلثوم" أغنيتها التي كان خالي يدندن بهـــا معهـــا. كان خالي ضيدان حزينا ولا علاقة للأغنية بذلك.

في صبيحة يوم الجمعة نهضت من نومي وكنـــت أود أن ألـــوم نفسي أو ألومه لأنه لم يوقظني معه. لم يكن موجـــودا. نهضـــت إلى الحظيرة و لم يكن فيها والأغنام أيضا لم تكن فيها. ركضت إلى أمـــي وقبل أن أسألها قالت "أخذ الأغنام إلى الدوّ" وكـــان مســـتحيلا أن أبحث عنه في صحراء تمتد من عشيشنا حتى تلتقي الأرض السماء.

-4-

كانت رائحة الموت تنتشر في أرجاء البيت وفي الحظيرة التي يحتفظ بها خالي بنخبة أغنامه. كان يطلق عليها أسماء لا أتمكن من حفظها جميعا. أخذت الماشية تتساقط بسرعة وكأنما هناك متربص بها في مكان ما يطلق عليها النار. كان المشهد مؤلما لنا جميعا حين تعاون رجال جيراننا وهو يسحبون الحيوانات النافقة إلى الصحراء البعيدة وأنا أركض خلفهم تاركا خالي يسند رأسه إلى عمود الزريبة مصابا بالذهول. حين عدنا إليه كانت أمي تصرخ بفناء الدار وهي تتحسس وجهه المصفر بحثا عن دفء الحياة الذي تسرب من جبهته.

هرع الرجال الذين توافدوا إلى الدار وتوافدت نساء جيراننا يبعدن أمي عن الجسد المسجى على رمال الحوش الملتهبة. اقتربت سيارة جارنا من مدخل الباب وحمل الرجال خالي إليها وانطلقوا وأنا أقف وحيدا في منتصف البيت أفتش عن سبب لما يحدث وأسأل الله الذي يصلي له خالي كل يوم خمس مرات أن يعيده إلى البيت ويعيد أغنامه إلى الحظيرة.

مرت أيام طويلة، ذهبت إلى المدرسة وعدت منها مرات عديدة ولم يعد خالي إلى البيت، ولم نذهب إليه في زيارة إلا مرة واحدة تبرعت جارتنا بمرافقة أمي واصطحبتني معها. ركبنا سيارة النقل الزرقاء التي يملكها جارنا وينقل بها الناس والبضائع من المدينة إلى

عشيشنا. لم نتمكن من رؤية خالي إلا من خلف الزجاج. كان جسده أصفر والممرضة تقول لأمي بأن مرضه معدٍ. عادت أمي وهي تبكيه كمن تجهز مناحتها المحتملة.

في عصر يوم اجتمع جيراننا في ديواننا وقرروا أن يعيدوا خالي إلى البيت. قالت أمي من وراء الباب للرجال المجتمعين "لماذا نعيده إلى البيت؟" كان صوتها هادئا وحزينا. إلا أن الرجل الكبير في منزل جيراننا، وهو والد سائق سيارة النقل، قال سنجلب له طبيبا شعبيا. "كما ترون" قالت أمي ثم أكملت "لعله خير" وأعادتها أكثر من مرة وهي تمضي إلى الداخل وتبعتها لأراها تنكب على وجهها وتجهش بالبكاء.

في اليوم الذي عدنا به إلى البيت من المستشفى وصلت عربة النقل الزرقاء التي ينتظرها الحضور المجتمع في ديوان منزلنا وترجل منها شيخ بلحية حمراء يتبعه شاب بصندوق خشبي مرصع بما يشبه رؤوس المسامير الكبيرة. جلس الشيخ بعد أن صافحه الجميع إلى جوار جارنا المقارب له في السن بينما توزع رجالات جيراننا وشبابهم في زوايا المجلس يبدو عليهم الحزن الذي رأيته مرة حين مات رجل لهم. بعضهم قد تلثّم بشماغه وكان علي أن أخمن أسماءهم من ألوان عيونهم.

أشار جارنا بعد حوار قصير بينه وبين الشيخ لابنين من أبنائه أن يُحضرا خالي ضيدان وقال لي آمرا:

"اذهب معهما كي يدخلا البيت".

دخلت أمامهما مسرعا وأنا أخبر أمي أن تدخل غرفتها كي يمر الرجلان إلى غرفة خالي. انزوت أمي في غرفتها ودخل الرجلان بعد

أن تنحنحا وقالا "يا الله" كي يتأكدا من أن أمي سمعتهما. توجهـا كما أشرت لهما وهما يسألاني عن غرفـة خـالي "هنـاك". قلـت وركضت خلفهما حين رأيت المسافة التي تفصلني عنهما تتسع. كان خالي ممددا وقد استحالت بشرته إلى الصفرة التامة، لكـن الرجـل دفعني بعيدا قبل أن أدخل."لاتدخل معنا" وبكيت. ليس لأنه آلمـني ولكنني توقعت أنهما سيأخذان خالي إلى المقبرة حيث يدفنون الموتى، وسيدفنونه حيا. عدت إلى غرفة أمي. كنت أبكي وحين ضغطت بما يشبه اللسعة على زندي بإبهامها وسبابتها صرختُ فكممت فمـي براحتها وجذبتني إليها. انفلتُّ غاضبا ولن تجرؤ أن ترفع صـوتها أو تخرج خلفي والرجلان الآن في منتصف فناء الدار يحملان خالي الذي تحول إلى مايشبه الهيكل العظمي على كتفيهما ملفوفا بعباءة الوبر التي كانت تغطي جدي العجوز في الحجرة المجاورة. لاحظت أن الرجلين ملثمان وقد أحكما لف شماغيهما حول الأنف والفم فوضعت يدي حول فمي وأنفي وكأنني أشم رائحة الموت تنبعث من الجسد الـذي لم يمت بعد. وكلما أحسست بأني أختنق تركت فرجة بين أصـابعي تسمح للهواء أن ينفذ إلى أنفي. خرج الرجلان من بـاب الحـوش الجانبـي القريب من الديوان ودخلا حجرة الديوان الملتصقة بالبيت. وضعا الجسد على السجادة أمام الشيخ الذي ترجل من سيارة النقل الزرقاء قبل قليل. كان الرجل يشرب شايا أعده جارنـا في موقـد ديواننا وبقي يجلس خلف الموقد ينتظر القهوة وقد ملأت رائحتـها المكان. نهض الشيخ إلى الجسد المسجى أمامه وأنا أقترب من المشهد الذي حاول أن يخرجني منه أحدهم ولكن الشيخ طلب منه أن يدعني أراقب ما سيحدث.

الشيخ بلحيته المنسقة والمخضبة بالحناء وبشـــرته الأقـــرب إلى احمرار لحيته يفتح جفني خالي بإصبعين وينظر طويلا فيهمـــا. يلقـــي عباءته عن كتفيه يشمر ساعديه ويطلب من مرافقه الذي ترجل معه من السيارة أن يفتح صندوق الخشب الصغير الذي بحوزته ويضـــعه أمامه. أخرج منه زجاجة صغيرة سكب منها مســـحوقا في كـــأس الشاي الصغير وأضاف إليها الماء من الإبريق المعدني الكبير ثم أشـــار لمساعده أن يفتح فم خالي الذي يبدو أنه لا يعي ما يدور حوله ككل الموتى الذين تغادرهم الأرواح. كنت أظن أن ذلك طقسا يمارس على الموتى قبل أن يدفنوا. تسلل السائل إلى جوف خالي وسالت قطرات من على شدقيه أعادها الشيخ إلى فم الخال بإصبعين.

نهض الشيخ وهو يتلفت حوله، أشار للرجال أن يساعدوه دون أن يتكلم فقاموا بقلب خالي على بطنه وأشار الشيخ لمساعده بحركة فتحرك المساعد من مكانه كما يمشي حيوان على قائمتيه الخلفيـــتين ضاما يديه إلى صدره وأمسك بدشداشة خالي من طرفهـــا الأســـفل وكمن يريد أن يجرده منها سحبها حتى جمعها عند كتفية وأعـــاد إلى الخلف سرواله الأبيض قليلا حتى ملتقى عجيزته. كنت أتخيل جســـد خالي الفتي قبل سقوطه في منتصف الدار وصوت أمي وهي تصرخ ثم نقله إلى المصح على البحر وعودته بعد اليأس التام من علاجه وهـــذا الهيكل العظمي المسجى أمامي. كان لحمه يذوي بسرعة مذهلة حتى تخيلت أن وزنه لا يتجاوز وزني أنا ابن السادسة.

عاد الشيخ وجلس القرفصاء أمام الجسد ضغط علـــى أمـــاكن محددة ورفع يديه عنها ثم مرر أصابعه على آخر الظهر وكأنه وجـــد ضالته في الجسد الذي يذوي كغصن يابس. أخرج مـــن الصـــندوق

الخشبي قطعة قماش سوداء شفيفة وضعها على المنطقة التي اختارها وتركها. كنت أستطيع الآن من مكاني القريب أن أرى المخرزين الصدئين اللذين أخرجهما الشيخ من الصندوق وتوجه بهما إلى النار المضطرمة في الموقد ليدسهما في الجمر تاركا مقبضيهما على حافة موقد الفحم النحاسي يشيران إلى الخارج.

لا أعرف من الذي جهز هذا الجسد النحيل واليابس لطقس الموت أو ما قبل الموت، كانت أمي منذ الصباح تسخن الماء في قدر ألمونيوم ترسبت عليه طبقات سواد كثيفة حتى أصبحت جزءا منه وحين تأكدت من درجة حرارة الماء الفاترة رفعته عن أثافي النار ونقلته إلى حجرة خالي بعد أن أحكمت لثامها على وجهها وأنا أتبعها دون أن نتبادل حديثا أو أن تسمح لي بتجاوز عتبة الباب. كان ممددا على ظهره، رفعت اللباس القطني الذي يغطي جسده، بلّلت خرقة نظيفة بالماء وبدأت تمسح جسده من سرّته إلى الأعلى، لم يكن جسده ليبدي ردة فعل سواءً انهمر الماء على صدره وهي تعصر الخرقة بقوة بيديها أو وهي تمسح بنعومة فائقة بين إبطيه وخلف أذنيه.

لم تتغير ملامح وجهه وهي تغسله بيديها وتمرر إبهامها فوق جفنيه المغمضين. حين جف الماء عن وجهه عادت إليه الصفرة المزعجة التي لم تفارقه منذ أن سقط. لم يتحدث أحد معنا عن سبب علته و لم تتحدث أمي أمامي مع جاراتها عن ذلك. خمّنت أن الموت يأتي هكذا. يخاتل الروح بحبائل شتى كما نفعل مع الطيور، فتفلت الروح منه بذكائها مرة وبغبائه مرة أخرى، ولكنها في النهاية تقع. لا بد أن تقع. كان ذلك الاستحمام الذي يتلقاه خالي هو كل ما تستطيعه شقيقته التي تراقب موته ولا تملك دونه شيئا.

ضغط جارنا الذي يجلس خلف موقد النار بمنفاخ الجلد الذي انتفخ بالهواء ونفثه على النار كرئة ضخمة فتأججت النار ورأيت حمرة برتقالية يتحول إليها الحديد الصدئ للمخرزين. دنا منهما الشيخ ورفعهما إليه. أشار إلى معاونه الذي دس قطعة من الجلد اليابس بين أسنان خالي ثم ضغط بيديه على رأسه وفكه الأسفل وكأنه يمنعه من لفظها خارجا وبقي في وضعه هذا وهو ينظر إلى الشيخ تحديدا. أشار الشيخ إلى أحد الرجال أن يجلس على قدمي الجسد ويثبتهما إلى الأرض وإلى آخر أن يمد يديه إلى الأمام بكل قوته ولهذا اختار شابا في سن خالي كان يرافقه دائما في الصباح إلى المعسكر وهو الوحيد الذي كان يبدو حزينا مقارنة بالآخرين.

لم تهدأ الحمرة على المخرزين ولكنها بدت أقل وهجا من ذي قبل. جلس الشيخ على ركبتيه وقرأ آية من الكتاب المقدس، تأكد من موضع المخرزين المرتقب على اللحم الميت أمامه ورغم وجود قطعة القماش السوداء على منطقة مربعة من الظهر، كان الشيخ يعرف موضع مخرزيه اللذين ضغطهما من مقبضيهما الخشبيين وقد اسودّا عند ملتقى الحديد. اهتز جسد خالي بعنف ولكن الأجساد الثلاثة تمكنت منه ومنعته من أن يقفز عاليا من الألم. شممت رائحة القماش المحترق وشواء اللحم عبر خطين واضحين هما أثرا المخرزين اللذين رفعهما الشيخ ودسهما في إناء ماء بارد إلى جانبه. هدأ خالي أو أغمي عليه أو مات فعلا لا أعلم تحديدا ولكنه لم يعد يتحرك أو حتى أسمع وجيب أنفاسه. عاد الرجال إلى أماكنهم في المجلس واقتربت أجلس عند قدمي خالي يفصلني عن الشيخ الذي أمر معاونه بجمع حاجياته في الصندوق الخشبي جارنا المسن الذي سأل الشيخ

"هل سيعيش؟"

فرد الشيخ

"سيعيش"

ثم خفض صوته وكأنه لا يريد لأحد أن يسمعه همهم شيئا لجارنا الذي طلب منه أن يكرر ما يقول وكأنني سمعت الجملة بوضوح

"سيعيش ولكنه لن يعقب"

فرد جارنا بعينين أذهلهما ما يشبه الفزع.

"ولكنه وحيد"

لم أكمل الحديث بينهما ركضت إلى أمي أسألها ما تعنيه الكلمة التي قالها الشيخ. حين قلتها لأمي جلست أمي ترتجف على ركبتيها وهزتني وهي تشد بقوة على ذراعي واضعة عينيها بعيدا في عيني

"أعدها ثانية. ماذا قال؟"

وارتجفت كأني ارتكبت إثما باستماعي إلى ما لا يجب أن أستمع إليه.

"لن يعقب، قال الشيخ".

أعدت الكلمة مرة أخرى. تركتني وهرعت إلى غرفتها. ارتدت خمارا طويلا غطى جسدها من قمة رأسها حتى قدميها وأمسكت به عند منتصف وجهها ثم قالت لي "أدع لي هذا الشيخ".

ركضت إلى الديوان ثانية وتركتها تقف خلف الباب الموارب.

"أمي تريد أن تتحدث إليك".

نظر الشيخ في الوجوه ثم استقرت عينيه على وجه جارنا الذي أخفض رأسه قليلا إلى الأرض كمن يمنح الشيخ إجازة للتحدث إلى

أمي. نهض الشيخ وخرجت أمامه من باب الديوان إلى الباب الجانبي حيث تقف أمي.

"مرحبا يا ابنتي" قال الشيخ

"مرحبا يا شيخ، أرجوك يا شيخ هل قلت إن أخي لن يعقب".

"نعم قلت وأعرف ما أقول"

نظر إلي وأنا أبتعد عنه ناحية أمي.

"ولماذا ياشيخ؟ لقد قطعت ذكرنا. ألا تعلم أنه وحيد"

نظر الشيخ إلى الأرض رغم أنه لا يرى أمي وهي تحادثه.

"أعلم. كان بين خيارين أن يموت وحيدا أو يعيش وحيدا واخترت له الثانية".

أمي تفتت الخبز في الحليب الذي تركه الراعي إلى الباب فيصبح أقرب إلى السائل الرخو وتنهض إلى العجوز المسجى في الغرفة المجاورة ليبدأ وجبته. وحين يرفع عينيه تفهم أمي أنه اكتفى فتعود بطاس الألمونيوم لتدخل حجرة خالي المسجي كجذع شجرة لا يتحرك تطعمه بيدها حتى يكفها بيده دون صوت وتخرج من عنده وهي تبكي دون صوت.

تطلب من الراعي أن يذبح خروفا كل أسبوع تنشر شرائح اللحم المملحة على لوح خشب وتكور بعض اللحم الذي تطحنه بالبصل والثوم فتبدأ رحلة علاجه بالغذاء حتى استرد عافيته خلال شهر وغادر إلى معسكره و لم يعد.

"لقد ذهب إلى الحرب مع إسرائيل".

لم تنته الحرب ويبدو أنها لن تنتهي. عاد سليما ومكسورا من الداخل لا يحدث أحدا عن هزيمته.

-5-

كان الشتاء القارس يحاول أن يكون قاسيا كنقيضه الصيف، وحين أخرج في زرقة الفجر إلى براميل الماء منزوعة الأغطية أمام حظيرة الأغنام أرى طبقة الثلج الناعم وأهشمها بيدي وهي ترتجف. كان خالي قد ترك البيت وذهب إلى معسكره بعد غياب طويل بسبب مرضه. قالت أمي وهي تشعل الحطب في المطبخ ويختلط الدخان والدموع في عينيها

"ادخل بسرعة، ألا تنظر لنفسك كيف ترتعد؟"

وكنت أرتعد ودخلت. كان البرد أكثر رحمة من الدخان الأسود الذي يعلو فضاء المطبخ وأنا أتابع تحت ضوء السراج المعلق تموجه محاولا الهروب من بين فروج الخشب المحتملة.

فركت عينيّ براحتيّ المضمومتين، سعلت الدخان الذي استنشقته رغما عني وخرجت مرة أخرى. بدا صوت الهواء عاليا كمن انتابه غيظ، يزيح أوراقاً ناعمة وأكياساً مهملة ويلصقها على الأحواش الطرية التي تهتز لتحيل صوته إلى مايشبه الصفير لكنه لم يكن عنيفا بما يكفي ليتحول إلى عاصفة رملية. تلحفت معطفي جيدا وأحكمت قبعة الفرو التي أذهب بها للمدرسة حول أذنيّ وقبل أن أدخل الديوان من الباب الجانبي للبيت الذي كان يرتجف معي من البرد سمعت شخيرا لأكثر من جسد. كان الشخير يعلو ويهبط

ويختفي للحظات ويعود أقوى وأنا أهم بالدخول للديوان وأتـــردد. ليس الذي في الديوان الآن خالي الغائب في معسكره وقـــد ذهـــب رجلا وعاد أكثر من رجل. دفعت الباب الخشبـــي دفعـــا خفيفـــا محاولا أن لا تصدر مفاصله الصدئة صوتا يقطع هذا الشخير المتبـــادل بين أجساد لا أعرف عددها. طللت برأسي وكأني أتحاشى أن يراني أحدهم. حاولت أن أتأكد من المشهد الذي أراه أمامي. ثلاثة أجساد تتكور كيفما اتفق في منتصف الـــديوان تلتحـــف فـــراء الخـــراف وكوفيات سوداء ليست كالتي يلبسها الرجـــال هنـــا. لم يـــتمكن وجودي الناعم أن يثير شيئا في منامهم العميق. خرجت ثانية إلى أمي التي بدأت نار موقدها تتحول إلى جمر يقذف شررا صغيرا من خشبها اليابس والذي غالبا ما يترك ثقوبا لها أشكال مختلفـــة علـــى ثيابنـــا وحواف سوداء من الداخل.

"هناك رجال غرباء في ديواننا".

ولم تكن ردة فعلها كما توقعـــت. لم تحـــظ عيناهـــا ولم ترفع عينها في عيني ولم تستخدم سبابتها استخداما أفهم منـــه مـــا تريد. عدت أرغفة الخبز في طبق الخزف دون أن ترفع عنها مـــلاء الكتان.

"كم عددهم؟"

قالت وكأنها هي من دعتهم إلى ديواننا. نهضت لتحضر صحنا من الغضار وضعت فيه عددا من الأرغفة وصبت السمن الحيواني في طاس من الصيني المشجر وضعته في منتصف الصحن.

"اذهب لتوقظهم وضع الصحن أمامهم وارجع لتأخذ الشـــاي، ولا تسأل من هم ولا ترد على أسئلتهم".

حين دخلت لم أتعمد أن تصدر مفاصل الباب أنينها المزعج ولكني ركلت الباب برجلي لانشغال يديّ بالصحن وكان ذلك كفيلا بأن يصحو الرجل الأقرب الى الباب. ركزت كثيرا في ملامحه وأنا أدني الصحن إلى الأرض دون أن أتأكد من ملامسة البساط البلاستيكي العريض والذي تحيط به سجاجيد محاكة يدويا بسماكة باذخة وألوان داكنة لرسم هيبتها. كان الرجل الذي رفع نصفه الأعلى عن السجادة وبقي ملتحفا بفراء الخروف وحين دققت في وجهه خيل إلي أنه سينهرني وأنني سبب في إزعاج منامه. نظر إلى الصحن ومسح على شاربيه بإصبعين اجتمعا عند ذقنه. مد يده وهو مازال ينظر إلي. هز زميله الأقرب إليه من قدميه ونهض فزعا على العكس من صاحبه "من هو؟" قلب يده دون أن يتكلم لكن الرجل الذي بدا أنه أميرهم أو كبيرهم أشار بيده إلى زميله الثالث، مصدر الشخير الثلاثي الذي ظننته يصدر من ثلاثة أنوف. هزّه زميله أكثر من مرة وكل ما فعله هو إخفاض شخيره حتى صرخ به أميرهم "انهض. صخرة أنت" ورد الثاني "لا. ثور إذا تعب".

بدت لي الوجوه متعبة ومنهكة وغريبة. لا تختلف في تفاصيلها عن وجوه رجالنا هنا ولكن لباسها كان مختلفا عن لباس الرجال هنا. لم أتكلم كما أشارت لي أمي ولكن كبيرهم كان صلفا معي

"لماذا لا تتكلم؟"

وصمتُّ فقال بصوت عال

"أَخْرسٌ أنت".

وقلت بهدوء دون أن أنفعل

"لا. سأذهب لأحضر الشاي".

نهضت وصاحبه يلومه على صلافته التي يبدو أنها سمة الرجل. أعطتني أمي إبريق شاي وثلاث كاسات زجاجية مخصصة للشاي فعرفت أنها لن تعطيني إبريق الحليب. "اذهب! لِمَ تقف هكذا"؟

"والحليب"

ابتسمت

"لا يشربون الحليب مع الشاي".

خرجت وأنا على ثقة أن أمي التي لم تحدث رجلا في حياتها كما ظننت تعرفهم جيدا. حين عدت كان الرجال الثلاثة قد أتوا على الأرغفة والسمن وأحدهم يلف سيجارة من كيس تبغ بني اللون ويتأكد من إحكام الورق على بعضه بعد أن يمرر طرفه على لسانه ويلصقه بخفة على جسد اللفافة. أشار لصاحبه الثالث ذي الشخير أن يتناول الشاي مني ويصب لهم وهي مهمة يفترض أن أقوم بها أنا. لاحظت أنه أصغرهم سنا، شاب بلا شعر في وجهه وكان أكثرهم رعبا. يكاد يهرب بلون وجهه إلى زاوية ما. كان كبيرهم يمسك لفافة التبغ بسبابته وإبهامه ويمررها أمام أنفه كمن يمنح أنفه فرصة الاستمتاع بتبغ طري لم يحترق بعد وهي حركة يفعلها خالي كلما تناول لفافة من علبة "الروثمان العريض" يمررها تحت أنفه كمن يودعها قبل احتراقها. وضع سيجارته بين السبابة والوسطى وبهما معا أشار لي بجرأة أقرب إلى الوقاحة

"اذهب واحضر لي نارا".

كان يعاملني كخادم ورثه عن أبيه.

دخلت البيت وعدت إليه بكبريت. رجها قبل أن يفتحها فخشخشت أعوادها. ضغطها من المنتصف بسبابته وأخرج عود

ثقاب جدحه فتوهج أمام سيجارته التي بين شفاهه ثم أشعلها ومـــج دخانها بقوة والعود مازال مشتعلا حتى كادت النار تقترب من إصبعه ثم أطفأه بالدخان الذي نفخه كثيفا عليه.

"كم عمرك؟" قال لي

"إحدى عشرة سنة"

كنت سأبلغ الحادية عشرة بعد أشهر قليلة.

"أنت ابن رجل كريم".

"نريد منك خدمة؟"

قال لي وهو ينظر إلى رفيقيه اللذين ابتسما وأعادا بصريهما إلى الأرض. لم أرد. كنت أتوقع أن يطلب مني شيئا أحضره من البيـــت. نفض الرماد في يده وأبقى راحته مفتوحة كوعاء رغـــم أن منفضـــة خالي لم تكن بعيدة عنه.

"رأينا سيارة نقل زرقاء أمام بيت جاركم؟"

وبدا كمن سيقول لي سرا.

"هل تستطيع أن تذهب إليه.

هززت رأسي بنعم.

"قل له لدينا ضيوف يريدون الذهاب إلى "مسطر الجيوان".

وقلت في ذهني إنني أعرف المسطر الذي يذهب إليـــه خـــالي ولكنني لا أعرف ما هو "الجيوان". أشار الرجل إلى الآخر الأصـــغر سنا ليناوله منفضة السجائر وسكب الرماد من يده إليها.

نهضت وخرجت مسرعا لأخبر جارنا عن طلـــب الضـــيوف ولكنني لم أجد سيارة النقل. فعدت إليه لأخبره بأن جارنا ليس هنـــا وعليه أن ينتظره حتى يعود. لكنه سألني

"هل لديكم سيارة؟"

فقلت:

"لا ليس لدى خالي سيارة".

كان قد أشعل سيجارة ثانية

"وأين يعمل خالك؟"

ورددت بسرعة

"خالي عسكري".

سعل الرجل والتفت الآخران إلى بعضهما وقال

"أحضر لنا ماء"

خرجت متضايقا وكنت أريد أن أتركهما للذهاب إلى المدرسة وأفكر بأمي التي سأتركها لوحدها وثلاثة غرباء في المنزل. قلت لها إنني لن أذهب للمدرسة وهؤلاء في البيت. ولكنها ناولتني الماء من الزير وطلبت مني أذهب به إليهم وأعود بسرعة. وخرجت والماء يترجرج في الطاس الكبيرة. وحين دخلت الديوان لم أجدهم. عدت إليها لأخبرها أنهم غادروا وكأنهم طيف ثلاثة رجال اختفوا في زرقة الفجر. قالت

"لا بد أن المساكين كانوا يريدون المسطر".

لم أسألها كيف عرفتْ كي لا تكتشف أنني تكلمت معهم وربما أفزعتهم حين قلت خالي عسكري.

-6-

لو حاولت أن أسال نفسي الآن لماذا أخرت السؤال الذي سألته لوالدتي وترددت أن أسأله لخالي فلن أجد سببا مقنعا سوى أنني رضيت بأبوة خالي الحقيقية والتي أنستني السؤال. كانت أمي في الليوان تمشط شعرها بمشط خشبي مربع فتجمع مشاطة الشعر وتكورها قبل أن تدسها تحت ركبتها وكنت أجد تلك فرصة مناسبة فهي غالبا ما تدندن بأغنية بدوية قديمة تدل على فرح بداخلها لا ينعكس على ملامحها.

"أين أبي؟"

أغمضت عينيها وهي تتهيأ لإعادة فتحهما بحدقتين واسعتين

"أين من؟"

"أبي. أليس لي أب؟"

وكمن تتمالك نفسها وتتصنع هدوءا بإمكاني بسهولة أن أقرأ نقيضه.

"تركنا وأنت صغير".

"كم كان عمري؟"

أعادت أسنان المشط إلى مفرق شعرها وسحبته حتى أطرافه. تحاشت أن تنظر إلى عيني.

"أقل من سنة"

كانت تتوقع مني أسئلة ملحة أخرى ولكني رأيت ألا أسأل عن رجل كل مافعله هو إنجابي، سواء بقصد أو دون قصد وهو الأرجح، لم يسأل عني وأنا صغير. وحاولت أن أنهض وهي ترمقني بزاوية عينها وكأنني تلقيت كذبة تريد أن ترى مقدار تصديقي لها. لكنني صدقتها فعلا لولا أنها نسفت كل شيء وهي تسألني

"هل سألت خالك عنه؟"

وقفت فوق رأسها وقد أنزلته لتبدأ حفلة الحناء الذي جهزته بالقرب منها.

"لا لم أسأله". قلت.

الحقيقة هي أنني لا أتذكر إن كنت سألت خالي أم لا. وهي تغطي قمة رأسها بالخليط البنّي سمعتها تقول

"لا تسأله".

أعتقد أن أمي لم تفرق حينها بين منعي عن الجحيم وإلقائي فيه.

كان ذلك في منتصف عام 1973 من ميلاد المسيح. وفي ذلك العام قررت أمي أن تخطب "نجمة" ابنة أخ راعي أغنامنا لخالي ضيدان الذي رفض دون إصرار كبير ولكنها صرخت به مستغلة فارق السن بينهما

"وماذا تنتظر؟"

"لأنني لا أنتظر أحدا لن أتزوج".

كان خالي بالتأكيد يشير إلى عقمه والذي لم يعد سراً وربما هو الأمر الأكثر علانية في الجهراء كلها فالجميع يطلق على منزلنا "منزل العقيم" وكأنه يوجه سبّة لخالي ولعنة لنا جميعا. لم تجد أمي جرأة أكثر

لتدخل في تفاصيل خاصة معه ولكنها كانت تؤمن بأنها لن تسلم بهذه الحقيقة لأنها من اختصاص الله فقط.

"هل ستوقف حياتك لنبوءة عرّاف عابر".

كنت أريد لخالي أن يتزوج سواء أنجب أم لم ينجب. الأهم من إنجابه بالنسبة لي هو زواجه وليخرج بيت الهموم هذا إلى شيء من الفرح وإن كان الفرح المؤقت. الذي يريبني هو أن الفتاة التي تريد أمي خطبتها تكبرني بعامين فقط ومازالت تطارد القطط بين عشيش جيراننا.

"فلتجرب. هذه هي العدالة"

كان ذلك صوت أمي وهي ترد على خالي الذي قال

"ليس عدلا، ليس عدلا".

في ذلك الوقت لم أعرف بأن خالي يتحدث بمنطق شخص مثقف وقارئ جيد ورجل لا يكاد يمت لهذا البؤس بصلة. وهو الآن لا يتحدث عن عقمه بل عن سن الفتاة التي تعلم أمي بأن فتاة أخرى لن يوافق ذووها على دفن أبنائها قبل أن يولدوا. في مجتمع كهذا الحياة تتوقف بالدرجة الأولى على الأبناء. فالرجال يهرمون ويتهالكون كبناء من الرمل، ينسحبون سريعا من أعمال شاقة تهد قواهم ويوكلون مهامهم للأبناء مكتفين بالإشراف المالي والمعنوي على حياتهم. كان ذلك دور الذكور أما الإناث فهن خلايا النحل في المنزل وأكثر من ذلك هن مشاريع مهور لأخواتهن الذكور. فالذي لا يستطيع دفع مهر زوجة يقدم المهر الذي استلمه هو أو والده عن أخته. وتزويج رجل لا ينجب يعني إيقاف جزء مهم من حركة المجتمع. ولكن والد نجمة لم ينظر إلى أولادها الذين سيولدوا أم لا ونظر إلى أبنائه الخمسة وشقيقتها والذين

لن يتزوج منهم سوى اثنين على أبعد تقدير، إذا نجح في تزويج الفتاتين. أما ما عرضته أمي عليه فكان يكفي لتزويج الأبناء الخمسة دون الحاجة لما يعادلهم من البنات.

"اشتريت الفتاة"

قال خالي بشعور لا يمكن تحديده، كان مبتسما بصوت مستهزئ. ولكننا على أية حال سنرى فرحا قريبا. ولم يكن فرحا كما توقعت، حاول خالي أن ينهي مراسيمه كمن يلف جثة ببساط ويداري جرما بسرعة متقنة. حضر قليل من المعارف والجيران تجمعوا في بيت من بيوت الشَّعْر وذبح الراعي خرافا بمعدل خروف لكل رجل ظنا منه بأن البيت سيمتلئ بالمهنئين. انتهى يوم الخميس كأنه سيبدأ بعد قليل؛ لم يميزه سوى أن خالي نقل الراديو إلى حجرته وأغلقها عليه وعروسه. ورفع صوت أم كلثوم في موعدها كل خميس وأمي تروح وتجيء وهي تفرك راحتيها وتحرك سبابتها تهدد أحدا ما ثم ترفع صوتها كأنها تريد لأم العروس أن تسمع.

"يسمع أم كلثوم هذا البغل!"

لم يمض خالي سوى شهر سبتمبر من ذلك العام مع عروسه ليغادر مع المقاتلين إلى الحرب. وقبل أن ينتهي العام مات جدي أثناء غياب خالي ودفنه رجال من جيراننا وأقاموا عزاءه في ديوان خالي وطلبوا مني أن أرتدي شماغا وعقالا وأن أتقبل العزاء بجدي وكان يقف إلى جواري كبير جيراننا و"عبّار" الذي يزور خالي كل شتاء قادما من العراق بجملين يحملان السمن والصوف والكمأ. استلم الراعي نيابة عن خالي الغائب حمولة الجملين ونقلهما إلى مكان لا يعرفه سواه وخالي ضيدان.

مات جدي لأمي و لم أعرفه وكأنه مات قبل أن أولد، لم يتكلم مع أحد قط. وفي المرات القليلة التي تجلسه أمي على كرسيه الخشبي الذي صنعه له خالي تضع عليه مقعدا من حاشية صوف قبالة شمس الصباح. كان يمسح على رأسي وأنا أجلس أمامه دون أن يتحدث. كنت أعرف أن هناك الكثير في ذاكرته المقفلة على ذاتها، وأنا أتقبل العزاء فيه الآن لا أفتقده ولا أشعر بغيابه، لم أقاسمه ذكرى أو نتبادل حوارا. عاش ومات كنسخة وحيدة من كتاب تاريخ وقعت في الماء.

قالت أمي وهي تطلب مني أن أجمع أغراض حجرته وملابسه "خذ كل هذا واحرقه".

لم يكن كل هذا سوى قليل من الملابس يلبسها الجد في المواسم: دشداشة صيفية وسروال أبيض وغترة وشماغ ودشداشة شتوية كحلية اللون وخفّان وجرابات سوداء جمعتها كلها في البساط الذي ينام عليه وبطانية رمادية كأنها سرقت من معسكر الجيش. نقلت كل ذلك على دفعات وغابت أمي في حجرتها كي لا ترى ما أفعل. أزحت الرمال في دائرة قطرها ثلاثة أمتار وألقيت كل شيء فيها ثم أشعلت النار بالملابس الخفيفة أولا فسرت سريعا في كل شيء. تجمع حولي صبية يتابعون المشهد وكنت فرحا لسبب لا أعرفه. أحرقت ماضياً لا أعرفه و لم أتعرف عليه.

لم تبق نجمة في البيت. أغلقت حجرة خالي وغادرت إلى أهلها تأتي كزائرة تساعد أمي في البيت وقبل المغيب تعود إلى ذويها و لم أشاهدها تدخل الحجرة أبدا. أما أنا فاستأثرت براديو الناشيونال أمارس ذات الطقوس التي يمارسها خالي بنصف المتعة التي اعتدتها

معه. لم أخذله أبدا بقيت وفيّا لوصاياه لا أهمل واجبا مدرسيا ولا أحتك بأقراني. أقسّم نهاري بين المدرسة والبيت ومسائي بين الراديو والنوم.

كان خالي ضيدان غريبا في عشقه للتعلم. حين بدأت المرحلة المتوسطة طلب مني أن أقرأ له درس اللغة الإنجليزية.

"هذه فرصتك أن تعلمني وتضربني إذا أخطأت"

وضحكت ولكنه لم يخطئ. كان يتعلم بسرعة ويطلب مني أن أستعيد الساعة التي درست فيها اللغة الأجنبية قبل أن نبدأ أي مهمة أخرى. يسجل بدفتر يخصه الأبجدية والكلمات وما يلتصق بذاكرته لا يغادرها أبدا. فأحيانا كثيرة كان يعلمني ما تعلمه مني. ومنذ مغادرته للحرب كنت أضع علامة أمام الدروس التي لم يحضرها معي.

-7-

لم يتحدث خالي بعد عودته من الحرب عن الحرب. كان مهموما بحربه الخاصة يقرأ معي كتب التاريخ والأدب ومجلة طبيبك التي يحرص على اقتنائها. يسمح لي بالسهر معه كل ليلة مع أحد المطربين الذين خصت إذاعة الكويت كبارهم بساعة تبدأ من الحادية عشرة حتى منتصف الليل. ويشرح لي قصائدهم الصعبة على مداركي. يأخذني يوم الجمعة بسيارة النقل إلى مرعى الأغنام في الشمال من الفجر حتى منتصف النهار. وفاجأني مرة أنه سمح لعبدالكريم ابن جيراننا أن يشاركنا الكتب التي يحرص على جمعها ويرتبها في صندوق خشبي كبير في زاوية الديوان ويسمح له أن يستمع معنا لأغاني الإذاعة. كل يوم جمعة يعير عبدالكريم ديوان شعر كبير أو رواية ضخمة ويقول لي "هذا الفتى سيصبح روائيا كبيرا" وكنت أشعر بالغيرة "وأنا ماذا سأصبح؟" يحتضنني وهو يقول "أنت ستكون عالما كبيرا لا شأن لك بالأدب". وتوقعت أن خالي كان يخمن ذلك لاهتمامي بالرياضيات والعلوم وهي مواد يقرؤها ولكنه لا يشرحها لي. توقع خالي ضيدان كان دقيقا في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية قررت أن ألتحق بالقسم العلمي وفضل عبدالكريم القسم الأدبي.

لكن هذا الحب الذي جمعني بخالي ضيدان بدأ ينهار فجأة لحادثة لم أتوقعها. كنت دائما ما أبتعد عن زملاء مدرستي الذين بدأت

لغتهم تدخل في الفاجر من الكلام ويتحدثون وكأنهم عساكر معزولين في برية، وكنت ألاحظ كثيرا منهم يستمنون على حائط أو يعتدون على صبي في زاوية ما و لم يكن يهمني ذلك في شيء طالما لا أشاركهم صداقة ولا أبادلهم حديثا ولا أختلط بهم. وربما كان ذلك يضيرهم فكما يود الذاهب إلى الجنة أن يصطحب الآخرين معه كان الذاهب إلى الجحيم لا يود الذهاب منفردا.

طلب مني أحد أبناء جيراننا والذي يجلس في المقعد خلفي ونحن عائدون بالباص إلى بيوتنا كتابي لينظر إلى صفحة ما. كان يبدو هادئا ولطيفا معي على عكس طبعه الشرس. أعاد الكتاب ثانية إلي وذهب حيث تجلس شلته في المقاعد الخلفية من الباص. غادرنا الباص في الموقف القريب من بيوتنا. لم أعر اهتماما له وشلته وهم يتضاحكون. وضعت كتبي في الديوان ودخلت البيت للغداء وحين عدت إلى كتبي لاحظت أن الكتاب الذي استعاره الفتى ينمّ عن شيء بين أوراقه وقد انفرجت قليلا. سحبته من الحقيبة وفتحته في الفرجة لأرى صورة لم تكن بالتأكيد في كتابي. سحبتها لأرى صورة بالأبيض والأسود. منظر بشع ومقزز أراه للمرة الأولى في حياتي. امرأة بدينة عارية يعتليها من الخلف رجل بدين ملأ الشعر صدره وساعديه. فكرت أن أمزق الصورة وكأن شيئا لم يكن. ولكني حسبت لما سيحدث غدا حين ترى شلته أنه تجرأ علي دون أن أرد عليه وسيعطي ذلك غيره الفرصة لفعل ما يتجاوز هذا الفعل.

كان بإمكاني أن أعاقبه لوحده الآن ولكن فضلت أن يكون ذلك أمام شلته الذين تضاحكوا له كي يضحكوا عليه وليعرفوا أن هدوئي وانعزالي ليس جبنا أو خوفا من أحد ولكنه ترفعا عنهم.

خبأت الصورة أسفل الحقيبة وانتظرت حتى الصباح ليجتمعوا في موقف الباص. و لم أشغل نفسي كثيرا بما سأفعله.

رأيته يقف مع اثنين من رفاقه بينما آخران يقتربان منا، قبل أن أصل تناولت الصورة ودنوت منه. وضعت وجهي في وجهه.

"هذه صورة لواحدة من أهلك نسيتها في كتابي بالأمس".

و لم أمنحه فرصة ليفكر بما يفعل، صفعته بقوة بظهر يدي على أنفه فسالت الدماء من أنفه على شفتيه. مسحها بكمه فتلوث قميصه، واجتمعت حوله شلته وهو يصرخ. رأيت والده يسرع نحونا. كان منظر الدماء وهي تسيل من أنفه كالأحاديث المبالغ فيها لا تتناسب والصفعة التي تلقاها.

"أنت ضربته"

وقلت نعم ولكنني استحيت أن أقول لماذا حين سألني

"هو يخبرك". قلت.

وحاولت أن أبتعد قليلا عن المشهد كي لا يمد يده علي.

"إذا كنت رجلا فخذ بثأر أبيك!".

التفت إليه

"ممن أثأر لوالدي؟".

ورد وهو يسحب ابنه من يده إلى البيت

"اسأل خالك؟"

أخذ ابنه وغادر ورفاقه يسيرون خلفه، توقف الباص وركبت، لم أرهم في المدرسة إلا في منتصف النهار. لم أركز بشيء طوال اليوم. ماقاله الرجل يعني أن أبي لم يتركنا و لم يمنحه أحد الفرصة لكي يتركنا بإرادته. لا معنى لكلامه سوى أن أبي قتل على يد

أحد وخالي إما متهم به أو يعرف من قتله. خالي الآن هـــو أبـــــي وربما أبـــي الذي لم أعرفه لن يكون أبا رائعا كخالي.

قررت أن أتجاهل الجملة التي سمعتها. سأتعامل معها كالشـــتيمة تغيظك ولا تنطبق عليك.

-8-

في يوم شتوي بارد من أيام ديسمبر عام 1977 جاء عبّار بجمليه وبحمولة لم تتغير وبرسالة لا يعرف محتواها. سلمها لخالي الذي رحب به لوحده فكنت لا أحضر لقاءهما عادة. لم يكن يهمني ما يتقاسمانه من عمل يبدو بسيطا لا أفق له. وبالتأكيد كنت مخطئا في تقديري وهو ما لم أكتشفه إلا فيما بعد. ولكن الرسالة التي أخرجها عبّار وسار بها بثقة زائدة عن حدها نحو خالي الواقف في باب الديوان جعلتني أنتظر لأرى ماذا تحمل رسالة غامضة في مظروف بلون أزرق خفيف مؤطر بالأحمر والأزرق الغامق من مظاريف ذلك الزمان الذي لا أريد الآن أن أصفه بشيء.

استلم خالي ضيدان المظروف وعاد به إلى الديوان يسير خلفه عبار برائحة غامضة اختلط بها الآدمي بالحيواني والقماش بالتبغ والصوف بالوبر و لم يعد بالإمكان تسميتها إلا باسمه هو. تبعتهما وجلست إلى جوار خالي بينما فضّ عبار كيس التبغ ليلف سيجارته فرمى إليه خالي بعلبة روثمان العريض وهو مشغول بفض المظروف الذي بيده وكأنه رسالة من ديوان الإمارة. أعاد عبار علبة الروثمان دون أن يفتحها وهو يمررها بيده السمراء المعروقة دفعا على الحصير البلاستيكي. لم يكترث خالي أن يعيدها إليه كنوع من الإلحاح. قرأ قليلا من الخطاب ثم وقف على قدميه وأنا أرفع رأسي إليه لمحت عبّارا يضحك دون صوت.

"الملازم مازن! أين وجدته؟"

فرد عبار وكأنه أسدى لخالي معروف العمر

"يسمونه الرائد مازن الآن".

عاد خالي ليجلس وقرأ الرسالة ربما أكثر من مرة وفي الوقت ذاته يستمع إلى عبار الذي أخبره أن ضابط المركز الحدودي كان في ضيافته هو وعسكره وبالصدفة المحضة ذهب بهم الحديث ليأتي اسم خالي كشريك له فيحمّله رسالته التي بين يدي الخال الآن.

طوال حديثهم هذا وأنا أعتقد أنهم يتحدثون عن ضابط كويتي و لم أعرف أن "مازن" ضابط عراقي حتى ألقي القبض علينا في منطقة "خضر الماء" داخل الحدود العراقية. وكان ذلك في السنة ذاتها التي اشترى فيها خالي سيارة الفورد الحمراء.

لم أرخالي ضيدان منذ عودته من الحرب، وربما لم أره حتى في يوم زفافه، سعيدا هذه السعادة كلها. حين أوقف سيارة الفورد الحمراء أمام البيت. ظل يتبختر أمامها بشيء من الفخر، يدخلها ويخرج منها، يدير محركها ويقترب من غطاء المحرك يستمع لصوته، يمسح الغطاء قبل أن يرفعه ليضج المحرك بصوت أكثر فخامة. وكان خالي محقا فهذه الآلة العنيفة تستحق أن يفتخر بها رغم مضي عشر سنوات على صناعتها ويرى في ذلك ميزة لا عيبا. كانت رحلتها الأولى في ربيع عام 1978 حين اصطحبني معه في رحلة إلى الصحراء تجاوز فيها الحدود الكويتية تاركا مركز العبدلي يسارا ليدخل الحدود العراقية و لم نقطع مسافة طويلة من الأرض المشبعة بالماء حتى لحقت بنا دورية عراقية وقرر خالي ألا يتوقف ولكنه توقف تماما بعد أول رصاصة أطلقت في الهواء فوق سيارتنا.

طلب قائد الدورية أن نتبعه بعد أن أركب أحد أفراده في حوض سيارة الفورد. لم يتحدث قائد الدورية مع خالي و لم يحدثه خالي، حين وصلنا مركز "خَضَر الماء" طلب منا الرجل الذي في حوض السيارة أن نترجل ونترك السيارة. أطفأ خالي المحرك ودس المفتاح في جيبه وتبعنا الرجل الذي قادنا إلى رئيس المركز وكان يرتدي لباسا مدنيا. "لماذا تجاوزت الحدود؟"

وقبل أن يجيب خالي وضع رئيس المركز سبابته في منتصف رأسه، بحركة تذكرني بأمي حين تغضب، وقال بصوت خشن كأنه ليس صاحبه

"لا تقل ضعت بالصحراء، كلكم تكذبون نفس الكذبة".

أعجبني هدوء خالي وابتسامته في وجهه.

"لا ليس مثلي من يضيع في الصحراء ليلا حتى أضيع نهارا. جئت متعمدا"

لم يسمح له الرجل بأن يكمل.

"تبدو واثقا جدا من نفسك".

صرخ باسم أحد أفراده الذي هرع نحونا مسرعا.

"خذهم للتوقيف".

أسرع خالي بجملة أوقفت كل شيء.

"جئت لأزور الرائد مازن الشعلان".

فتوقف كل شيء ووقف الرجل الذي يبدو أنه برتبة أقل من الرائد.

"من أين تعرفه؟"

"صديق قديم ونحن نبحث عن بعضنا منذ سنوات حتى جاءتني رسالة يقول إنه هنا في الحدود".

ابتسم الرجل بوجه خالي واعتذر بخجل مما قاله. أشار للفـــرد الذي استدعاه أن ينصرف.

"نعم هو هنا، ولكنه ليس في هذا المركز، هو مساعد القائد".

أكرمنا الرجل وعسكره وقدموا لنا الكمأ واللـــبن ثم الشـــاي وطلب من خالي أن يتجه إلى مركز سفوان حيث مكتب الرائـــد في وقت آخر لأنه في إجازة حاليا كما قال. عدنا إلى الجهراء بكيس من الكمأ ووعد بزيارة قادمة لنا في الكويت لم تحدد على وجه الدقة.

لم أرافق خالي في زياراته المتتالية للحدود ولكني كنت ألاحـــظ أنه يغيب في كل مناسبة ليوم أو أكثر وينقل الكثير مـــن الأجهـــزة الكهربية وقطع غيار السيارات في حوض السيارة. في ذلك العـــام لم أهتم بكل رحلاته و لم أعد أشاركه سهرات الراديو، كرست كـــل وقتي لإنهاء الثانوية العامة بمعدل عال.

وفي ليلة تسبق الاختبار الأول حلمت بخالي ضيدان يطلق النـــار على ظهر أبـــي، أبـــي الذي لم أر وجهه حتى في الحلم.

لا تثق بوعود الريح

-1-

الأقدار مرهونة بالصدف المحضة. الذين استسلموا لأقدارهم هم أولئك الذين تركوا فرصهم تمر دون أن ينتبهوا لها. الذين لم يعيشوا الحياة كما يحبون هم الذين جبنوا أمام فرصها المستحيلة وركنوا للفرص المتاحة. الذين هابوا الانقلاب الأكبر في مكان ليس مكانهم وزمان ليس زمانهم عليهم ألا يتهموا أحدا سوى أيديهم التي ألقت بمفاتيح أغلالهم في البحر.

كنت على ثقة كبيرة بأن هناك فرصة ويجب ألا أدعها تمر أمام عيني وأفلتها. و لم أفلت أول فرصة تمر أمام عيني. ولن أشغل نفسي بالسؤال المرّ: ماذا سيحدث لو أنني تركتها تمر أمام عيني؟

خصص لي خالي ضيدان غرفة خاصة في المسكن الذي انتقلنا إليه بعد هدم الحكومة لبيوت الصفيح والخشب. و لم أشارك الناس فرحتهم بالحياة الجديدة. فرحتهم بالمصابيح الكهربية يشعلونها ويطفؤونها كمن يومئ لسفن الوعي في خياله المفتون بفلزات تنقل هذا السحر لتضيء به هذا الزجاج المستدير كدوائر الجهل. فرحتهم الأولى بالثلاجة البيضاء تمر بها زوجة خالي تفتحها وتغلقها لمجرد أن

تفتحها وتغلقها فتجد سببا كافيا كي تبتسم. الافتتان بالهواء الساخن من أجهزة التكييف في الخارج أكثر من الاستمتاع بالهواء البارد في الداخل. ما يميز فرح الناس في أشيائهم الجديدة أنها تداعت لهم كلها دفعة واحدة، لم تمارس عليهم التدريج المصاحب عادة للجديد. ولهذا عاشوا صدمة الاغتراب المفاجئ من اللاشيء إلى كل شيء.

وكان الشباب مفتونين بأرقام ألصقت على الحائط الخارجي لغرفة الديوان. يعيدون كتابتها على الجدران المنخفضة أمام البيوت والتي تشكل وجدار الديوان الخارجي فناء صغيرا سقفه السماء. وحين لم نهتم أنا أو خالي بذلك تبرع أحدهم بكتابة رقم 174 على باب بيتنا. ولكن الكثير ممن لا يجيدون كتابة الأرقام أو قراءتها مازالوا يميزون بيوت شارعنا بدلالة الفورد الحمراء بالرغم أن خالي ضيدان نشر فوق جسدها المعدني غطاء بلون خيام العسكر الخضراء الداكنة ليحمي لونها الأخاذ من غدر الظهيرة. وكأننا بلا سبب منطقي أصبحنا مركز هذا الكون الصغير.

كانت السنة الدراسية على وشك الانتهاء سريعا كعادتها حين تقترب الاختبارات النهائية و لم يبق سوى شهر مايو لأعتكف تماما في غرفتي البسيطة والمفروشة بسجادة وثيرة فوقها مرتبة فراشي الإسفنجية ووسادتين ولاشيء غير كتبي المدرسية وأقلامي ودفاتري. كان الجو حارا وصوت مكيف هواء "جيبسون" يهدر ككائن معدني جريح. لاتسمح زوجة خالي لنفسها أن تدخل غرفتي ولا تسمح أمي لنفسها أن توقظني في الفجر كما أطلب منها لكنها تطرق الباب براحة يدها وبالكاد أسمعه وسط هذا الضجيج. اعتقدت بأن الحياة الجديدة ستؤثر سلبا على نتائجي الدراسية ولن أكون المثال

الذي يضربه الآباء لأبنائهم. تغير كل شيء للأفضل. أحسست بأنني في عزلة حقيقية عن العالم. هذا الطابوق الخرساني الطازج والبـــاب الحديدي الأزرق الصلد والبارد كوحدة لا نهاية لها. عزلة لا ينتهكها العابرون وأصواتهم خلف الخشب المفتون بالعري والوقاحة.

عرفت أن الاختبارات قد انتهت حين نمت كقتيل ليوم وليلـــة في الديوان دون أن تفلح أمي في إيقـــاظي. لا أتـــذكر الأحـــلام والكوابيس التي مرت بـــي ولكنني أشعر الآن وأنا أستيقظ تحـــت وطأة الحاجات البيولوجية لجسدي أني رميت حملا ثقيلا عن ظهري وأنا أعد نفسي الآن لأحمال قديمة ستحددها نتائج الاختبارات التي أترقبها وأتمنى لو بإمكاني أن أحرّك اليوم على الطبيعة كما أحركـــه على الرزنامة.

عاد خالي وأوقف سيارة الفورد عن رحلات يقوم بها متى كان في إجازة، رفعها عن الأرض على الطابوق الخرساني. سألني إذا مـــا كنت سعيدا في أدائي فقلت نعم. "سنأكل في المطعم"

قال. خرجنا بسيارته الصغيرة باتجاه المدينة إلى مطعم "هنـــدي" قبالة معسكر "الجيوان". كان هناك مجموعة من العساكر في المطعـــم وكانت رائحة المطبخ في صالة الأكل خانقة. تلك هي مكافأتي إذا.

"هل ذلك الباب باب معسكرك؟"

أشرت إلى باب معسكر الجيوان الذي أراه عبر زجاج المطعم.

"كان معسكري في السابق، لم يعد معسكري الآن".

أكاد أرى في عيني خالي ضيدان ريبة أستطيع تفحصها بسهولة. عيناه تلتقيان بعيني وتهربان بما تحملان بعيدا ثم تعـــودان إلى مواقـــع مختلفة ولكنها تطيل النظر إلى بوابة المعسكر. لقد أغفل خالي مطاعم

هندية أفضل من هذا في الجهراء وتعمد أن نأتي إلى هنا ولا يريد أن يقول لي لماذا.

"هل ترى ذلك الباب؟"

تحدث هكذا فجأة لترتاح عيناه من ترحالهما.

"أراه، مابه؟"

"أخاف عليك منه، مهما حدث لا تدخله".

وضحكت. خالي لا يثق بي ويعتقد أنني سأفشل في الثانوية العامة وسيكون مصيري مصير أقراني

"لن أدخله. سأدخل الطب أو الهندسة. لا تخف علي".

ولكن عينيه اللتين استقرتا الآن على وجهي اغرورقتا بالدمع ولولا الوجوه التي تحيط بنا لأجهش بالبكاء.

"أنت لم تتعرف على هذا البلد بعد؟" قال

و لم أفهم. لم أفهم حينها.

كانت تلك المرة الوحيدة التي يتحدث معي بلغة غامضة وعميقة ونحن نعود إلى المنزل بشعور غير محدد بعد. لسنا حزينين ولسنا فرحين.

"نحن لم نتحرك كثيرا منذ الماضي الذي عاشه جدك ولا الحاضر الذي أعيشه، ما زلنا مقيدين بالثابت و لم نستطع تحريكه إلى الأمام. نظن أنه يتحرك ولكن لا ليس ذلك هو الواقع، مازال ساكنا لم نملك بعد القدرة على أن نحركه، أعلم أننا جميعا ننظر إليك، ربما لن تستطيع أن تحرك أجسادنا عن ثباتها المزمن ولكنك ستحرك أرواحنا وذلك ما نحتاجه".

وحين لم أجد ما أرد به قال

"هل تفهمني؟"

قلت نعم وأنا لا أعرف عن أي شيء يتحدث. وعرف أنني لم أفهم فرفع صوت آلة التسجيل وراح يحرك أصابعه على المقـــود دون أن ينظر إلي.

كان صيف الجهراء هادئا ونحن في حزيران نقف أمـــام ثانويـــة الجهراء ننتظر نتائجنا، الساحة الصغيرة تزدحم شيئا فشـــيئا بالطلبـــة ومجموعة من أولياء الأمور وبعض مدرسينا الذين أدخلهم الحـــارس فيما جعلنا ننتظر حتى تعلق الإدارة النتائج على الزجاج من الـــداخل بحيث يمكننا رؤيتها لا لمسها. لم تكن مفاجـــأة لي أن أكـــون مـــن الخمسين الأوائل على الكويت المفاجأة هي ما تلا ذلك.

لم أجد اسمي في أي من الكليات الثلاث التي تقدمت إليهـــا في قوائم وضعت في المستطيل الزجاجي أمام المبنى الرئيس لعمادة القبول في الجامعة اليتيمة. قرأت القوائم أكثر من مرة. قرأت الأسماء اسما اسما و لم أجدني في أي كلية من الكليات حتى تلك التي لم أتقدم إليهـــا. رأيت عبدالكريم يجلس على درج المبنى وقد وضع "غترته" البيضـــاء على عينيه منكسا رأسه يحدق في بلاط الدرج.

"كريم، أهذا أنت؟"

هز رأسه بنعم. اقتربت منه

"ماذا حدث؟"

كأنه كان ينتظر أي محادثة ليبكي وبكى بصـــوت خفـــيض. جلست إلى جواره أنتظر أيضا حديثا منه. هدأ قليلا

"لم يقبلوا أحدا منا".

أخذت بيده ونهضنا لنعود. لم نتحدث طويلا في الطريـــق و لم أتحدث مع أحد قط.

لا أستطيع الآن تفسير ما حدث. لا أنكر أنني كنت خارج الوعي مصدوما ومحبطا غريبا في غرفتي. تقترب مني الجدران الأربعة. يختفي الباب ويتطاير زجاج الشباك إلى روحي. يضيق الهواء فأنتفض على سريري أحاول أن أنهض أن أتقدم نحو الباب الوهمي الآن لا أكاد أصله أشعر أنني في اللحظة الأخيرة من اليأس، هذه اللحظة الداكنة التي لا يبدأ معها الموت ولا تنتهي معها الحياة. أريد أن أصرخ بقوة وأتردد خوفا أن يكون هذا الفعل الأخير الذي يمكنني فعله. لا بد أن أقاوم سيأتي الهواء لامحالة فالموت لا يمكن أن يكون سخيفا لهذه الدرجة ليأخذني دون فعل أخير. ولا أريد أن أقترف فعلا يمنحه سببا كي ينقض علي. كنت سأقبله لكنني لا أتقبل هذه الضحكة المريبة على شفتيه المدهونتين بالظلمة ونحن نترافق أنا إلى العدم وهو إلى أبدية جديدة.

حين صحوت كان شعري الذي بالكاد يتجاوز أذني قد وصل كتفي وبدأت أستعيد أنني كنت أستمع لأصوات لا أرد عليها ورغم أننا في أوائل ديسمبر الآن مازلت في ملابسي الصيفية. هل كنت أتحرك في الغرفة؟ لا أستطيع أن أتذكر أي شيء.

كان خالي ضيدان وأمي يجلسان أمامي وحين تأكدت أمي أنني فتحت عيني قالت: يبدو أن هذا قدراً يصيب أهل هذا البيت؟ تأملتُ الندبةبين عيني خالي ضيدان كانت ككوة ضخمة تطل على عقله. حدقت فيه بقسوة

"أنت قتلت أبي!!"

ضرب كفيه ببعضهما ونهض تاركا الندبة بين عيني أمي. حاولت أن تتذكر آية تقرأها علي ويبدو أنها فطنت إلى أنها لا تعرفها أصلا حتى تتذكرها.

"وأنت تعلمين أنه قتل أبـــي".

ونهضت وهي تبكي وتصرخ

"هذه لعنة.. لعنة".

كنت أعرف أنني أتجاهل صدمتي باختلاق ما ينسيني إياها، أريد أن أرتب أشياء لن يقبل بها خالي. سألتحق بما حذرني منـــه. ذلـــك سبيلي الوحيد للخلاص. كان الحديث الأخير الذي دار بيني وبـــين كريم أن نتقبل واقعنا وأن نلتحق "بالجيوان" وكأننا مثـــل البقيـــة لم ندرس و لم ننجح. ولكن ما بذهني أبعد مما يفكر فيه كريم.

"سأرسلك للهند أو روسيا تدرس الطب، أي بلد أستطيع تحمل تكاليفه"

"لن تستطيع، لن يسمحوا لي بالسفر، لقد رسموا طريقي كمـــا رسموا طريقك"

"ماذا تقصد"؟

"سأدخل الباب الذي حذرتني".

"هل تذكر حين قلت لك إما أن تهرب مع الأرانب أو تصيد مع السّلَق؟"

"تأكد أنني سأركض مع الأرانب وسأصيد مع السَّلَق"

نهض وكانت تلك المرة الوحيدة التي أرى فيها دمـــوع خـــالي ضيدان تتوقف دون أهدابه يمنعها كبرياء لاحدود له أن تنهمر.

في يوم بارد من شهر ديسمبر كنت أقف مع المئات من الشباب الذين يحلمون بالخاكي ورواتب الخاكي ويتناسون إهانته وعذاباتـــه. كانت الشرطة العسكرية تطاردنا كلما ازدحمنا أمام باب المعســـكر وكريم يركض معي حين نهرب أمامهم ويعود معي حين نعود إليهم.

وحين يئسنا من الدخول عدنا إلى المطعم الهندي وفي ذهني الحوار القاسي الذي دار بيني وبين خالي ضيدان.

مرت أشهر ونحن نتسمر أمام البوابة كل يوم من مطلع الشمس حتى يختفي ظلنا. وخلال خمسة أيام تدخل خالي ضيدان وأنهى جميع أمورنا أنا وكريم وحدد يوم التحاقنا بالتدريب في منتصف مايو من عام 1979. كان ذلك اليوم هو بداية الطريق الذي رسمته متمنيا ألا يعارضني قرار ينسف كل خططي في بلد تتغير فيه القوانين كما تبدل الريح وجهتها.

وجدت نفسي حليق الرأس يختفي جسدي النحيل في ملابس التدريب الفضفاضة وقدميّ في بسطارين ثقيلين لا أكاد أرفعهما عن الأرض. اجتمعت السرية المكونة من مئة وعشرين غراّ ليقسّموا إلى أربعة فصائل. نظرت إلى الوجوه التي لا أعرف منها إلا كريم والذي اختفت ملامحه في التشابه. كان الشبان يتحدثون لهجات مختلفة شرقية وغربية وشمالية وجنوبية كمن سقطوا للتو في معسكر الجيوان من برج بابل.

ثلاثة أشهر يجب أن تمر بكل ما تحمله من مرارة وإهانة لابد أن تمر. كنت الأقل تعرضا للإهانات. ما أتذكره الآن وهو الأقسى كان كف المدرب البدوي يهوي على خدي لأنني استدرت لليمين وهو يصرخ "لليسار در" فجاء وجهي بوجه زميلي. ولكن المدرب الأردني والذي يقيم في المعسكر ويسهر معنا حتى العاشرة يسمعه كريم قصائد وقصصا مازال يحفظها كمن سيمتحن بها غدا، كان يدافع عنا ويرأف لحالنا التي أوصلتنا لساحات الأسفلت. كان يعرف بأن لدي راديو صغيراً تحت وسادتي أستمع منه لأغاني المطربين كل ليلة من

الحادية عشرة حتى الثانية عشرة تاركا أذني على الوسادة وذهني خارج المهجع في مكان مجهول أتخيله ولا أعرفه.

نهاية الأشهر الثلاثة كان خالي يصطحبني إلى المنزل ووالدتي تحتضني بشدّة وأنا أستمع لوجيب نفسها وأكاد أرى دموعها على كتفي. جلست في غرفتي أيام الإجازة التي استمرت حتى يوم السبت. لم أقف طويلا على الشارع فجر يوم السبت لتقف لي سيارة يقودها عسكريان بملابس الطيران الزرقاء "إلى أين؟" "سأذهب معكم. وزعوني هناك". كنت ما أزال بالملابس الخاكية. رأيت مجموعة من رفاقي الأغرار يقفون إلى الباب وطلب مني الأمن أن أقف معهم. وبعد أقل من نصف ساعة اصطحبنا عسكري بسيارة نقل عسكرية إلى الداخل. رحب بنا ضابط برتبة نقيب ثم قادنا إلى الآمر الذي تحدث قليلا

"كنا نبتعث زملاءكم بدورات إلى أمريكا وكان ذلك يكلفنا كثيرا فأنشأنا مدرسة كهرباء وإلكترونيات هنا ومدرسة لغات في "الجيوان" والذي ينجح منكم في المدرستين سنرسله لفرنسا للتدريب على صيانة طائرات الميراج".

فجأة ضاع حلم أمريكا بخطبة صغيرة. ابتسمت بداخلي وكأنني أعرف هذه النهاية المتوقعة. رفعت يدي استأذنه لأتحدث وأشار لي بامتعاض

"ماذا تريد؟"

قلت بثقة مفرطة تبدو فجة

"وإذا تقدمت للاختبارين الآن ونجحت سأوفر عليكم تعليمي"

ابتسم الآمر بما يشبه الاستهزاء ولكنه قبل التحدي الذي توقع أنني سأخسره. من منكم يريد أن يفعل مثله و لم يرد أحد. توجه

الآمر للنقيب.

"خذه إلى مكتبـــي"

غادرت المجموعة. أجلسني النقيب في مكتبه.

"أريد ماء"

كان فمي جافا. ابتسم الرجل وطلب لي ماء وهو ينظر إلى هذا الجسد النحيل والبشرة وقد جففتها الشمس والإسفلت. رن هاتفـــه وطلب الآمر أن يقابلني.

"أنت مستعجل للذهاب إلى فرنسا".

"أريد أن أتعلم شئيا جديدا. لا أن أعيد ما تعلمته".

"حسنا. معك حق. سأمنحك شهرا للبقاء في ورشة مدرســة الكهرباء هناك مهندس بريطاني في الورشة سأجعله يهتم بك. تستفيد منه لغة وهندسة".

أعطني ملفك. سلمته الملف ورجعت إلى الخلف حيث كنـــت أقف بعيدا عن مكتبه. تصفح الأوراق وتوقف طويلا أمـــام ورقـــة توقعتها شهادتي. بدا لونه يتغير ووجهه يتغضن. رفـــع نظارتيـــه ثم أعادهما بعد أن مسح ضبابا لا أراه في عينيه. نهض نحوي

"أنا أعتذر يابني. لم أكن أعلم".

صافحني كأنه يلتقيني لأول مرة.

"سأجهز أوراقك للسفر، كما قلت لك خلال شهر".

يبدو أن الأمور تعود إلى نصابها. أنهيت تدريبـــي مـــع الســـيد "تشامبرز" في ورشة تعج بعمالة أجنبية ومحلية واجتزت اختبار اللغـــة والإلكترونيات. ولكن الشهر امتد حتى أول أكتوبر مـــن عـــام 79 أنهيت أمور سفري واستلمت جواز سفري خلال يوم واحد. تأملته

طويلا حتى كدت أبكي بوجهه فرحا. كان سيتطلب مني الأمر خمس سنوات خدمة للحصول عليه. ترجمت شهادتي الدراسية وشهادة ميلادي ووثقتهما وأنا أعلم بأنه لم يعد شيء يربطني بهذا البلد.

حملت حقيبتي ودعت أمي في البيت. دست في حقيبتي سجادة صلاة ومصحفاً صغيراً واصطحبني خالي للمطار دون أن يتكلم. أراد أن يدخل معي وطلبت منه أن يمضي وأن يهتم بأمي ويعتذر لي منها.

"ستغيب سنة وتعود لا تحتاج للاعتذار"

"أغيب نعم ولكنني لن أعود"

"ماذا؟"

أغلقت الباب وحملت حقيبتي إلى الداخل دون أن ألتفت إليه. لا أستطيع أن أصف شعوري وأنا في طريقي إلى السماء، إلى الخلاص.

-2-

لم أشعر بمرارة الرحيل قدر استمتاعي بمتعة الهروب. لقد قررت أن أحرق جسر هذا الوطن خلفي دون أن أعرف الجسر الذي سأعبره. لم تكن تجربتي الفقيرة هي معلمي الأول. كانت تجربة خالي ضيدان هي الدرس الذي تعلمته. خالي ضيدان مرارتي الأولى وأزمتي الحقيقية. كان يعيش راعيا بسيطا لأغنامه وجنديا مقاتلا حين يحتاجون إليه وقارئا جيدا لا يجد حوله من يناقش معه أفكاره. وكنت أرى نهايته تماما كما حدثت. كان لا بد من الهرب من مصير يشبه مصيره، وألاّ أكون نسخة أخرى منه.

لا أعلم ما الذي سيحدث لي في هذه الرحلة وما سيكون عليه مصيري ولكنه المصير الذي اخترته أنا وليس الذي رسموه لي. أن أعيش اختياري مهما كان غامضا ومؤلما ولن أعيش ما هو مرسوم لي وأعرفه وإن كان مريحا. أن أخرج من هذه الأسوار التي تحدد مشاويري اليومية منذ دخولي إليها حتى نهايتي. أن أرفض هذا التكرار البغيض وأرفض حياة تشبه كثيرا حياة قطيع أغنام خالي ضيدان وحياة خالي ضيدان نفسه. وكان همّي الوحيد الذي أثقل كاهلي هو أمي. تركت لها وجعا لا تستحقه. وحين أخبرني خالي بوفاتها بعد أشهر من قراري بعدم العودة وهروبي من الخدمة العسكرية إلى أمريكا بكيت ليلة كاملة ولكني شعرت بأنها ارتاحت من قلقي وعصياني وكان ذلك يريحني.

وصلت مطار "أورلي" مساء. تناولت حقيبتي وخرجت إلى صالة القادمين أبحث عن الوجه الذي عليه أن يستقبلني. اسمه "رينيه" يقف مع مجموعة من الأشخاص يحملون بطاقات بأسماء ضيوفهم. رأيت اسمي على ورقة. اقتربت منه.

"السيد رينيه". قال حامل الورقة.

تصافحنا بابتسامتين وصار يسبقني بخطوة ونصف. حين خرجنا كان الهواء منعشا ولطيفا ولا أستطيع أن أجزم كيف هي فرنسا بالليل. انتقلت إلى مدينة اسمها "سيرجي بونتواز" كانت في المساء نائمة لا أثر لحركة كبيرة كما يليق بمدينة فرنسية. سكنت "استوديو" يتكون من غرفة واحدة هي غرفة النوم وكرسيين خشبيين وفرن صغير يعلوه رف به عدة مطبخ صغيرة وباب آخر عدا مدخلها هو باب الحمام. كانت مؤثثة وعلي أن أدفع أجرتها اليومية 45 فرنكا.

قلت للسيد "رينيه" أريد أن آكل، أنا جائع".

ابتسم وقال يبدو أنك محظوظ فمحل "سماراتين" يغلق أبوابه في التاسعة، وعلي أن أتذكر ذلك جيدا لأشتري ما أريد قبل هذا الوقت. اصطحبني ثانية إلى السماراتين والذي يبعد أقل من خمس دقائق عن سكني. اشتريت طعاماً جاهزا وبيضا وحليبا وأجبانا وخبزا فرنسياً.

عرفت فيما بعد لماذا يطلق الشباب على المدينة l'enfer أو الجحيم. في التاسعة مساء يغلق محل السماراتين أبوابه وتتوقف الحياة تماما في المدينة. حملت أغراضي إلى غرفتي وودعت "رينيه" على أن يأتي صباح اليوم التالي لإنهاء أمور السكن وزيارة شركة Thomson-CSF حيث سيتم تدريبي. وقعت عقد الغرفة ووفرت لي الشركة

بطاقة لتناول الغداء وبطاقة برتقالية للتنقل في الباصات والمترو والقطارات.

كان مشواري اليومي في أيام الأسبوع من الغرفة إلى الشركة. أتناول الغداء في مطعمها وأعود في الرابعة ثم أركب الباص حتى السماراتين وهو سوق من أربعة أدوار يضم كل ما يحتاجه السكان قبل أن يناموا في التاسعة. اشتريت حاجياتي من بيض وأجبان وخبز وبسكويت وشريطي كاسيت "لباربرا ستراينسد" و"دونا سمر" وعدت إلى الغرفة. كانت غرفتي في الدور السادس وتطل شرفتها على جبل بعيد يخترقه نهر يبدو من بعيد جدولا صغيرا. أثثت الشرفة بكرسي وطاولة صغيرة للشاي والبسكويت. وضعت مسجلة "الهيتاشي" على حافة النافذة ورحت أستمع للأغاني وأقرأ في كتاب لمجموعة من شعراء العرب وهو أحد خمسة كتب أخذتها من مكتبة خالي. كنت أحلم بزيارة باريس والتي تبعد عني ساعة ونصف تقريبا وأعد نفسي أن أزورها في نهاية الأسبوع.

في المساء وخلال جلستي الليلية على الشرفة طرق أحدهم الباب. توقعت أن أحد الجيران تضايق من صوت الأغاني. كان شابا وسيما عربيا كما توقعت ولكنه قال السلام عليكم بلكنة أعجمية.

"تفضل"

دخل الشاب وجلس على الصوفا وهو يدعك يديه.

"من أين أنت؟"

وأحسست بالخوف رغم أن هيئة الشاب تدل على رقة متناهية وأدب جم.

"من الكويت، وأنت؟"

"أنا من إيران".

"أهلا وسهلا".

كنا نتبادل الحديث بالإنجليزية. قدمت له الشاي وطلب مني أن نذهب إلى باريس في نهاية الأسبوع.

"لماذا؟"

"كي ترى باريس ولأشتري لك أغاني أفضل من أغانيك الهابطة التي تسمعها". وابتسمنا. ولم أعلق بشيء.

شربنا الشاي. قال لي رقم غرفته ولم نسأل بعضنا عن اسمينا إلا حين ودعته في الباب "رومي وأنت؟" "فرزاد". فرحت كثيرا أنني وجدت صديقا من الشرق ولكنني مازلت متوجسا من الشاب فهو غريب ويكبرني بأربع سنوات على الأقل. وعلي أن أظل متوجسا حتى أعرفه جيدا.

في صباح يوم السبت اغتسلت. صليت الفجر في غير وقتها. اخترت جينز وقميصاً وجاكيت وحذاء رياضياً متوقعا أننا سنمشي كثيرا في ضواحي باريس. كان فرزاد يطرق الباب وأنا أسخن الماء للشاي.

"لا داعي سنشرب هناك أفضل من الشاي".

أقفلت الباب. وغادرنا لمحطة الباص أمام بنايتنا. فرزاد أطول مني بعشرة سنتميترات وشعره كثيف مقارنة بشعري القصير جدا. يرتدي بلوفر أحمر كأنه محاك بيدين عاريتين وبنطال جينز وحذاءً رياضياً قديم أتخيل في كل لحظة أن إبهامه سيفتقه. حين صعدنا الباص كان فرزاد يتلفت كلما توقف الباص وصعد راكب أو غادره آخر وكأنه ينتظر أحدا لم يأت بعد.

لم أدرك سبب انفعال فرزاد حتى وصلنا محطة قطارات "سانت لازار". دخلت البوابة ببطاقة القطار والمترو وقفز هو فوقها واستمر وسط الزحام محاولا أن يختفي عن أعين المفتشين. حين وصلنا محطة المترو كانت البوابة خالية تقريبا، طلب مني فرزاد أن نجتاز البوابة معا بتذكرتي. التصق بي وحين وضعت تذكرتي رفعت الذراع القصيرة وانزلقنا معا إلى القاعة. وصلنا محطة الشانزليزيه في الحادية عشرة تقريبا. صعدنا السلالم وكنت أسير خلف فرزاد الذي يعمل الآن دليلا لي.

حين خرجنا من بوابة المترو وقفت مذهولا منبهرا أمام هذا الجمال ولم أتحرك. كان الشارع الطويل أنيقا ومرتبا بأشجاره ومحلاته على الجانبين. قوس النصر المطلّ بهيبة على الشارع وحركة السيارات حوله. المارة الأنيقون والنساء الرشيقات ورائحة أخاذة يغتابها ما بقي من غبار الجهراء في أنفي. كنا نسير في الشارع وكأننا سنكتشف مفاجأة في نهاية الطريق.

يبدو أنني أخذت القرار الأول عن وعي أكتشفه نتيجة للقرار وليس سببا لاتخاذه. في الأشهر الماضية فقدت تفاعلي تماما مع وطني وشخوصه المحدودين الذي عرفتهم. ليس لي الكثير من الذكريات التي تنازعني إليه. سأحاول التأقلم مع هذا الواقع الجميل الذي ساعدني الحظ فقط في الارتباط به.

"هل نجلس لنشرب القهوة؟". يسأل فرزاد ذهني الشارد.

"لن أعود إلى الكويت"

"وأنا لن أعود إلى إيران. هل تشرب القهوة؟"

"أشرب القهوة".

جلسنا في مقهى "ستروين" بمظلاته الحمراء والمطل على الشارع العريض وبدأت حركة الشارع أكثر حيوية ومتعة ونحن نراقبها جالسين.

"هل يمنعون النساء السمينات من المرور بهذا الشارع؟"

وضحك فرزاد. "يقولون الكويت بلد غني.. من أين أنت؟"

وخجلت ربما كان في الكويت مكان يشبه هذا لا أعرفه ولم يعرّفني عليه خالي ضيدان.

استمرت جولتنا في شوارع باريس ومعالمها حتى نهاية اليوم وفرزاد يجري أمامي كطفل صغير يتسلق السور المطل على نهر السين ويغني بالفارسية وينشد أشعارا جميلة في الإلقاء لا أفهم معناها. تناولنا وجبة واحدة بين الغداء والعشاء في مطعم صغير وشعر فرزاد بالخجل والتردد وهو يسألني أن يشرب كأس نبيذ ورفضت. حين خرجنا من المطعم دخل محل أشرطة كاسيت واشترى ألبومين دسهما في حقيبته.

حين عدنا إلى "سيرجي" تركنا باريس في الظلام أجمل منها في النهار. وتخلى فرزاد عن خجله الذي استمر طوال اليوم فاشترى زجاجة نبيذ رخيصة دسها في حقيبة علقها على ظهره وأخرج شريطي الكاسيت.

"استمع لهذين الألبومين، ستجد كلمات الأغاني في الداخل".

دخلت غرفتي وضعت الألبومين على الطاولة وكنت تعبا ونمت دون أن أغير ملابسي. صحوت من النوم متأخرا ومرهقا وجائعا. سلقت بيضتين وسخنت ماء للشاي وانتبهت للشريطين على الطاولة. قرأت على الغلاف الأول "جون لينون" والثاني "ميلاني". أدرت الأول وجلست أستمع وأفكر بفرزاد كصديق يساعدني على

فهم عالمي الجديد الذي سأنتمي إليه دون أن أمنحه الفرصة ليجعل مني نسخة منه. ولكني أحببت أغاني الألبومين.

المعضلة الوحيدة التي تواجهك في فرنسا هي اللغة. لا تجد من يستخدم الإنجليزية سوى بائعي المحلات ومدرسي معهد الشركة حيث أدرس بها. عرض فرزاد أن يساعدني في تعلم الفرنسية على يد مدرس خاص ووافقت. كانت السيدة البريطانية "أليسون" تقيم في بناية قريبة من سكني. شقتها صغيرة وقد قسمت الصالة إلى غرفتين إحداهما خصصتها لتدريس الفرنسية. لم تكن غرفة الدرس تستوعب أكثر من أربعة أشخاص وكنا ثلاثة فقط. شاب ماليزي وفتاة بريطانية وأنا. تكلفني الساعة 15 فرنكا وتبدأ من السادسة حتى السابعة. وكنت في الحقيقة أدرس لغتين معا. كنت أقلد أليسون في نطقها البريطاني والفرنسي وأضيف لقاموسي كلمات إنجليزية وفرنسية. أليسون كانت طيبة وهي المرأة الغريبة الوحيدة في حياتي التي اقتربت مني حتى كاد خدي يلمس ملتقى نهديها. تضع يدها على ظهري وأشعر بدمي يستثار ويسخن وكأن يدها أيضا تشعر بذلك فتسحب رؤوس أصابعها ببطء وتنظر عميقا في عيني وكأنها تقول أشعر بك يا فتى ولكني عشت ضعف عمرك وأكثر قليلا.

خصصت يوم الأحد نهارا لغسيل ملابسي وترتيب غرفتي وتنظيفها. كان ترتيب سريري ومسح البلاط يذكرني بأيام المعسكر وكنت أبتسم. لا بد أن تضحي بشيء ما كي تنجو، ولابد أن تضحي بكل شيء لتنجو تماما. في منتصف النهار كنت على موعد مع فرزاد لنذهب لسوق القرويين في الساحة العامة المقابلة لملعب كرة القدم. كانت رائحة الورد والفاكهة منعشة وكأنني أسير في بستان.

اشتريت باقة ورد لأليسون كما طلب مني فرزاد وتفاحة خضراء وكمثرى كفاكهة أتعرف عليها للمرة الأولى. افترقنا وعدت لوحدي. ذهبت لشقة أليسون قبل السادسة بربع ساعة. قدمت لها باقة الورد وقبلت خدي

"أوه هذا لطف منك".

وضعتْ الورد في الفازة على طاولة الطعام الصغيرة.

"سأعد لك شايا بالحليب".

كان ذلك شعورا رائعا. حاولت أن أقنع نفسي أنني أحببت أليسون لأنها المرأة الوحيدة التي عرفتها حتى الآن. وربما كان ذلك الشعور هو إخلاصي للغة الفرنسية. فبعد أسابيع قليلة أصبحت أتحدثها بشكل جيد وأجبر فرزاد أن نتحدث بها.

لم تكن أليسون جميلة أو رشيقة كالفرنسيات وحين أطبق مقولة خالي ضيدان "أنظر لكعب المرأة لتعرف جمالها" تبتعد أليسون بكعبها الغليظ عن أي صفة جمالية. شعرها القصير هو ميزتها المغايرة لملامح الجمال التي يعرفها البدوي، ولضخامة جسدها كانت ترتدي ملابس فضفافة وتبتسم دائما كمن يحارب حزنا لا يعرفه أحد.

زرت فرزاد ليلة سبت ترافقني أليسون وبقية الطلبة بدعوة من فرزاد. غرفته صغيرة شبيهة بغرفتي. احتلت أليسون والطالبة البريطانية الكرسيين الوحيدين وجلسنا نحن على سريره. كانت الخمرة تفوح من كل زاوية فيها وهو يملأ الكؤوس من زجاجة نبيذ بوردو الرخيص. لم يكن ذلك يضايقني وطيبة فرزاد تطغى على عيبه الوحيد. حين صب لي كأسا من عصير البرتقال علقت أليسون

"يبدو أن سن رومي لا يسمح له بالشراب".

ضحكوا وتضايقت لكن فرزاد رد

"لا. رومي محافظ"

و لم يقل متديّنا. ونهضت أليسون نحوي وجلست إلى جانبي

"آسفه، كنت أمزح".

"لا يهم".

مسحت على رأسي ثم عادت إلى مكانها.

كان فرزاد مشغولا جدا بالعمل السياسي وهو عمل لم يستهوني ولا أشعر بعلاقة تربطني به. يحدثنا كل ليلة سبت نسهرها في غرفته مع أصدقاء وصديقات عن ثقته بفوز فرنسوا ميتران في الانتخابات القادمة واجتياح الاشتراكية للحياة الأوربية وليس لفرنسا فقط. و لم أكن أعرف ما الذي سيتغير في فقر فرزاد في الحالتين فهو ما زال وسيبقى يشتري خمرة ردئية ويصنع زجاجات خمره المحلي المصفوفة على رف صغير وقد فرّغها من الهواء وسكن الكحول في أسفلها وتعلقت الفاكهة وحبوب القهوة في منتصف الزجاجات عديمة الجاذبية.

حين غادروا وبقينا لوحدنا قال لي فرزاد أن أليسون معجبة بي. وقلت لا هي كبيرة علي ربما تهتم بي. ولكنه نظر إلي بخبث وبلسان ثقيل قال

"هل تعرف كيف يعجب رجل بفتاة عذراء؟"

و لم أرد عليه وابتسم وهو يحني رأسه باتجاهي

"إنها معجبة بك كشاب لم تقترب منك فتاةٌ من قبل، كشابٍ بكر".

نهضت

"أنت سكران".
تمدد على السرير
"حين أسكر أرى كل شيء بوضوح".
خرجت وأغلقت الباب خلفي.

-3-

فرنسا جميلة. جميلة كفتاة تطل من شرفة. أحببت فكرة الهروب إليها. أصبحت علاقتي بفرزاد حميمية جدا واستمرت أليسون تدرسني بكثير من المحبة والإخلاص. تزورني أحيانا وكنت أحب طبق البيض المخفوق الذي تجيده ونتناوله في المساء. تشتكي من فقر ثلاجتي الصغيرة التي لا تحتوي سوى البيض والأجبان وعصائر بريئة لا تثير أفق جفافها. أحببت الرحلات التي قمنا بها نحن الثلاثة إلى باريس ولكن الزمن الذي قدر لي بقاؤه هنا في سيرجي بونتواز قد شارف على الانتهاء وعلي أن أرحل في نهاية مايو إلى مدينة "فيلزي" للتدريب في شركة داسو للطيران. الأشهر الرائعة التي قضيتها هنا كانت تنبئ بأن العيش في باريس ممكن. ما يعكر هذا العيش هو الفقر وذلك لا يقلقني لقد اعتدت عليه واعتاد علي. سأدرس وأعمل تماما كما فعلت أليسون من قبل وكما يفعل فرزاد الآن.

ما يفصلني الآن عن القرار النهائي للهروب هو ثلاثة أشهر تقريبا. سأرسل رسالة لخالي ضيدان أخبره أنني لن أعود إلى ما كنت عليه وأن يهتم بأمي ويطمئنها أنني سأعود يوما ما عليه ألا يحدده. وأن يحتفظ برواتبي التي يستلمها نيابة عني إلا إذا احتاجت والدتي. نجحت حتى الآن في توفير نصف مرتبي الذي أستلمه هنا لأعيش سنة أخرى حتى أجد عملا أو ألتحق بالجامعة. أصبحت أتقبل أن

يحضر فرزاد خمره إلى غرفتي وأن ترقص الفتيات في المساحة الضيقة بين السرير وباب الشرفة. لم أعد ألتزم بعدد الصلوات وأكتفي بصلاة الصبح وما قبل النوم.

في مساء يوم جمعة قبل أن أستعد للذهاب لدرس أليسون كانت هي تطرق الباب. "أهلا أليسون. هل ألغيت الدرس اليوم". سألتها

"لا. الدرس في موعده".

"حسنا".

"كنت أريد أن أطلب منك طلبا".

نظرت إليها بأنني مستعد لطلبها.

"لا ترتبط مع فرزاد غدا سنخرج معا".

ثم غادرت الغرفة دون أن تسمع ردي.

كنت وعدت فرزاد أن نزور صديقاً له يوم السبت وعلي أن أعتذر منه وأعلم أنه سيزور صديقه ولن يطلب مرافقتي وأليسون. أنهيت درس الجمعة وطلبت مني أليسون أن أبقى قليلا. ثم عرضت علي صفحة من مجلة تحمل إعلان أفلام تعرض حاليا وأشارت إلى أحدها.

"سنحضر غدا هذا الفيلم".

لم يكن الأمر مهما جدا بالنسبة لي فلست مغرما بالسينما. وافقت مرحبا بفكرة أن أقضي إلى جوارها ساعات في الظلمة تتيح لي أن أقترب منها أكثر.

"رومي".

وطوقتني بذراعيها كما لم تفعل من قبل، انتبهت أنها أطول مني قليلا.

"أنت تتفهم ما سأقول".

"سأحاول حين تقولين".

وتراجعت إلى الخلف تاركة رائحة صابونها الإنجليزي حول عنقي.

"أنا دائما أخاف من أن أسكر"

و لم أفهم.

"أريد أن أشرب حتى الثمالة غدا وعليك أن تهتم بـــي، تعيدني إلى فراشي وتخرج. تعرف. أنا أثق بك جدا. لم أعد أثق بكثير مـــن الرجال هنا".

كانت نظراتها تتحدث لغة أخرى. هززت رأسي وأنا في الطريق إلى الباب و لم تتحدث بشيء معي.

تلك هي آخر نهاية أسبوع سأقضيها في ســـيرجي بونتـــواز أو الجحيم وربما لم يكن جحيمها جحيما حقيقيا بالنسبة لي. أحببـــت الحقل الذي يزرعه الشاب بالقرنبيط بين الشركة وبنايتي والذي أسير بمحاذاته بداية ونهاية كل يوم. أحببت غرفة السطح وألعاب إلكترونية أمضي أغلب الأوقات أمارسها وكأنني أعلن دخولي القرن الحـــادي والعشرين قبل أن يدخل وبجدارة لا تتزعزع إلا حين تهزمني الفتـــاة الفرنسية في كل الألعاب. الفتاة التي تلعب معي كآلة لا تتبادل حديثا مطلقا حتى بعد أن تعلمت تكوين جملا كاملـــة. وكانـــت تكتفـــي بالابتسام بوجهي لتعلن نهاية اللعبة بفوزها. مشاوير باريس في نهايـــة كل أسبوع وحواراتنا المسائية في غرفة فرزاد. ما كان ينقصني هـــو الأحلام. أحلام أطمح أن أرى فيها صورة أمي أو خالي ضيدان. كل ما أراه في منامي هو نباتات (الثندا) الشوكية تراودها كثبان رملية في ثبات زمني كأنه بدأ في اللحظة التي تم نسيانه فيها.

لم أخرج من البيت صباح السبت. تناولت إفطارا خفيفا وشربت شايا مغربيا أهداه لي حارس البناية المغربي. جلست أقرأ قليلا وبين صفحة وأخرى أتخيل أنني سأخرج في موعد مع امرأة لو أنجبت في سني الآن لكان ابنها صديقي. ولن أنكر الخيبة التي أصبت بها حين تقترب مني امرأة طيبة كأليسون في اليوم قبل الأخير من هجرتي. ما أطمح إليه هو أن أحب فتاة في سني وزمن أطول لا يمكن أن يتحقق في لحظته الأخيرة. ربما الفتاة التي تهزمني في الألعاب لو كانت تجيد الكلام. علي أن أتعامل مع مشوار الليلة كرفقة صديقة أو مدرسّة ليس إلا. ولن أشغل نفسي بحالتها التي ستكون عليها قبل أن تندس في فراشها.

وأنا في الطريق إلى شقتها بعد الظهر كان في ذهني حديث فرزاد "إنك بالنسبة لها بكر". ولكنني لم أتردد في الدخول إلى شقتها وهي بكامل زينتها للمرة الأولى منذ عرفتها. ضفرت شعرها للوراء فكان جبينها عريضا وناعما. وضعت أقراطا ناعمة في أذنيها وارتدت تنورة ملونة بأزهار بنفسجية وسلسال ذهب على جيدها المفتوح للشهوة سقطت درته الفيروزية بين نهديها. منحها كعبها العالي طولا إضافيا لم تكن بحاجة إليه. قبّلت خديّ ومسحتهما بيدي دون أن تشعر متوقعا أحمر شفاهها قد ترك أثرا عليهما.

"هيا بنا نذهب. أنا جاهزة".

سرنا معا حتى محطة الباص والشمس تنعكس على زجاج بنايات "لافلجواز" الغربية.

"أنت لا تعرف شيئا عن المرأة الغربية"

وهززت رأسي أنني لا أعرف شيئا فعلا ليس عن المرأة الغربية فقط وإنما عن المرأة عموما. فأكملت حديثها دون أن تنتظر تأكيدي لجملتها.

"حين ترافق المرأة هنا شابا عليها ألاّ تفقد رشدها وهي تشرب. لن يمنحها فرصة أن تفلت من يديه".

"هل يجبرها على ذلك؟"

وضحكت وهي تمد يدها إلي يدي وكأننا أمام طريق مـــزدحم بالسيارات.

"لا ليس كذلك، ولكنها ستفقد رغبة الدفاع عـــن شـــهوتها. وحين تصحو تدرك أن كلبا آخر قد عضها".

كان الحل الوحيد الذي سأقدمه لها بديهيا.

"إذن لا تسكري إلا في غرفتك".

"أنت لا تعرف معنى الحياة في الخارج، في الشارع، أمام الناس. الحياة ليست في غرفتك. حين تكون وحيدا فغرفتك ليست ســـوى قبرك".

ربما كانت على حق.

كان يوم السبت ذاك مبهجا. امتلأت أنفـــاق المتـــرو بالباعـــة البسطاء والمطربين الذين يبحثون عن اعتراف المارة بهـــم، يوزعـــون أشرطة الكاسيت مقابل فرنكين. توقفت طويلا أمام أحدهم. كـــان صوته يشبه جرحا أعرفه، رميت في قبعته مبلغا بســـيطا وأخـــذت الكاسيت فانحنى وعينيه ملآى بالدموع.

"إنه يبكي". قلت لأليسون.

"إنه ثمل". قالت أليسون.

لم أعلق. ربما لا أعرف الكثير عن هذه الحياة التي هربت إليهـــا وليس بإمكاني التفريق بين الحزن والسكر. لم أتعرف على الكثير منها محاولا أن أعيش بأقل ما تسمح به أخلاقي المكتسبة والفطريـــة مـــن

متعة. ربما خدمني فرزاد الذي عرّفني على متاحف باريس وكنائسها التاريخية. حين طلبت منه مرة أن أزور كنيسة "نوتردام" متأثرا برواية أحدب نوتردام لهوغو التي أصر علي خالي أن أقرأها. علق فرزاد ضاحكا "توقعت أن تطلب مني أن نذهب لحي "البيغال". ولكن فرزاد وإن لم يكن ملتزما أخلاقيا كان يحترم التزامي رغم استمرار تحريضه لي بأن أكون مثله وأقسّم حياتي بين اللهو والجد.

تجولنا في ساحة الفاندوم ثم سرنا حتى الأوبرا وكانت النسوة يعرضن منتجات حريرية في الساحة المقابلة لها. جربت أليسون شالا حريريا بلون ريش الطاووس وسألت البائعة سعره ثم أعادته ولكني اشتريته لها وهي ترفض والبائعة تردد كلمات أغضبت أليسون "اقبليه من ابنك" قالت لها. وابتسمت وأنا أقول لها "إنها مدرستي". لكن أليسون طلبت مني أن أضع الشال حول عنقها أمام البائعة وشدتني إليها وقبلت فمي بسرعة وكأنها أخطأت خدي عن عمد. نظرت نحو البائعة بمكر صغير وانكسرت عين الأخيرة متظاهرة بترتيب بضاعتها.

تناولنا الطعام في مطعم أنيق في حي الأوبرا وشربت أليسون زجاجة نبيذ كاملة. كانت في كامل وعيها. طلبت فاتورتين منفصلتين وغادرنا إلى الشانزليزيه لحضور فيلم "الوردة" لبيتي ميدلر. اشترت أليسون زجاجة نبيذ صغيرة دستها في حقيبتها لتستمع بالفيلم على طريقتها. كانت ميدلر بعمر أليسون مترهلة الذراعين وبصوت مبحوح كمدمنة أزلية كان صوتها جريحا ونكتها سخيفة وعلي أن أتحمل هذه التفاهة لمجرد أنها رغبة أليسون.

أقل من ثلاث ساعات بربع الساعة وهذا الضجيج يحيط بي يحرمني حتى من الالتصاق بأليسون المستمعة بشيء من البلاهة

لموسيقى تعني لها الكثير ولا تعني لي سوى صخب مجنون.

طلبت أليسون أن ندخل حانة في زاوية من زوايا الشانزليزيه والساعة تقترب من العاشرة مساء. كنت أفضل المشي وسط هذه الجموع التي ترتاد الشارع من كل صوب. بعد أقل من ساعة كانت أليسون لا تعرف من هي ولا هي مع من.

"كيف استطعت أن تتخلص من أفكار الشيطان الذي صادقته؟"

قالت وهي تكاد تتقيأ الأحرف. لا بد أنها تقصد فرزاد. ربما كان أحد الكلاب الذين عضّوها.

"شاركته مشاويره و لم أشاركه أفكاره"

"تبدو أذكى مما تصورت. بهذا العمر الغض. تبا لكم."

أنهضتها وتراجعت. تمايلت وسقطت ثانية على كرسي بلا مسند فسندتُ ظهرها. أشار إليّ الرجل من خلف طاولته أن أذهب بها إلى الداخل كي تستريح. لحقني نادل شاب بفنجان قهوة رائحته نفاذة توقعت أنها ستصحو لمجرد استنشاقها. شربت القهوة ثم طلبت مني أن نعود إلى "سيرجي".

"تستطعين المشي"

"بالتأكيد أنا لست ثملة، أنا سعيدة فقط وأفقد اتزاني حين أكون سعيدة".

لم تكن رحلة العودة شاقة ولكن ما لم تفعله أليسون في ظلمة السينما معي فعلته في غياب الوعي. ألقت برأسها وصدرها في حجري وأخذت يدي لتمسد ظهرها. راحت تتحدث عن أشياء لا أعرفها، كانت تهذي بهدوء ثم غفت. وصل القطار محطة "سانت لازار" ركبنا الباص حتى المحطة القريبة من بنايتها. كنت سعيدا لأنها

كانت طوال الرحلة تستعيد ذكرياتها وضحكاتها وبكاءها بهدوء دون أن يهتم أحد من الركاب بذلك.

في الطريق إلى شقتها.

"سأثبت لك أنني لست ثملة وسأصنع لك شايا ونتحدث عن كل شيء"

"أفضّل أن أعود إلى البيت"

"لا. أدخلني غرفتي واذهب حين أنام. أرجوك"

تغنجت وطوت عنقي بذراعيها. كانت رائحتها منعشة ومنفرة في ذات الوقت وجبينها ناعما وهو يلامس وجنتي، تميل بجذعها نحوي حتى تلتصق بجسدي. كنت أخمن الآن إلى أين تقودنا شهوتها ولست واثقا إذا كنت فعلا جازما بالالتزام بأخلاق خالي ضيدان وتعاليمه التي زرعها بعقلي منذ بدأ بتربيتي.

"لا ترفع ثوب امرأة في الحرام".

ذلك الصوت الأجش الذي يحيطني دائما أفكر الآن بالتخلص منه. إن تعاليمه تتعلق بالمكان والزمان الذي يعيش فيه وليست بالضرورة صالحة لمكاني وزماني الجديدين. كانت تعاليمه تتواءم مع مجتمعه ولكنها لا تنتمي هنا لأحد ولا ينتمي إليها أحد هنا.

شددت بيدي على خصرها فتأوهت وأرخيت يدي عنها. سرنا قليلا وهي تحيط بعنقي بيد واحدة وتتكئ بنصفها على جسدي فبدوت كمن يسحبها إلى جواره. حين ضغطت زر المصعد.

"ستصعد معي"

وصعدت. جلست في الصالة ودخلت حمامها. كنت تعبا قليلا وأريد أن أنام.

"هل تريد الحمام؟" قالت وهي تخرج.

دخلت الحمام وحين خرجت رأيت أنثى أخرى أمامي. كانت ترتدي قميصا شفيفا لاشيء تحته. كل مفاتنها تتحرك بحرية تحت هذا القماش اللازورد. رفعت بصري وخفضته أكثر من مـــرة. ركـــزت طويلا بحركة عجيزتها وهي تتجه إلى المطبخ وتبتسم بمكر. تضع يديها على حافة إطار الباب تاركة الضوء يسقط على ميلاها الفاتن.

"تريد شايا".

هززت رأسي بنعم. عادت ثانية لتجلس ملتصقة بـــي. شعرت بنهديها يحتكان بذراعي ويدها تلتف على عنقي. وشـــهوة غامضـــة تجتاحني. نهضت بسرعة.

"يجب أن أذهب الآن. أنا تعب وأريد أن أنام".

"ستنام هنا"

نهضتْ قبلي لتمد يدها لي كي أنهض. نهضت واتجهت إلى باب الشقة.

"لا من هنا".

"لابد أن أذهب"

"أرجوك لا تتركني الآن"

وتعلقت بـــي. نفضت يدها وأكملت طريقي.

"لا يمكن. لا أستطيع. أنت تعرفين.."

"أنت طفل وغبـــي. لا أريد أن أراك ثانية"

فتحت الباب وخرجت وكأنني سمعت ارتطام شيء ما به.

في المسافة التي تفصل بنايتي عن سكنها أحسست بأنني كنـــت مثاليا في المكان الخطأ والوقت الخطأ. فكرت أن أعود وأعتذر وأكمل

ليلتي معها و لم أستطع أن أقنع تعاليم خالي ضيدان بذلك. أكملت سيري وحين وصلت فراشي دسست رأسي غضبا مني علي ونمت.

في صباح اليوم التالي صحوت ثقيلا وكأنني أنا من ثمل ليلة البارحة. طرقت الباب لأودع فرزاد فلم يكن هناك و لم أجرؤ على وداع أليسون التي أتوقع أنها لم تصح بعد. جمعت أغراضي في حقيبتي وحملت مسجلة "الهيتاشي". جلست في صالة الاستقبال أنتظر سائق الشركة لنقلي إلى مدينة "فيليزي".

حين عدت بعدئذ عام 1987 إلى باريس لأعمل في مكتب شركة "والدي" ذهبت لأزور فرزاد وأليسون و لم أجدهما. ربما تغيرا هما في أمكنة ما كما تغيرت أنا.

لا أرى النهاية... أرى الطريق إليها

مساء الأحد كنت أتجول حول فندق "رامادا"، الفندق الوحيد القريب من القاعدة العسكرية لطيران الميراج وشركة داسو حيث علي أن أقضي فيها أشهر التدريب المتبقية. إذا كانت سيرجي بونتواز جحيما فهذه الضاحية هي الدرك الأسفل لجهنم. لاشيء يمكنه أن يجذب بصرك سوى فندقها الوحيد. لا محطة مترو تصل فيليزي بباريس ومحطة الباص القريبة من الفندق تبعد أكثر من ربع ساعة سيرا على الأقدام دون رفقة، وعلي أن أستقل القطار من محطة شافيل فيلزي لأقرب محطة مترو. نظريا يبدو الطريق سهلا ذهابا ولكني كنت أفكر بطريق العودة ليلا. كان الحل الوحيد هو الموافقة على عرض سائق الفندق ياسين المهاجر العربي بأن أدفع له عشرين فرنكا كل يوم سبت ليقلني إلى أقرب محطة مترو. ولكنه كان يتحكم في الوقت فعلي أن أنتظر حين يؤمر الرجل لمهمة ما في المدينة وهو وقت بين التاسعة صباحا والعاشرة في نهاية الأسبوع وعليه أن يعيدني في الثانية عشرة ليلا بسيارته الخاصة. كان ياسين رجلا طيبا نصلي معا في غرفته المخصصة له في الفندق أو غرفتي ويستغلني ماليا قدر استطاعته فتتضاعف الفرنكات العشرين بطرق لطيفة وغير مبتكرة.

في أيام الأسبوع أجلس في بهو الفندق أدرس كتيبات طائرة الميراج F1 أو أقرأ أحد كتبي العربية. كان الفندق يضم ديسكو

عن يميني وبار عن يساري ومتعتي السرية هي متابعة هـذا الجمـال الباريسي مصابا بفوبيا الأجساد الأنثوية التي أحيلها أحيانا إلى تعاليم خالي وأخرى إلى انعدام تجربتي في سن التاسعة عشرة.

اتصلت بفرزاد في أول سبت لي في فيليزي واتفقنا أن نلتقي في الحي اللاتيني الواحدة بعد الظهر.

"كيف فيليزي؟"

"جحيم مضاعف، لا تطاق. لاشيء سـوى ضـجيج داسـو وطائراته".

"سنؤممه قريبا. تخيل أن رجلا واحدا يمتلك أهـم صـناعة في الغرب"

"لم يسرقها من أحد، ستسرقونها منه".

"هل تدرس الفرنسية؟"

"لا. لم أجد مدرّسة"

"سأرسل لك مدرسة من الجامعة، شابة أجمل من أليسون"

ثم استوقفني ونظر في عيني

"كانت تشتمك كثيرا ماذا فعلت معها، يبدو أنك لست بكرا"

وخفضت نظري

"تشتمني لأنني لم أفعل معها شيئا"

"أكيد؟ في هذه الحالة تستحق الشتم".

تناولنا الطعام في الحي اللاتيني. اقترح فـرزاد أن نـزور حـي "مونمارتر" ليلتقي بصديقته الفرنسية التي ترسم المارة والسياح علـى الهضبة. المكان خلاّب ومذهل. الكنيسة البيضاء في أعلى المرتفع تطل كحارسة مقدسة للجمال. كانت "ميراي" أو "ميغاي" حين يـدلل

الفرنسيون الراء ويدللها بها فرزاد فتاة جميلة شعرها الذهبي القصير يمنح وجهها المستدير براءة ونعومة وعينان خضراوان كقطة سيامية وديعة. حين اقتربنا منها كانت مشغولة ترسم رجلا وزوجته. ابتسمت لنا بنظرة سريعة فتجولنا في الساحة نتأمل الحركة الخلابة لأناس يصنعون الحياة ويعيشونها في اللحظة ذاتها. تناولنا فطيرتي "كريب" بالزبدة والسكر من عربة على الرصيف. حين انتهت ميراي طلب منها فرزاد أن ترسمني.

"شريطة أن أدفع ثمنها".

"لا"

رفضت ثم اتفقنا أن أدعوهما على العشاء في مطعم تختاره. كانت اللوحة رائعة رغم أنها لاتشبهني كثيرا. يبدو أنها كانت تنظر إلى عيني فرزاد فرأيت عيني في اللوحة تشبه عينيه. اختارت ميراي مطعما صغيرا أنيقا وحميما كمطبخ عائلة فقيرة يقدم ثلاث وجبات يومية محدودة السعر. تناولت ميراي قطعة لحم دائرية بحجم راحة اليد سميكة وملفوفة بشرائح البصل وخضار مسلوقة. لم يقاوم فرزاد إلحاحها بأن يتناول طبقا مشابها وفضلت طبق الدجاج والبطاطا الفرنسية.

"هل تحبها؟" سألته

"طبعا ونعيش معا حاليا"

"تزوجها إذن"

قلت بصبيانية لا مبرر لها.

"نحن نعيش معا يعني هي زوجتي"

يبدو أن ميراي فهمت ما أقصد

"إنه يسأل عن التوثيق الشرعي"

التفت إلي فرزاد

"لا نحتاج وثيقة من رجل دين يعتقد أنه وكيل الله في الأرض".

وصمتّ فلم أودّ أن أفسد دعوتي بإغضابهما رغم أن ميراي كانت تبستم ابتسامة لا دلالة لها. وقبل أن نفترق قال لي فرزاد

"إذا أردت أن تعيش هنا إلى الأبد فانفض غبارك"

وأشار إلى رأسي.

افترقنا. دخلت مقهى المحطة وتناولت شايا بانتظار ياسين حسب موعدنا والذي تأخر حتى الواحدة فجراً.

لم أخرج من غرفتي يوم الأحد إلا للوجبات الثلاث في الفندق واستراحة صغيرة في المقهى الصغير. قرأت قليلا في المساء ولم أجد شخصا أتحدث معه حتى الزملاء العرب الذين كانوا معي في الدورة التعليمية لم أشاهد أحدا منهم. فكرت أتصل بخالي ولكنني ترددت لسبب لا أعرفه.

تمر نهارات أيام الأسبوع عادية جدا ومساءاتها مملة لا يكسر مللها سوى الجلوس في البهو مع كتاب الدورة التدريبية أو أحد كتبي العربية. في تلك الليلة كان بهو الفندق مزدحما وحفلة تقام في المرقص وموسيقى صاخبة يصل صوتها حتى البهو. تقدم مني رجل مسن كان يتلفت بحثا عن جلسة شاغرة وطلب بلهجة أمريكية مهذبة أن يجلس على الكنبة المقابلة لي.

"معك أحد"

"لا. تفضل"

أشرت له بالجلوس على الكنبة أمامي. جلس ثم أشار للجرسون أن يقترب منه. طلب قهوة وأخرج ملفا وراح يتابع الأوراق بداخله. لم أنتبه من أين جاء الرجل، من داخل الفندق أم من خارجه. كان رجلا مسنا في السبعين تقريبا ولكنه قوي البنية جميل الهيئة. عرفتني على اسمه امرأة في مثل سنه تقريبا وهي تهرع إليه قادمة من المرقص وتبدو كمن تركت خلفها مشهدا مروعا.

"جيمي.. يأيها المسيح المصلوب.. يا إلهي.. جيمي.. يا يسوع.."

رفع الرجل عينيه إليها وكأنه اعتاد تضخيمها للبسيط من الأمور و لم يغلق الملف.

"ما بك؟ ماذا حدث؟"

"فتاتان تراقصان بعضهما. يا سيدي المسيح.. فتاتان.. يا إلهي"

وحركت يدها بإشارة الثالوث، ثم جلست إلى جواره وحين انتبهت لوجودي أخفضت رأسها تحية لي. وأكملت

"كانت تراقصها تلتصق بها كأنها رجل.. يا إلهي.. فتاتان جيمي... تضع يدها على.. على.. يا أيها المسيح المصلوب. هل تصدق ذلك؟"

"لا. ولكن هذا كان سيحدث يوما ما وهاهو حدث هنا. لا تكترثي كثيرا "كاثرين". ربما حدث الآن في مدينتنا أثناء غيابنا"

قال الرجل وأعاد النظر إلى ملفه وحين جاء الجرسون بالقهوة طلب لها قهوة وهدأت قبل أن تشربها. كنت أبتسم لأنني لا أعرف لماذا كل هذه الثورة على فتاة ترقص مع فتاة. كان من الأفضل أن أستأذن وأتركهما لشيء من الخصوصية.

"اجلس نحن من ضايقك"

قال الرجل. وأصرت المرأة أن أجلس. فجلست ثانية. لم نتحدث معا لكن المرأة سألتني

"من أين أنت"؟

"من الكويت"

و لم تستوعب. ونظرت إلى زوجها تستعين به ليعرف من أين أنا. فهز رأسه غير مبال لاستفسارها.

"وأين تقع بلدك؟"

"في الشرق الأوسط. بجوار السعودية"

وهنا يبدو أنها تفحصت الخارطة لتدرك أنها تعرف السعودية وجوارها.

"عربي أنت، صحيح"

"نعم"

"ما اسمك؟"

وحدق زوجها غضبا في عينيها

"كاثرين!"

"لا بأس. اسمي رومي". قلت

"جميل". قالت. وابتسم الرجل.

وانتهى الحوار هنا ونهضت دون أن يعترض الزوجان على ذلك.

تكررت اللقاءات بيننا صدفة في بادئ الأمر ثم اتصالا من السيد جيمي الذي يطلب مني أن أجلس معه. عرفت أنه صاحب مصانع لأجهزة الملاحة ويتعامل مع شركات عالمية في فرنسا وبريطانيا وكندا وهو هنا لإنجاز صفقة مع شركة داسو للطيران. عرف عني سبب

وجودي هنا وجزءا من حياتي هناك. ولكن استغرابه كان

"أنت شاب وأعزب وتجلس بين بار وديسكو ضخم لماذا لا تعيش حياتك؟"

"لا أجد حياة في المكانين، أفضل أن أبتعد عن هذه الأماكن"

"حسنا تفعل، أنا معجب بك، وزوجتي كذلك، ستأتي بعد قليل، تود أن تجلس معك".

استمرت لقاءاتنا طويلا وكل ليلة تقريبا عدا ليلة السبت حيث أذهب للقاء فرزاد وميراي. وفي ليلة فاجأني السيد جيمي وزوجته بطلب غريب

"هل تقبل أن تأتي معنا إلى أمريكا؟"

كانت تلك مفاجأة تشبه الصدمة. كأن يفتح لك أحدهم باب الحلم

"وماذا سأفعل في أمريكا؟" قلت.

وكأنني أعرف جيدا ماذا سأفعل في فرنسا.

"ستفعل كل ما تريد وسنفعل لك أكثر مما تريد"

"سأرد عليكما. أريد فرصة لأفكر"

"لا وقت لديك. سنسافر خلال ثلاثة أيام، أريد جوازك غدا للسفارة".

اتصلت مساء تلك الليلة بفرزاد أخبره ما حدث. ولم يدم الحوار طويلا. قال فرزاد بحزم

"لا تتردد لحظة واحدة. إن أمريكا حلمك الذي لم تحلمه".

سأترك لأيامي حرية أن تقودني كيفما تريد. سأقنع نفسي دائما أن تلك هي قراراتي. في صباح اليوم التالي كنت أنتظر الزوجين في

اللوبـــي وجواز سفري في حقيبتي التي علقتها على كتفي. صافحني الرجل مبتسما وقبلتني السيدة وحين وصلت سيارتهما جلس الســـيد والسيدة في الخلف وطلبا مني أن أجلس إلى جوار السائق الـــذي لم يتكلم بغير كلمة "حسنا يا سيدي" حين طلب منه السيد أن يتجـــه للسفارة الأمريكية.

كان الاستقبال الذي حظي به الزوجان يدل على مكانتـــهما. أدخلنا رجل مهم إلى مكتبه وتحدث طويلا مع السيد جيمسون كما أطلق عليه. طلبا مني أقترب واستخرج جواز سفري ربما اكتشـــف الرجل المهم ملاحظة "انظر صفحة.." تلك الصفحة تشير إلى أساس صرف جوازي وتعلن براءة الدولة من انتمائي الكامل لوطني. لكنـــه دقق في الصفحة الأولى مركزا على صـــورتي الفوتوغرافيـــة المزريـــة بالغترة والعقال وكأنه ابتسم.

"حسنا" قال موجها كلامه للسيد جيمسون ثم أشار لي بيده أن أجلس وجلست إلى جوار السيدة كاثرين التي ضغظت يدها ضـــغطا خفيفا على يدي.

"أنا سعيدة أنك ستأتي معنا".

وكنت أنا أكثر سعادة بموافقتي بالذهاب معهم. لن أدّعي زيفـــا أن جسدي كان يسير بعكس عاطفتي. ليس لدي أي حنين إلى بلدي. لقد تخلصت منه تماما في الأشهر الماضية وكنت سأقبل أي بديل عنه. لا أريد لذاكرتي أن تبقي سوى رجل وإمرأة وأغنام تركتها هناك.

خرجنا من السفارة بجواز يحمل فيزا إلى أمريكا وفيزا سابقة إلى فرنسا هي طريق العودة إذا لم تعجبني الحياة هناك. ولـــيس لي نيـــة مطلقا بالعودة إلى بلد الجواز. كنت تلك الليلة ساخطا أكثر من أي

وقت مليئا بالكراهية. اتصلت مساء بخالي ضـــيدان وأخبرتـــه أنـــني سأسافر خلال ثلاثة أيام إلى أمريكا وسأعود حـــين أحصـــل علـــى الجنسية الأمريكية فأغلق الهاتف بوجهي دون أن يرد علي أو يمنحني فرصة السؤال عن أمي. حضر فرزاد وميراي إلى الفندق تلك الليلـــة وتناولنا العشاء في غرفتي ثم طلبا أن يناما عندي لصعوبة المواصـــلات بعد منتصف الليل. تركنا السرير لميراي ونمنا كيفما اتفق. في الصباح جمعت حاجياتي وودعتهما متجها إلى طريق ثانية لا أعلم نهايتها ولا يهمني كثيرا أن أعلم.

غادرت فرنسا وفي داخلي شهوة لم أجرؤ على كسر قناعهـــا. شهوة وحيدة عشتها منفتحا على كل مغاليقها هـــي اللغـــة. لغـــة عشقتها كحب حقيقي وهي اللغة التي أعادتني لحضن باريس عاشقا حقيقيا فيما بعد.

حين وصلنا مطار كينيدي في نيويورك كانت سيارة بونتيـــاك سوداء تنتظرنا وسائق أنيق يرتدي بذلة زرقاء وكاب أزرق. وضـــعنا الحقائب ركبت إلى جوار السائق قبل أن يطلب مني السيد جيمسون ذلك بينما ركب هو والسيدة في المقعد الخلفي. كنت أنظر من مربع النافذة إلى هذا العالم الذي ألقيت نفسي فيه محاولا إنقاذها من بشاعة لا أتخيل أنني أحتملها. توقعت أن السيد جيمسون سيتركني في المطار الضخم ويقول لي "أيها الفتى هذه هي أمريكا فلتصنع منك ما تشـــاء أنت أو ما تشاء هي". ولكنني ما زلت معه وهذا يعـــني أن ضـــياعي مؤجل إلى حين.

بعد أكثر من ساعة عبرت السيارة جسرا نحـــو المدينـــة الـــتي ستصبح وطني الصغير. قال لي السيد من الخلف

"هذه مدينة "جيرسي" يا بني أتمنى أن تكون محطتك الأخيرة"
وردت السيدة
"لا أحد يضمن هذه الحياة يا جيمي".

دخلت السيارة في ممر سوّر باللبن العريض وبارتفاع خفيض تحيط به شجيرات خضراء وطريق تؤدي إلى بيت أشبه بقصر. ترجلنا من السيارة بينما أكملت طريقها عائدة إلى الخارج وفتحت لنا الباب سيدة سمراء في منتصف العمر حدقت طويلا بملامحي الغريبة وكأنها تسألهم "أين وجدتموه؟". أدخلت حقيبتي السيد والسيدة وأدخلت حقيبتي ثم توقفت في منتصف الصالة لا أعرف أين أذهب.

"انقلي الحقائب إلى غرفتنا وعودي إلى هنا". قالت السيدة كاثرين مخاطبة المرأة.

طلب مني السيد جيمسون أن أجلس في الصالة حتى تعود "جلوريا" وتركني متجها إلى الدور الثاني. عادت جلوريا والسيدة كاثرين تتجه نحوي قادمة من زاوية ما من البيت
"هذا رومي. سيكون ابننا في البيت". قالت السيدة.
جحظت عينا جلوريا ثم خفضت بصرها ورأسها نحوي
"خذيه إلى غرفة الضيوف حتى نجهز له غرفته".

الغرفة أنيقة وفراشها وثير كفندق رامادا. كنت تعبا لم أنم طوال الرحلة فنمت في الثامنة مساء لأصحو في الفجر على صوت عصافير تبدو قريبة جدا من شباك الغرفة. نهضت لأفتح الشباك على غابة لا أرى نهايتها خلف البيت تبدو أكثر غموضا بأشجارها المتراصة. أخرجت أمتعتي من الحقيبة واغتسلت وجلست لا أعرف ماذا أصنع ولكنني سأنتظر حتى يستيقظ الزوجان ويطرقان الباب.

في السادسة صباحا كما تشير الساعة الدائرية في الغرفة طرقت أيدٍ ناعمة الباب وصوت توقعت أنه صوت جلوريا

"هل أنت مستيقظ سيدي؟"

جاء صوتها خافتا ليس له أن يوقظني لو كنت نائما.

فتحت الباب. رأت أنني مستعد لأن أمضي معها إلى صالة طعام بدت جزءاً من المطبخ المقابل لها. طاولة الطعام ضخمة بأكثر من عشرة مقاعد تقريبا جلس الزوجان في زاويتها و لم أجلس حتى أشارت لي السيدة أن أقترب منهما وهي تمد يدها إلى مقعد جوارها. دنت جلوريا مني "قهوة بالحليب" وأشرت برأسي نعم. كان الطبق الذي أمامي بيضاً وشرائحَ لحم خنزير مقدد أبعدته بخفة وابتسم السيد جيمسون وأشار لجلوريا. همس بأذنها فأعدّت طبق بيض مخفوق ذكرني بمساءات أليسون.

"يجب أن تعرف أنك ابننا الآن". قالت السيدة كاثرين

و لم أعلق كنت أظن الأمر مجرد ترحيب مبالغ فيه نحو شاب غريب، ولكن السيد جيمسون فاجأني

"إذا لا تمانع في حمل اسمنا"

لم أعرف أي قدر يقودني للخروج من جلد أبي الذي لم أعرفه إلى جلد أب أتعرف عليه. انتظر ردي طويلا ولكن السيدة كاثرين كمن يطمئنني بأن ذلك ليس ضروريا

"لك الحق بالاحتفاظ باسمك يا بني هذا ليس شرطا لتكون ابننا".

لم يكن لدي وقت طويل لأفكر وحاولت أن أبدو محافظا على أبوة ليس لها صورة حقيقية في ذاكرتي الطرية كراحة مولود ومتقبلا للعرض الذي لم تسعفني فطنتي الفقيرة لفهم ما وراءه.

"هل يمكن أن أحتفظ باسم والدي فقط؟"

كان سؤالي إجابة واضحة على العرض. ونهضت السيدة من مكانها لتحضنني من الخلف و لم أر نظراتها للسيد جيمسون ولكنه كان مبتسما ابتسامة ثابتة منذ موافقتي على عرضه وموافقته على أن يكون اسمي الجديد "رومي راضي جيمسون".

لا أعرف لماذا كان بودي أن أعتذر من خالي ضيدان رغم أنني لا أحمل اسمه ولا يضيره حتى لو غيرت اسم والدي وألغيته من أوراقي كما ألغاه هو من ذاكرته. لم أسمعه في يوم ما يذكره أو يرسم له صورة تستقر في ذهني وكذلك فعلت أمي في تواطؤ يبدو مدبرا في لحظة ما لم أكن شاهدا عليها. لست مطالبا بالاعتذار من أحد. لست مطالبا بأن أدّعي ولاء مزيفا لوطن أو لأب أو حتى لخال أحبه، ولأني لبست رداء جديدا فعلي أن أبدو جديدا تحت هذا الرداء.

بدأت أكتشف وجودي والوجود من حولي وكأني طفل يرى وجهه للمرة الأولى في المرآة ويتعرف على علاقته بهذا العالم الغامض المحيط به. غادر السيد جيمسون بعد الإفطار إلى عمله وبقيت مع السيدة كاثرين التي أخذتني أتعرف على البيت الذي سأعيش فيه. كل ما في البيت هو اكتشاف جديد بالنسبة لي ولكن المتعة كانت هذه المدفأة في صالة الجلوس. كانت مطفأة في هذا الوقت من السنة ولكنني أتخيلها في الشتاء. سيذكرني صوت النار بالماضي الذي أريد له أن يبتعد كثيرا عني. لا بأس. رأيت غرفة واسعة تنوي السيدة أن تخصصها لي. كانت خاوية تماما.

"ستختار أثاثها بنفسك".

قالت السيدة وهي تغلقها خلفنا. وابتسمت. كان السؤال الوحيد العالق بذهني هو "لماذا تفعلان كل ذلك من أجلي؟" سؤال من الأفضل اكتشافه لا انتظار الإجابة عليه. كان البيت من الداخل يبدو أكثر اتساعا مما يوحي خارجه. غرف عديدة في الدور الأول لا يبدو أنها فتحت في يوم ما. تقيم جلوريا في ما يشبه الجناح الخاص والذي يتصل مباشرة بالمطبخ. وتستخدم السيدة جهازا كجهاز الدوريات للتواصل معها. في الدور الأخير قبة زجاجية تحيط بها ستائر بنية داكنة وهي الغرفة الأقرب إلى السيدة كاثرين والتي ستكون كل عالمي خلال سنوات إقامتي. كانت الغرفة تضم أرشيفا ضخماً من الإسطوانات الغنائية ومجموعة ضخمة من أشرطة العرض لأفلام لا أستطيع حصرها ومكتبة ورقية هائلة ومنظراً خلاباً حين تنحسر الستائر لتطل على نهر "هدسون" وناطحات سحب مانهاتن من جهة وقلب مدينة جيرسي من جهة أخرى.

بعد ثلاثة أيام من الكسل المنعش والتجول في غابة أشجار الدردار والصنوبر والأرز والقَضبان ذي الجذوع البيضاء خلف المنزل مستغلا دراجة هوائية للسيد جيمسون ومشاغبا الطيور وهي تقترب من برك الماء الصغيرة المتناثرة طلب مني السيد جيمسون في الصباح أن أرافقه في مشوار لا أستطيع أن أنساه أبدا.

كان السيد جيمسون يقود سيارته الكاديلاك بنفسه وينظر إلي كلما سنحت فرصة على الطريق التي أحاطت بجانبيها الأشجار.

"ستكون سعيدا معنا وسنكون سعداء بك"

هززت رأسي. دخلنا المدينة جهة شارع "جون كينيدي" لندخل جامعة "سانت بطرس". لا أعرف من هو الرجل الذي دخل

مكتبه السيد جيمسون ولكنه قبل أوراقي وهو يبتسم لي وأنا أجلس على كنبة بعيدا عنهما.

"يريد لك السيد جيمسون أن تدخل كلية الإدارة وأريد لـــك كلية العلوم أو الهندسة".

قال لي الرجل. قلت بهدوء

"كما يرى السيد جيمسون وأنا أيضا أريد الإرادة"

و لم يكن ذلك صحيحا ولكني أردت ما أراده السيد جيمسون الذي قال وكأنه يتحدث عن وريثه الذي أنجبه

"سأحتاج إليه في إدارة أعمالي، بدلا من توظيف شخص مؤقت من الأفضل تنشئة إبن دائم".

وغادرنا المكتب وأنا أحمل رقماً جامعياً وبطاقة جامعية ومازال في محفظتي رقمي العسكري وبطاقة هويتي العسكرية. كانت الســـيدة كاثرين تنتظرنا لترافقنا في المشوار الذي جعلني رسميا ابنا لهما. وقـــع السيد والسيدة مجموعة من الأوراق أمام أحد القضـــاة واســـتخرجا وثيقة التبني لأحمل اسمي الجديد ووثائقي التي بدأت تصل عبر البريـــد وكأنها ترسم شخصيتي وكياني المستقبلي. كـــان علـــي أن أمتثـــل لطلبهما وأنادي السيد والدي والسيدة والدتي وأعيش ابنا في البيت لا ضيفا كما توقعت. أثثت غرفتي: سرير ومكتب ومكتبة على أرففها كتب عربية رافقتني الرحلة وفوقها وضعت سجادة صلاتي يعلوهـــا القرآن الكريم وتلفوناً خاصاً بـــي هاتفت منه منزل خالي ضـــيدان وردّت نجمة لتقول إن أمي ليست هنا الآن وخالي في البر مع أغنامه، تركت رقمي معها وطلبت منها أن تخبر أمي بأني أريد أن أكلمهـــا ولكنها بكت وأنهت المكالمة.

انتظرت طويلا أن يتصل خالي ضيدان أو أمي و لم يتصل أحد. لا أعرف أي رقم يربطني في الكويت سوى رقم منزل خالي وهو يعاقبني لأنني لم أكن مثله. اتصلت مرة أخرى لترد نجمة وقبل أن أسألها بكت. قالت إن أمي ماتت. تمنت لي عمرا طويلا وأغلقت الهاتف. لم أخرج من غرفتي لأيام طويلة و لم أبك. لم أكن أعرف كيف أبكي. لو كان حزني على موت أمي فقط لربما بكيت. ما يمنعني من البكاء إحساسي بأن أمي قتلت دون أن يشير أحدهم للقاتل. حاولت كاثرين وجيمسون أن يخرجاني من هذا الحزن بما يحفظانه من كلام.

"أنت لست حزينا على أمك". قالت كاثرين "أنت غاضب".

"حين تغضب لا تعود أنت الشخص ذاته تتحول إلى كائن آخر كائن لا يستطيع البكاء".

قال جيمسون. ثم أخذني من يدي إلى الخارج.

"تستطيع أن تذهب لأسرتك إذا تريد، سأجهز لك كل شيء"

"لم يعد لي أسرة، أنتم أسرتي".

حين احتضنني أحسست بأنني الآن فقط فقدت أمي ووطني إلى الأبد.

في اليوم التالي دخلت أمي كاثرين غرفتي وعلقت صليبا في غرفتي

"ستكون محظوظا إذا أحبك الله ومحمد والمسيح"

لم أمانع. استمر الصليب معلقا على الجدار فوق الرف الذي أضع عليه المصلّى والقرآن حتى بدأت أعلّق على جدران الغرفة صور BEE GEESوABBA وفرقEagles وAC/DC وكل بوستر لحفلة

أسمعها أو تعرفني عليها "سيمون" التي دخلت حياتي كعاصفة لم أملك أمامها سوى الاستسلام كليا. حين دخلت غرفتي للمرة الأولى بعد سنة من علاقتنا الصاخبة ومارسنا الحب وضعت المصحف والمصلى والصليب في درج المكتب وأغلقته بإحكام.

سيمون دي دانيال

في سبتمبر 1980 دخلت المحاضرة الأولى في الجامعة. كانت السيدة كاثرين قد أمضت بطريقة غير مباشرة إثراء لغتي ونحن نعيش في القبة الزجاجية أغلب النهار ونقتسم شموس الربيع ولغة بدأت أحبها أكثر. وكان حديث السيدة كاثرين ككتاب بشري. قالت إنها عاشت أمجادها الحقيقية ككاتبة مسرحية عرضت لها مسارح "برودواي" العديد من أعمالها. هذه القبة الزجاجية هي منجم لا يمكن تقدير الجواهر الأدبية فيه. تمت أرشفة كل قسم بطريقة مبتكرة حسب سنة الإصدار وكل سنة تم تقسيم كتبها حسب عناوينها، كذلك وزعت الأفلام وألبومات الأغاني والمجلات الفنية. أخذتْ كاثرين مجلة مصورة من ركن المجلات وفتحتها سريعا على صفحة بعينها، توقعت أنها تفعل ذلك كل يوم، كانت صورتها ولقاء معها.

"جميلة أنت"

"تقصد كنت جميلة"

"مازلت جميلة"

"اقرأ اللقاء لتعرف شيئا عن أمك الجديدة".

كان الشرط الذي وافقت عليه لبقائي وحيدا في القبة الزجاجية هو أن أعيد كل شيء إلى مكانه وألا أكتب أي ملاحظة على الكتب

وإنما في دفتر خاص قدمته لي. بدا الوضع هنا يختلف تماما عن صندوق كتب خالي ضيدان.

في صباح يوم خريفي وقبل أن أغادر البيت طلب مني السيد جيمسون أن أزوره في الشركة بعد الانتهاء من محاضراتي. لم أفكر بما سيمكن أن يطلبه مني السيد جيمسون. توقعت أنه سيطلعني على مكاتب الشركة ومصنعها. أدخلني رجل الأمن إلى مكتبه في الإدارة وكان السيد جيمسون رجلا آخر غير جيمسون في البيت. لم يبتسم في وجهي أو يرحب بي. انتظرت طويلا حتى رفع نظره إلي

"ستعمل معي في الشركة في أوقات فراغك، سأحدث المسؤول عن الأمن ليرتب ساعات عملك حسب جدولك الدراسي. سنصرف لك ثلاث دولارات وعشر سنتات وهو الحد الأدنى للأجور".

وحين صمت قليلا عرفت أنه ينتظر ردي

"لا بأس. هذا جيد"

"أنا هنا لست والدك وفي البيت لا أناقش العمل مطلقا. أريدك أن تعرف كل شيء لوحدك"

"حسنا سأفعل ما تريد"

اصطحبني رجل بملابس الأمن إلى رجال الأمن في مدخل الشركة وأبلغني أن عملي سيبدأ من يوم الغد على أن أزور شركة الأمن لاستلام ملابسي وعدة الأمن اللازمة. خرجت وأنا أبتسم. كان ذلك يشبه الأيام الأولى في معسكر الجيوان مع الكثير من الرأفة.

كنت أعمل لست ساعات يوميا عدا السبت فأعمل لثمان ساعات صباحا ولا أعمل أيام الآحاد حيث أبقى وحيدا فيما يذهب

والداي إلى الكنيسة. وأنا أقول عنهما والديّ لكنني لم أدع أي منهما بذلك إلا بعد تخرجي من الجامعة.

أمضيت السنة الأولى وأنا موظف في الأمن منفذا تعاليم مسؤول الأمن ولا أتذكر أنني دخلت مكتب والدي ولم نتبادل حديثا وهو يدخل المبنى أثناء وجودي على الباب الرئيس للشركة. وأتخيل أنه يبتسم لما أفعله. تلك الوظيفة التي أغلقت حياتي الجامعية فلم أشعر بأنني أحد الطلبة الذين يتسكعون ليلا في نهاية الأسبوع في أزقة نيويورك ويدخنون الحشيش والماريجوانا في زوايا شوارعها. لم يحدث ذلك حتى زيارة "دي دانيال" لبيت العائلة. أعود من الجامعة والعمل متعبا وأتجه مباشرة للمطبخ حيث تترك جلوريا عشائي في الفرن. جميعهم ينامون في التاسعة مساء ويسهرون ليلة السبت حتى منتصف الليل. جميعهم ساعات متقنة الصنع.

كان ذلك في ربيع 1981 ذهبت سيارة الشركة ووالدتي لاستقبال عائلة "دي دانيال" وطلب مني أبي أن أستأذن من مسؤول الأمن للبقاء في البيت واستقبالهم. كنت أجلس في الحديقة الخلفية وأتأمل أشجار الغابة تحيط بها، وطيورها كأنها خلقت للتو بعد رحيل شتاء لا يشبه أي شتاء أعرفه، سمعت صوت جلوريا تنادي أن أدخل لأستقبل الضيوف. لم يكن الضيوف سوى زوجين وابنة وحقيبتين حملتهما جلوريا إلى جناح الضيوف.

"هذا ابننا رومي"

قالت أمي كاثرين للضيوف.

"هذا السيد دانيال والسيدة فاليري وهذه الجميلة هي سيمون دي دانيال".

موجهة كلامها لي وكأنها غمزتني أو شبّه لي.

سيمون دي دانيال فتاة جميلة بعض الشيء، أنيقة أكثر مما ينبغي وهي أناقة تخلصت منها بعد رحيل والديها وبقائها لتمضي الصيف معنا. اصطحبت أمي الضيوف إلى جناحهم وهو جناح مغلق لم يفتح منذ وصولي و لم يقم فيه أحد. ثم عادت لتطمئن على ترتيبات المائدة التي تشرف عليها جلوريا وفتاة سمراء تعمل بشكل مؤقت.

رائحة الديك الرومي تذهل العقل. كان بحجم خروف صغير من خراف خالي ضيدان. المرة الأولى التي أكلت فيها ديكا روميا كانت في عيد الفصح ووددت لو رأيته حيّا.

"لقد انتهى عيد الفصح سيدة كاثرين"

قال السيد دانيال وهو يجلس على المائدة بجوار زوجته وأمي كاثرين بينما جلست بجوار سيمون قبل أن يدخل أبي جيمسون ويجلس على رأس المائدة بعد أن رحب بالضيوف سريعا وكأنه سيخرج ثانية.

"ماذا تفعل يا رومي؟"

سألني السيد دانيال ونحن نتناول الشاي في الحديقة الخلفية.

"أدرس وأعمل".

"جميل ستكون أمريكيا حقيقيا".

وعلق أبي

"رومي إنسان طيب ومخلص ولا أعرف إن كانت هذه صفة الشباب في أمريكا اليوم".

"الشباب في كل بلد لهم ثورتهم ثم يعودون إلى واقعهم حين يستلمون المهمة الحقيقية".

التفت والدي إلى سيمون التي تجلس إلى جوار السيدتين

"لم تعد الفتيات بهذه الأناقة اليوم، أعتقد أنهن يكـــرهن حـــتى الاستحمام"

صرخت أمي به "جيمي" واتسعت حدقتاها غضـــبا لم يعـــره أبـــي اهتماما.

"هذا ليس عمليا في كل حين"

قالت السيدة فاليري وكأنها تدافع عن ابنتها حين لا تكون بهذه الأناقة.

"أفهم سيدتي ولكن سيمون تدرك بأن كل مناسبة لهـــا زيّهـــا الخاص بها هذا ما لم يفهمه الشباب، لقد توقفوا عن الذهاب لصـــلاة الأحد".

"هل تذهب لصلاة الأحد يا رومي؟"

قال السيد دانيال

"لا أنا مسلم أصلي في غرفتي وفي مصلى قريب من هنا كل يوم جمعة"

"إنه شاب متدين وهذا ما أعجبنا به وقررنا أن يعيش بيننا".

قالت أمي

"الأديان متشابهة، أليس كذلك يا رومي؟"

قال السيد دانيال

"حتى وإن اختلفت فإن الله واحد ياسيدي".

قلت وهز السيد دانيال رأسه

"ربما كنت على حق"

التفتت أمي إلي وهي تقول:

"خذ سيمون إلى القبة الزجاجية. واتركوا حديث الأديان للكبار"

نهضت برفقة سيمون وكأني سمعت والدها يقول لوالدي

"أظنه أكبر من أن يتبناه أحد"

و لم أستمع لرد والدي عليه. لم يكن يهمني.

دخلنا القبة الزجاجية وجلست سيمون على كرسي. مدت رجليها على المسند الصغير أمامها. وقبل أن أسالها إن كانت تريد أن تشاهد فيلما أو عملا مسرحيا سألتني

"هل تؤمن حقيقة بأن هناك إله"؟

"طبعا. وسأؤمن بك إذا أثبت لي أنك من منحني الروح".

أرجعت رأسها للوراء

"هذا منطق العجائز هناك. أما منطق جيل العلم فهو مختلف. إن الروح ليست موجودة؟ هي اختراع بشري. كالإله."

"بالتأكيد موجودة، لا نعرف شيئا عنها ولكنها موجودة وتغادر جسد المرء بعد الموت".

"بالضبط وأنت لا تعرف شيئا عن الإله ولكنه بالنسبة لك موجود. موجود لأنك فشلت في معرفة الحقيقة فركنتها للوهم".

فضلت أن يقف النقاش عند هذا الحد فلسنا على صفحة واحدة.

"سأختار لك فيلما أعجبني".

لكنها نهضت من مكانها

"سأختار لك أنا فيلما"

مدت يدها إلى فيلم مصنف تحت عام 1979 بعنوان القيامة الآن. أطفأت الأنوار ثم تخلصت من جاكيتها بحركة أنيقة وجلست

على الكنبة حيث أجلس. كان الفيلم قاسيا وطويلا وممتعا وتوقعت أنها اختارته تبعا لحوارنا قبل قليل، ولكنني لم أجد رابطا حقيقيا أو أنني لم أفهم.

"إن الله هو القوة على الأرض يفرض أحكامه بسلطة هذه القوة، تماما كما ترى. إنها أنتم يوماً ما وأوروبا يوماً آخر وأمريكا اليوم. إنه متجدد كما توحي القوة".

"هذه رؤية بشرية لله وليست منطقية"

"لا عليك. لا أريد أن أزعزع إيمانك ولكن لماذا حروب المؤمنين أشد قسوة من غيرها؟"

و لم أرد، فأكملت

"لأنهم لم يتفقوا على حقيقة وجود الله والإيمان به".

نهضت لأفتح زر النور وأعادت سيمون الشريط إلى مكانه السابق.

"أريد أن أذهب معك لمانهاتن مساء غد"

"سأنهي عملي في الرابعة، لا بأس"

قبّلت خدي بحركة آلية وذهبت لغرفتها وغادرت لغرفتي.

لم تترك لي دراستي وعملي المرهق مساء في الأمن فرصة للتعرف على فتاة في الجامعة وربما أيضا كنت لا أرى نفسي قريبا من أي منهن كانت سيمون الفتاة الأولى في حياتي وأشعر برغبة كبيرة في البقاء معها. كانت نظرتي الأولى أنها فتاة ملحدة لا تمانع في ممارسة كل فعل إباحي. حين غادر ذويها فضلت هي البقاء لقضاء الصيف هنا. رحبت بذلك أمي وكأنها تستبقيها لأعرفها أكثر. أمضينا ثلاثة أشهر وهي توزع وقتها في المكتبة العامة نهارا وتنتظرني حتى أنهي

عملي لنستقل القطار حتى محطةPenn في قلب مانتهاتن. ونعـــود في القطار الأخير في الواحدة فجرا. سيمون تقرأ كثيرا وذلـــك يجعلـــها تهزمني في كثير من نقاشاتها حول الدين والسياسة والفلسفة الـــتي لا أفقه منها شيئا. ورغم أنها في السنة الأولى إلا أن مكتبتها العامـــة لم تكن صندوق خالي ضيدان في ركن الديوان. كانت تجيـــد لغـــتين بطلاقة وتتحدث الإسبانية والإيطالية بإتقان أقل.

أصبحت سيمون معلمتي الجديدة وهي تـــنقلني مـــن كتـــاب وجودي إلى آخر ماركسي لأكتشف أنني صفحة بيضاء تكتب عليها فتاة في مثل سني تعاليمها الجديدة. كان كتابها لا يفارقها. تقرأ ونحن في القطار ونحن في المطعم لا تحدثني كثيرا وتكتفي بأن تضع رأســـها على كتفي أو تنام على فخذي وقد غطت وجهها بكتاب.

توقعت أن سيمون مثقفة ومنحلة في الوقت ذاتـــه، ولكـــنني لم ألحظ عليها سوى أنها فتاة تعرف كيف تستمتع بحياتها دون أن تفقد كبرياءها كأنثى. لم يقترب منها أحد ولم تقترب من أحد طيلة بقائها معنا.

في الليلة الأخيرة قبل سفرها استوقفت شاباً أســـود في شـــارع برودواي. بهدوء مدت له ورقة نقدية وسلمها سيجارتين تم لفهمـــا يدويا. سحبتني بسرعة إلى زاوية بعيدة وجلست على الأرض مسندة ظهرها إلى حائط ومدت رجليها إلى الأمام ملقيـــة قـــدمها علـــى الأخرى. أشعلت السيجارتين معا، سحبت واحدة بإصبعين وتركت الأخرى بين شفتيها.

"دخّن!"

"أنا لا أدخن"

"وأنا لا أدخن. هذه حالة خاصة لأحتفل بك وأودعك معا".

"دخّن!"

كان طعم السيجارة غريبا. توقعته يشبه دخان خالي ضيدان أو تمنيت أن يذكرني بخالي ضيدان. كان غريب الرائحة خفيف الطعم كأنه حشائش مجففة. لم أستسغ طعمه في البداية ولكنني دخنت السيجارة كاملة وعدنا إلى محطة القطار خفافا كأنما تجردنا من ثقل أرواحنا.

تركت سيمون أجمل ثلاثة أشهر عشتها حتى الآن معلقة بين الواقع والحلم. سافرت في الصباح. رافقتها لمطار JFK الذي أراه للمرة الثانية وقبلتني وهي تقول بمايشبه الصمت "أحبك". بقيت رسائلنا المتبادلة وسيلة تواصلنا وأحيانا اتصال كل أسبوع أو أكثر. ومتى ما نسيت اتصالي بها لسبب ما ذكرتني به والدتي وكأنها ترعى اشتياق عاشقين.

عدت إلى حياتي الطبيعية وقد تركت سيمون عليها حبي لقراءة كتبها وأسماء مؤلفيها وكتّابها، يساعدني في ذلك عملي في الأمن مساء والذي يغلفه الليل بالملل الطويل. كنت أشتاق لأحاديثنا بالفرنسية وهي تضحك كثيرا على لهجتي الخشنة. أنهيت العام الثاني وأنا أتوق لوعد سيمون الذي أبرّت به وعادت لزيارتي في الربيع التالي دون عائلتها هذه المرة.

"سأبقى معك هنا؟"

قالت لي وهي تمسك بيدي وكأنها تبقي حياتها بين يدي

"وجامعتك هناك؟"

"انتقلت إلى جامعة نيويورك سأسكن هناك وهنا".

في تلك الليلة مارسنا الحب في غرفتي ورافقتها في الصباح إلى نيويورك.

أمضيت سنوات دراستي وأنا أنتقل من عمل إلى عمل في المؤسسة. وفي السنة الأخيرة طلب مني أبي أن أعمل مع مدير الإدارة على ألاّ أتدخل بشيء. وكان الرجل يعلمني دون أن أشعر بأنني متدرب على يديه. أنهت سيمون سنوات دراستها في الوقت الذي تخرجت أنا فيه وفي حفل تخرجها طلبت من والديها أن يوافقا على زواجنا. أصرّ والداها وأهلي أن يقام زواجنا في كنيسة، ولكنني رفضت لبقايا ارتباط بديني ورفضت سيمون لأنها مؤمنة بعدم الإيمان في دين أيا كان هذا الدين. استسلمت العائلتان لطلبنا وأقمنا حفلاً صغيراً في المنزل حضره بعض الأصدقاء.

في اليوم التالي عرفت أن أبي عينني نائب المدير واستأجر لي شقة في وسط المدينة أثثتها المؤسسة. عملت سيمون مساعدة باحث في جامعتها حتى أنهت رسالتي الماجستير والدكتوراة. في غداء الأحد حيث اعتدنا أن نجتمع في منزل العائلة اقترح والدي أن أرحل إلى باريس في عام 1987 لإدارة فرع المؤسسة هناك.

كانت باريس هذه المرة كامرأة مكتملة الأنوثة. أشعر بمتعة شوارعها وأزقتها ومقاهيها. رافقتني سيمون لنزور سيرجي بونتواز بحثا عن فرزاد وأليسون ولكنني لم أعثر عليهما. قال الحارس بأن فرزاد هاجر إلى كندا وأليسون تركت البناية دون أن تحدد وجهتها.

لم يدم ربيع باريس طويلا. طلب مني أبي في عام 1990 أن ننهي أمور الفرع ونغلقه وأن أنتقل إلى لندن. رفضت سيمون أن تنتقل معي وطلبت مني أن أبقى معها في فرنسا وأترك عائلتي.

- هذه ليست عائلتك. كنت ذكيا حين اغتنمت فرصة الهرب معهم وعليك أن تكون ذكيا باغتنام فرصة بقائك هنا.

لكنني رفضت

- لا أستطيع أن أعيش هذا الشعور القميء بعدم الولاء. أمريكا وطني الأول وجنسيتي الأولى وجامعتي الأولى وهذه عائلتي.

وافترقنا بحب ومازال لدي أمل أن تأتي في أي لحظة.

زيارة رسمية جافة

في أبريل من عام 1990 دخلت الكويت لأول مرة. كنت في مهمة عمل مع فريق من مصنع "مكدونيل دوجلاس" والذي نزوده بأجهزة الملاحة الجوية. لم تتغير الكويت كثيرا بعد عشر سنوات من رحيلي عنها. في المساء الأول طلبت سيارة تاكسي للشعبيات الجديدة وتحديدا منزل 174 في القطعة الرابعة. تغيرت المنازل كثيرا. أضافت الناس مبانٍ من الصفيح أمام وخلف بيوتهم وكأن نوستالجيا العشيش تضرب في خلايا أدمغتهم. لم يتغير منزل خالي ضيدان، ربما لم يكن بحاجة لأكثر من حمّام خارجي للضيوف. ليس في البيت سوى نجمة ولا تحتاج لأكثر من غرفة نومها ومطبخها.

كان خالي يجلس في الديوان حين طرقت الباب.

"من؟ من؟"

وشعرت كأن بابه لم يطرق منذ سنين وأنه في ديوانه لم يخرج منذ تركته

"أنا رومي ياخال"

وسمعت حركته العنيفة وهو يتجه نحو الباب ويصرخ بنجمة أن تأتي وبي أن أدخل حين دخلت رأيته يحبو على أربع وقد توقف في منتصف الديوان و لم يستطع أن ينهض. سقطت فوقه. كان صدره يرتج من النشيج و لم يستطع أن يبكي. يبس وجهه وجحظت عيناه

وانفرجت شفتاه وكأنما أصابه شلل مؤقت. مرت دقيقة دخلت فيها نجمة واحتضنتني وهي تصرخ صراخا يليق بالفراق لا باللقاء. انتبهت أن خالي ضيدان قد يبس في مكانه فرفعته معي كي ينتصب، حينها فقط أجهش بالبكاء وهو يحتضنني. وحين أمعن النظر في وجهي رأى أنني لم أنفعل كثيرا لهذه المشاعر فأطرق رأسه كمن يلوم عفويته ولهفته السريعة تجاه رجل جاحد.

لم نتبادل حديثا. خرجت نجمة لتعد شيئا. وكان يحدق طويلا في عينيّ ثم سألني

"لماذا لم تعد كل هذه السنين؟"

"أخذتني الحياة"

"ولماذا تركتك الآن؟"

"لم تتركني. أنا هنا في مهمة عمل مع القوة الجوية. أنا حاليا مدير مؤسسة مهمة تعمل مع شركات الطيران، كيف حالك أنت؟"

"ربما كنت على حق. لا تسألني كيف أنا. أنا هو أنا منذ تركتني"

"كنت سأسألك أين الفورد الأحمر؟"

"هل تذكر عبّار شريكي؟ يستعملها عبّار حتى الآن"

"لماذا لم ترد على مكالماتي و لم تكلمني"

"لأنك قتلت أختي. أختي التي كنت على استعداد أن أقتلك لو رأيتك يوم وفاتها"

"سامحني. لقد سامحتك بأبي"

"أنت مجنون".

ودخلت نجمة بصينية فقيرة فوقها ما وجدته في مطبخها من حلويات وإبريق شاي وسكتنا. لم نتحدث طويلا. كأن السنوات

التي مرت زمن توقف لا أحداث فيه.

يجب أن أذهب سائق التاكسي ينتظرني وحين نهضت نهض وعانقني

"هل ستأتي ثانية؟"

"سأفعل قبل سفري بعد ثلاثة أيام"

حاولت ألا أنظر في عيني نجمة. وخرجت.

كنت أعرف المكان الذي نجري فيه اجتماعاتنا وربما أعرف بعض الوجوه ولكنني حاولت ألا أتعرف على أحد وألا أتكلم العربية.

"أنت عربي؟"

سألني أحد أعضاء الفريق الكويتي بالإنجليزية

"أنا أمريكي!"

وسكت الرجل ولكنه همس لزميله

"صدقني عربي وربما من البدون الذين أرسلناهم ليتدربوا في هذه الشركة".

"هل تعرفه؟"

"لا"

وانقطع الهمس بينهم.

المدة القصيرة التي قضيتها في هذا المعسكر لم تتح لي فرصة التعرف إلى أحد، رغم إحساسي بأنني شاهدت أحدهم أثناء وجودي هنا. أمضينا ثلاثة أيام في المحادثات وفي اليوم الأخير تمت دعوتنا لحفل عشاء في نادي الضباط تبادلنا من خلاله الدروع والهدايا. ونحن نغادر المكان لنستعد للسفر غدا اقترب مني الضابط الذي كنت أشك بمعرفتي له.

"أنا عرفتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. لقد فعلت حسنا".

" عمَّ تتكلم؟ أنا لا أعرفك".

"أنت لا تتعرف علي ولكنك تعرفني".

"فرصة سعيدة علي أن أذهب"

ومضيت في سيارة الوفد إلى الفندق ومن هناك أخذت تاكسي لكي أمضي الليلة مع خالي.

كانت جلسة حميمية هذه المرة، تحدثت فيها نجمة أكثر مما تحدثنا أنا والخال ضيدان معا. رأيتها أمًّا ثانية صغيرة لي. رغم اقترابنا في السن. تحدثت عن أمي كثيرا وبكت أكثر من مرة أثناء حديثها وكنت أتابعها مبتسما مفتونا بحركة يديها النحيلتين وكأنها تتحدث بهما.

أشار لها الخال أن تنهض بغمزة من عينه وغادرتنا دون أن تتلكأ. كنت أفضل بقاءها كحاجز وهمي بين عتاب الخال وتبريري لما حدث. ولكنه لم يعاتبني كثيراً قال لي

"فكرت بعد زيارتك قبل أيام بأنني كنت سأفعل الشيء ذاته لو سنحت لي الفرصة".

"كنت أتمنى أن تعيش تجربة مماثلة. سيمرّ على هذه البيوت سنين وتعود خشباً وصفيحاً كما كانت. لن يلتفت إليها أحد".

نهض الخال وأحضر لي مغلفاً خاكي اللون

"ماهذا؟"

"هذه رواتبك التي استلمتها في غيابك"

تناولت المغلف وناديت نجمة التي وقفت بباب الديوان

"هذه هدية لك لم أعرف ماذا تحبين"

نظرت إلى الخال الذي بقي منكسا رأسه لفترة ثم أشار لهـــا أن تقبل.

"أريد مجموعة كتب من مكتبتك. لم أقرأ بالعربية من سنوات"

"اختر ماتريد. أما زلت تجيد القراءة؟"

"بالتأكيد وباللغات الثلاث"

"أرى أنك تبدو شخصا مهما"

اخترت خمسة كتب. وخالي يبتسم. يبدو أنها أثيرة لديه. لكنـــه لم يمانع.

طلبت منه أن يوصلني للفندق وأن نمر بطريق "مَسْطَر الجيوان".

"وماذا سترى في الليل؟"

"لا يهم فقط أريد أن أراه من بعيد. لقد كنـــت في معســـكر سلاح الطيران في الأيام الماضية و لم أشعر بعلاقتي في المكان"

رأيت مدينة صغيرة قد أنشئت على يمين الطريق قبالة المعســـكر وتمت إزالة المطعم الهندي الصغير.

"أين المطعم الهندي؟"

"لم يعد هناك مسطر ولا جنود جدد أوقفوا تسجيلهم بعد سنة من رحيلك".

"سيحتاجونهم قريبا"

"لماذا يحتاجونهم؟"

لم أرد حتى وصلت الفندق وعانقت الخال

"انتبه جيدا في الأيام القادمة"

وافترقنا. عرفت أنه لم يفهم وليس لي أن ألومه.

عدت إلى أمريكا لأزور عائلتي، كان والدي تعبا بعض الشيء. رافقته للمستشفى للاطمئنان عليه وفي طريق العودة أخبرني بأنه ترك لي ثلث التركة وثلثين لوالدتي. طلب مني أن أعود لفـــرع الشـــركة الرئيسي في حال عجزه عن مباشرة العمل.

"ستكون بخير. اطمئن"

كانت والدتي غاضبة من فراقي لسيمون و لم أجد ما أبرر به ما حصل و لم أخبرها بما طلبته مني. قبلت جبهتها وعدت إلى لندن.

وادٍ غير ذي زرع

في الثاني من أغسطس 1990 اتصلت بمنزل خالي ضيدان وردت نجمة قالت بأنه خرج منذ ليلة البارحة و لم يعد حتى الآن وأن البلاد تجتاحها الجيوش العراقية. كانت خائفة وترتعد وطلبت منها أن تذهب لذويها وأن لا تبقى لوحدها، لكنها رفضت. قالت لن تترك بيتها حتى يعود.

حاولت أن أتصل بالخال ضيدان في الأيام التالية ولكن الهواتف عُطّلت. ليس لي هناك ما أخاف عليه، التاريخ الصغير الذي أملكه كان مكتوبا على الرمال. لم يقاوم هذه الرياح التي عصفت بي لأعيش أجمل أيام عمري. عشرة أعوام هي كل حياتي. ما قبلها كان مخاضاً عسيراً ومؤلماً ولا أريد أن أتذكره أو أشعر بالحنين إليه.

حالة الترقب التي أعيشها لم تكن تراودني من قبل، فالخال ضيدان هو آخر كائن حي أنتمي إلى سلالته بعد اختفاء أقرباء والدي قبل أن أتعرف عليهم. لم تكن لي طريقة لأعرف أي شيء عنه. عرفت أن أغلب الناس هاجرت إلى دول الخليج وإيران وليس من وسيلة لأعرف أين هو ونجمة الآن.

كانت المؤسسة تحقق أرباحا طائلة أثناء هذه الأزمة وكاد ذلك يشغلني عن خالي ضيدان. أعمل من الصباح حتى المساء أتناول وجبة سريعة وأرجع لشقتي مرهقا أفكر بعمل اليوم التالي.

في منتصف شهر أكتوبر تقريبا من عام 1990 جاءتني مكالمة من نجمة. كان الرقم من السعودية.

"خالتي نجمة"

كنت أسميها نجمة في السابق ولكنها تقدمت في المكانة دون أن تتقدم علي كثيرا في العمر.

"خالك ألقي القبض عليه وهو في العراق الآن، وربما سيعدم في أي وقت"

"لا يعدمون الأسرى في الحرب"

"لم تفهم، خالك ليس أسيرا.. خالك متهم بتهمة لا أعرفها، يقولون يمكن أن يعدم"

"والعمل"

"تعال رومي! أنا خائفة"

"سأحاول.."

أشغلتني نجمة بوحدتها في بلد لا تعرف عنه شيئا أكثر من قلقي على خالي ضيدان الذي أثق بأن بإمكانه أن يتعرف على الموت ويتصادقان كما فعلا كثيرا من قبل. الذي سيفتك بخالي يجب أن يكون نقيض خالي ضيدان، أن يكون رقيقا ناعما لاعنيفا يجابه عنفه فيفشل.

أجريت محادثة مع والدي في أمريكا وردت أمي لتقول أنه في غيبوبة في المستشفى. كان يجب أن أذهب لأراه قبل التفكير في موضوع خالي ضيدان ونجمة. لا أشعر أنني ممزق بين أمرين، سيبقى والدي الميت الحي أولى بأن أراه أولا. حين وصلت المستشفى كانت أمي في الجناح وحيدة تحتضن حقيبتها وتضع منديلها أمام عينيها. حين رأتني مدت يدها

"لقد رحل.. رحل".

احتضنتها وبكت. أنهيت مراسم عزاء والدي، احتفظت أمي بقارورة رماده، وضعتها على رف في المكتبة الزجاجية

"حين أموت اجمع رمادنا وانثره في نهر هاديسون وليأخذه النهر إلى المحيط حيث التقيت أباك أول مرة".

طلب المحامي لقائي وطلبته أن يؤجل الموضوع حتى أعود من مهمتي القادمة.

قررت أن أذهب للرياض، لم يكن في بالي سوى أن أعرف ما الذي حدث لخالي وليس لدي أي حيلة أو خطة لإنقاذه. اتصلت بنجمة وأخبرتها أنني قادم وطلبت عنوانها. اتصلت بمدير البنك الذي تتعامل معه مؤسستنا في الرياض وحجز لي جناحا في فندق انتركونتينتال. وأرسل لي سائقه للمطار.

كان الجو العام مضطربا، الحرب قادمة لا محالة. لا أجد نفسي فيها سوى بائع أجهزة ملاحة. قال لي السائق بأن مدير البنك يريد أن يلتقيني على العشاء بعد أن أرتاح.

"هل تستطيع أن تأخذني إلى هذا العنوان؟"

"الآن ياسيدي!"

"الآن بعد أن أضع حقيبتي وأغتسل"

"لا بأس"

كانت نجمة تقيم في منزل بمنطقة النسيم في الرياض مع أسرتها. عرفت أن خالي كان هنا وأنه غادر بيته دون أن يخبر نجمة عن وجهته. لم تكن هناك معلومات كافية يمكن أن نعتمد عليها لكن شقيق نجمة اقترح أمرا غريبا

"يستطيع عبّار أن يوصلنا إلى العراق"

"كيف؟"

"عبّار شريك خالك ولديهما أغنام يربونها في العراق ويبيعونهـــا على الحدود السعودية العراقية".

"وكيف نصل إليه؟ وماذا يمكنه أن يعمل؟"

سألت نجمة، وهو ما كنت أريد أن أسأله

"ندبر مبلغاً كبيراً من المال يستطيع عبّار أن يرشي به الضـــباط العراقيين"

كانت الفكرة مضحكة بعض الشيء ولكن أحببت الجزء الأول منها وهي أن ألتقي عبّار الذي أحاول أن أجمع صورته مـــن خلايـــا متعددة في ذاكرتي ولا أستطيع سوى رسم غطاء الرأس المزدوج مـــن كوفيتين بيضاء وحمراء وخليط من روائح غامضة.

"من يستطيع أن يوصلنا لعبّار؟"

"نحتاج رجلا يعرف الصحراء"

قالت نجمة نيابة عن أخيها

"ومن هو؟"

و لم أتلق إجابة من أحد.

نهضت وليس في ذهني شيء ولكنني سأبحث عن هـــذا الـــدليل الصحراوي وسأجده.

في المساء التقيت مدير البنك، كانت تلك المرة الأولى التي ألتقي فيها الرجل. كان شخصا لطيفا جيد الحوار يجيد الإنجليزية بطلاقـــة مذهلة وكأنه خلق بها.

"هل لديك عمل هنا؟ أم زيارة في هذا الوقت العصيب؟"

"لا لدي مهمة غامضة لا أعرف كيف أقوم بها"

"يمكنني مساعدتك فيها؟"

أخبرته عن سبب مجيئي وعن خالي المحتجز في العراق بتهمة عقوبتها الإعدام.

"أريد مليون دينار عراقي وشخصاً يعرف الصحراء الشمالية جيدا"

"لدي موظف من المنطقة الشمالية، سأرسل لك السائق غدا لتزورني في البنك وتلتقيه وسأدبر لك المليون دينار أيضا"

ربما الأمور تسير نحو انفراج.

في الصباح التقيتُ الشاب الذي طلب مني أن يأخذني إلى ذويه في حفر الباطن ومن هناك يصطحبني خاله الذي يعرف المنطقة كراحة يده. أخبره المدير أنه في إجازة حتى نعود معا إلى الرياض وطلب منه أن يهتم بسلامتي جيدا وضحكت.

سلمني مدير البنك حقيبة بمليون دينار عراقي من رصيدنا لديه ومبلغا من المال بالريال السعودي طلبته منه. وجهز لي سيارة لاندكروزر.

"شكرا لك، قدمت أكثر مما أطلب".

"أنتم عملاء مهمّون لدينا وهذا أقل ما يمكن تقديمه".

"سنكون أصدقاء"

صافحته وغادرت مع الشاب إلى حفر الباطن. في الطريق أخبرني أن اسمه نايف وشكرني لأنه سيرى أهله دون إجازة رسمية بسببي. قلت له لا ستكون مرافقي طيلة البحث عن رجل اسمه عبّار في الصحراء. وابتسم كمن يسخر مما أفعله، وربما كان معه حق.

وصلنا حفَر الباطن بعد توقفات بسيطة ودخلنا مجلس الرجال في منزل الشاب نايف الذي أرسل شقيقه الأصغر ليدعو خاله إلى البيت. أحضر الشاب شايا وصنع قهوة شمالية أمامي ذكرتني بقهوة الخال التي يحبها مُرّة كأيامه.

حضر خال نايف وكان رجلا باسق الطول جميل المظهر الخارجي يده اليسرى تتحرك بطريقة غريبة وكأنها تتحاشى عصا مدرّس. ابتسم بوجهي وقدم لي نفسه وهو يحافظ على بسمته.

"معك ذيب البرّ أبو ضاري"

"أهلا وسهلا"

جلس إلى جواري يفصلنا مسند مربع الشكل من السدو حاول أن يضع يده اليسرى عليه وفشل مرتين ثم نهض ليجلس على مسند آخر. الوضع يوحي بأن أترك هذه المهمة السخيفة وأعود إلى الرياض لكن الرجل بادرني بسؤال عن الشخص الذي أبحث عنه.

"اسمه عبّار ولا أعرف أكثر من ذلك"

"عرفته هذا عبّار الرويعي"

"لا أعرف قبيلته"

"لا هذا لقبه، تصغير الراعي، ولدته أمه راعيا وعاش راعيا وسيموت راعيا"

وأكملت عنه

"وسيبعث راعيا"

ضحك لوحده واهتزت يده اليسرى أكثر. كان الدخان قد ترك له أسنانا بنية اللون مُضحكة لا تجيد الضحك.

"هل أنت متأكد أنه هو"

"ليس في البرية رجلا بهذا الاسم غيره"

"وكيف تعرف ذلك؟"

وضحك ثانية كمن يثير الرعب من حوله ولـــيس المـــرح. رد نايف كمن يمدح خاله

"لو لم أكن واثقا ياسيد رومي من قدرات خالي لما غامرت أمام مديري وقبلت هذه المهمة".

"متى سنمضي؟"

"اليوم بعد أن تتناول الغداء معنا".

يبدو أن نايف اتصل بأهله ليعدوا لنا وليمة كبيرة تفيض علـــى قدرتنا نحن الأربعة المتحلقين حول خروف كامل على صحن عـــال من الرز يكفي عشرين رجلا. كانت الساعة الرابعة عصرا وفضـــلت أن نقوم برحلتنا في الصباح، لكن هذا الخال الذي يجمع بين الجنـــون والمعرفة أصرّ أن ننهي الأمر الليلة.

"سنصل قبل مغيب الشمس ونعود قبل صلاة العشاء".

ملأ "الكولمان" بعلب الكولا وزجاجات الماء التي كانت متناثرة تحت صحن الرز وأشار لنا أن نتحرك.

"كم هي المسافة حتى البرّ"

قلت له وأنا أجلس إلى جوار نايف، لم يجب أطل برأسه مـــن المقعد الخلفي على لوحة العدادات

"نحتاج بنزيناً وثلجاً"

وعاد إلى مقعده، أعاد السؤال نايف مرة أخرى:

"لا أعرف المسافات أعرف الزمن، سنصل قبل مغيب الشمس".

وصمتنا معا.

راحت سيارة الجيب تخرج عن الطريق المعبد كما أشار أبو ضاري الذي كان يستمتع وحيدا بصوته المبحوح وكأنه يطربنا عنوة. الأرض حيث تسير عليها سيارة الجيب صلدة وليس من طريق غير معبد سلكه أحد قبلنا. أو أن السيارات لا تترك أثرا على هذه الأرض الحجرية. لا أرى نبتة أو شجيرة بإمكانها أن تقاوم ملح هذه الأرض. طلبت من نايف الذي يقود الجيب أن يتوقف

"أريد أن أقضي حاجتي"

أوقف نايف الجيب وترجلت مبتعدا عنها قليلا وقد أخرج أبو ضاري رأسه من النافذة وكأنه يتابع كيف سأتصرف بلباس الجينز والقميص الأبيض. جلست على الأرض وسمعته يضحك. تناولت من الأرض صدفة بحرية ونهضت عائدا إلى السيارة. كنت أتأمل هذه الصَّدَفة التي فسرت لي سبب تحجر الأرض ومواتها.

"هذه الأرض كانت يوما ما بحرا"

وضع أبو ضاري يديه خلف ظهره وأغمض عينيه كمن يستدعي صورا لايراها غيره

"كانت النساء تتزين بقواقعها"

أكملنا الطريق بعد أن قطعنا أكثر من مئة كيلومتر على الطريق المعبد ومازالت الشمس لم تغرب بعد. أبو ضاري يحافظ على الوجهة وكأنه يسير على طريق واضح الملامح ومحدد الوجهة ونايف يستجيب بشكل جيد.

"كيف تعرف وجهتك؟"

سألت وكلي شك بأن الرجل يعرف تحديدا إلى أين يمضي.

"بعد قليل سترى حجرا ضخما على يمينك، أخبرني حين تراه".

قال موجها كلامه لي. وصمت وهو يحرك علبة الكولا بين يديه دون أن يفتحها. حين رأيت كومة الحجر على يميني نظر إلي وهـــو يبتسم. فتح ثلاجة "الكولمان" إلى جانبه. وأخرج علبة كولا وهو يمد رأسه حتى كاد خده يلاصق خدي فابتعدت عنه

"تشرب كولا يا خواجة".

بدأت الشمس تميل إلى الغروب ومن بعيد رأينا بيتا من الشَّـــعْر ورجلا يسير متجها إليه. حين سمع الرجل صوت السيارة تزعج هذا الهدوء الميت التفت إلى الخلف وتوقف في مكانه. أخرج أبوضـــاري رأسه من النافذة

"مرحبا ابن عويضه"

قال أبو ضاري فنظر الرجل إليه ثم تفحصني جيدا

"تفضل أنت والخواجه"

"لسنا ضيوفك. أين الرويعي"

أشار الرجل بعصاه إلى جهة الشمال

"رمية عصا".

ضرب أبو ضاري على كتف ابن اخته أن يكمل سيره. وكأنه يسير على طريق رسمته عصا عويضة التي أشار بها.

كانت رمية عصا عويضة أكثر من خمسة كيلومترات. غابـــت الشمس ولكن شفقها قادنا إلى حيث عبّار الرويعي. بيت شعر مقسم إلى قسمين وسيارة الفورد الحمراء إلى جانب البيت. رائحة زريبـــة أغنام يبدو أنها خلف البيت. طلب أبو ضاري من نايف أن يوقـــف السيارة في الشق الأيمن من البيت ربما ليتحاشى نساء عبّار في الشـــق الأيسر. استقبلنا عبّار بكلمات ترحيب وكأنه يعرف أباضاري جيدا

والذي يحدثه عن أمور تجارية بينهما. حاولت أن أتعرف على وجه عبّار على الضوء المتبقي من شفق الغروب وأقارنه بالصورة التي في ذاكرتي فلم أستطع. لم يعد يلبس كوفيتين بيضاء وحمراء، كان بكوفية حمراء واحدة. وبالطبع هو لن يتعرف علي و لم يقدمني له أبوضاري.

كانت الظلمة تلف المكان واختفت ملامح عبّار تماما وهو يجلس أمامي، إلى جواره الأيمن أبوضاري ونقابله أنا ونايف. لم يسألنا الرجل عن سبب قدومنا لكنه حاول النهوض فاستوقفه أبوضاري الذي تركنا له التصرف كخبير بأمور الصحراء وتقاليدها.

"يا رويعي! سنأخذ ذبيحتنا معنا، علينا أن نعود بسرعة"

"ستأخذونها معكم، أريد أن أبحث عن عود لأشب النار"

غاب الرجل زمنا وعاد إلى مكانه خلف الموقد الصغير وهو ليس أكثر من حفرة مربعة وبقية رماد وإبريق شاي ودلة قهوة. لم نر بيده عودا من خشب. كان يصب الكيروسين على الرماد فتشتعل النار للحظات أتمكن فيها من رؤية ملامح عبار.

عينان غائرتان في محجريهما لهما بريق ينعكس عليه لهب النار كأنما ينعكس على مرآة من ماء العين. تجاعيد جبهته السمراء وجبينه النحيل والعروق النافرة على ظهر يديه علامات مشاوير من التعب والألم يجابهها الرجل بهدوء غريب.

استمر يصب السائل على الرماد الذي تخفت النار فيه فيوقظها من جديد حتى تأكد من رائحة الشاي أنه نضج. صب لنا الشاي أولا ثم القهوة السوداء وحين فرغ توقف عن إشعال النار فاختفت

ملامحنا جميعا وكأننا أربعة أشباح يستطيع أحدنا أن يغـــادر الجلســـة دون أن ينتبه الآخرون.

انتهى أبو ضاري من أحاديثه الطويلة مع الرجل وكمن ينتظـــر أن نشرب القهوة أولا حتى يبدأ بموضوعنا. سأله أبو ضاري

"هل تعرف الرجل الذي معنا؟"

جاء صوت عبّار خافتا وكأنه خجل من ألا يعرفني

"لا. لا أعرفه"

هذا رومي ابن أخت ضيدان. سمعت خشخشة الرجل ينـــهض وشهقة كبيرة تصدر منه، شعرت به يقف فوق رأســـي فنهضـــت واحتضنني بشدة. كانت له ذات الرائحة التي أعرفهـــا في زياراتـــه السابقة لخالي ضيدان.

"أنت رومي. لم أتصور أن أعيش لأراك"

غادرَنا ثانية وأحضر السراج من الداخل ووضعه بـــيني وبينـــه وكأنه يريد أن يرسم ملامحي في ذهنه.

"هل جئت تزورني؟ كيف وصلت إلي؟"

في تلك الأثناء كانت رائحة إطارات تشتعل يتخلـــل دخانهـــا أنوفنا دون أن يعلق عبّار على ذلك أو يهتم لأمرها. بدا الأمر عاديـــا جدا وكأنها تشتعل كل ليلة في مثل هذا الوقت. أخذت الحديث من أبـــي ضاري الذي كان يهم بالكلام. إن الرجل الآن وقد عـــرفني أقرب إلي منه.

"إن خالي ضيدان متهم في العراق بتهمة قد يعدم مـــن أجلـــها وأريد أن أفعل أي شيء لأنقذه. معي في هذه الحقيبة مليون دينـــار عراقي لمن يستطيع أن يخرجه من العراق".

وضع الرجل رأسه في يديه وكأنه يبكي خالي.

"كنت عنده في الكويت وطلبت منه أن يأتي معي حتى تنتهي هذه الأزمة لكنه رفض"

"وهل تعلم ماهي تهمته؟"

"لا. لا أعلم ولكن نقودك لن تنقذه. الحل الوحيد هو العميد مازن. تذكره أليس كذلك؟"

"لا. لا أظن أنني أذكره، من هو؟"

"هذا صديق خالك منذ أعوام طويلة لا أعرف عددها وهو الآن أحد أركان النظام وأحد المقربين من الرئيس".

"وهل ستصل إليه؟"

"طبعا. سأعود إلى العراق خلال هذا الأسبوع ولا أعتقد أنه سيترك خالك".

"سأترك هذه النقود في حال احتجتها"

"لا خذها معك لن تفعل لنا شيئا ولن أقدمها رشوة لأحد ربما تذهب رقبتي قبل خالك".

سمعنا صوت امرأة تنادي من الداخل. نهض الرجل ليعود ويضع أمامنا صحن رز عليه خروف صغير.

"لماذا فعلت ذلك؟ ألم أقل لك سنأخذ ذبيحتنا معنا"

قال أبو ضاري.

"وهناك ذبيحة في سيارتكم".

كنت أفكر متى أنجز الرجل وأسرته التي لا نعرف عددها عشاء كهذا وهو لا يمتلك عود خشب يصنع عليه شايه وقهوته. ورغم أنني أكلت خروفا هذا النهار إلا أنني كنت جائعا. حين تحلقنا حول

الصحن مد عبّار يده إلى السراج. رفعه ونفخ الهواء على فتيلته ليقتل ناره الناعمة. عادت الظلمة وكان لدي شعور بأن الرجل لا يأكل معنا. "أنت رجل لا تنجبه إلا صحراء كهذه" قلت في داخلي.

سألته قبل أن نغادر

"هل أعود إليك هنا لتخبرني ما حدث؟"

"لا. إن السلطات لا تسمح لنا بالمرور إلا مرة واحدة في العام على ألا نتجاور هذا الحد ولا ندخل المدينة. سيأتي تاجر أغنام سعودي يشتري هذه الأغنام غدا وسأعود بسرعة إلى العراق".

ودّعنا الرجل واحتضنني ثانية وكأنه يستقبلني مرة أخرى. ونحن نركب السيارة فتح أبو ضاري باب سيارة الجيب الخلفي ليفلت الحَمَل الذي جرى مسرعا إلى زريبته.

"هل تعلم أنهم طبخوا عشاءنا على إطارات سيارته؟"

"ماذا؟"

"ألم تشم رائحة الإطارات؟"

وطلبت من أبي ضاري الذي يتولى قيادة السيارة الآن ألا يتحرك. أخذت حقيبة النقود وتركتها في المكان الذي توقفت فيه السيارة. غادرنا المكان وكأنني دخلت حكاية تاريخية لا أريد الخروج من أثرها.

انتهت الحرب وعاد خالي ضيدان إلى الكويت، طلب مني أن أزوره وكنت مشغولا جدا بالعبء الذي تركه لي أبي ومرض أمي العضال. لم يعد في البيت سوى جلوريا وشكواها من أمراض تصيبها وأخرى تتخيلها. كان لابد من أن أضيف عاملة منزل أخرى تخدمها. لم تتصل سيمون ولا أظنها ستفعل بعد هذا الغياب.

أصبحت أمضي صباحي في المؤسسة ونهاية يومي في المستشفى إلى جانب سرير أمي.

"اقرأ لي هذه الرواية"

كانت تعشق الروايات، وأعتبر هذه المهمة لا تناسبني ولكنني اعتدت عليها وأحببت رواياتها. في الفصل الأخير من روايتها الأخيرة ودعت الحياة وحققت لها أمنيتها. حملت قارورتي رمادها ورماد أبي وألقيته في نهر هادسون ليأخذه إلى المحيط حيث التقيا أول مرة.

شعرت بما يشبه اليتم لقد فقدت والدتي التي أنجبتني ووالدي الذي لم أره أبدا وأمي وأبي اللذين عشت معهما أجمل أيام حياتي وهاهي نجمة تتصل بي لتخبرني أن خالي ضيدان مريض ويرقد في المستشفى ولا أحد يعرف مرضه. خالي ضيدان هو الرجل الأخير الذي يمت لي بصلة ومن بعده سأعيش وحيداً وأموت وحيدا.

كان ذلك في عام 1994 حين دخلت الكويت مرة أخرى لأجد خالي ضيدان يعاني مرضا لم يشخصه الأطباء، مرضا لا يسمح له بالحركة ولا يريد أن يتحدث مع أحد. عرضت الحكومة أن ترسله إلى بلدين الأردن أو مصر. رفضت وطلبت أن آخذه معي إلى طبيبي في لندن بعد أن اتفقت معه. كانت المشكلة الكبرى أمامي هي منحه فيزا لبريطانيا على وثيقة السفر التي تمنحها السلطة لغير الكويتيين. المشكلة أنهاها السفير الأمريكي بمنحه فيزا لأمريكا وتوصية للسفير البريطاني الذي وافق على سفره إلى بريطانيا بعد أن تعهدت بإعادته للكويت.

البطل

ما لون الموت؟

كنت مسجى على سرير أبيض عيناي مغمضتان وحلقي جاف حاولت أن أصرخ أريد ماء أريد ماء ماء و لم يسمعني أحد أحسست بالخوف والهلع وكأن أحدهم بعشرين قدما وأربعين ذراعا يطاردني رغم أنني ما زلت مسجى على السرير الأبيض قال لي هذه نهاية طريقك ليس أمامك مساحة تركضها تحسست سائلا يسيل بين فخذي يا إلهي هل وصل الأمر أن أتبول على نفسي خوفا من الموت ولكن البرودة لم تكن للسائل الدافئ عادة و لم تكن على سطح فخذيّ كانت داخل جسدي تسير في كل شريان ووريد وشعيرة دم هل يأتي الموت سائلا وينتابني من الأسفل حاولت أتحرك يبدو أنهم قيدوا يدي ورجلي إلى السرير لا أتذكر أنهم فعلوا ذلك قبل إغفاءتي في الظلمة أتذكر أن أحدهم أطفأ المصباح وخرج رأيته وهو يطفئ المصباح ويخرج من يصرخ الآن في رأسي المفتوحة كفلاة صيد ضيدان ضيدان ضيدان وهو يقترب مني غيّر اسم ندائي أبو ناشي أبو ناشي ناشي ناشي هذا الناشي الذي عجز حيوان منوي لا يرى في العين أن يحمله على رأسه الدائري ويخترق به بويضة شابة تولد وتموت في عذاب يتكرر بلا نهاية لم أتعرف على الصوت هل هو صديق قديم أم وجه من وجوه الموت لم يكن لي أصدقاء حميمون يمكنهم دخولي لهذه المسافة ذكرني وجه الرجل بصوت أحد رفقاء

المدفع المدفع الذي أحببته وعاشرته وعشت معه وله طيلة حياتي مدفع أبو ردين وصوته يضج في أذني ويطربني ارتجاجه يثير جسدي وينعش روحي هو أحد رفاق المدفع ربما لم يكن ممن يطلقون علي وكأنني لا أسمعهم حمار المدافع كان صوته شجيا وأحببت اسمي وهو ينادي ضيدان ضيدان ضيدان هل ستموت الآن اقترب من أنفاسي المترددة والمرتجفة وكأنها توشك أن تقف في أي لحظة لم أردّ نظرت إلى وجهه في ظلام رأسي الدامس و لم أعرفه كيف وصلت هنا هذه البلاد بعيدة أوهموني أنني سأعيش وهذا الموت يعدني به لا يهم أن تموت المهم ألا تصاب بالبرد البرد هنا قارس ومزعج حاول أن تضع هذا اللباد على صدرك أنت تقصد ألا أواجه الموت عاريا دعني أمُت عاريا لقد أخذوا كل شيء جردوني من صوت المدافع التي أحب ومن ملابس الخاكي التي اعتاد ظهري على خشونتها هل رأيتني وأنا أغادرهم عاريا كانوا يجهزونني للموت وفجأة اختفى الرجل دون أن أعرف من هو ولماذا جاء جلس مطاردي إلى جواري يضع يده على جبهتي وكأنه يجس حرارتي لا تخف كنت رجلا طيبا وستذهب رجلا طيبا دون ألم لا تخف سنأخذ منك مالم يكن ملكك دائما وليس ملكا لأحد ونظرت بعيدا في عينه كان جسده مرعبا إلا أن ملامح وجهه بشوشة من أشعل النور قلت أنا قال حين تأخذ ما تريد مني لا تنس أن تطفئ النور و لم يرد سألته لماذا جئتني هنا وأنا في بلاد غريبة وبعيد عن أهلي ضحك أهلك أنت بلا أهل ولن يبكي عليك أحد وغضبت وزوجتي قلت وابن أختي أين هم نهض واقفا وضغط جبهتي بقوة فاستراح كل شيء بداخلي هدأ الضجيج في رأسي وقبل أن أبتسم ردا على ابتسامته سألته هل سأموت الآن أريد أن أتأكد أن

الفصيل الذي أدربه على المدفع قد أنهى تدريبه قال لا ليس بعد ولكن قريبا وللمرة الثانية أشير إليه لا تنس أن تطفئ النور وأنت تخرج أريد أن أرى لون الموت في الظلمة هز رأسه وبكى

قتال الوهم

دبابتان متقابلتان بلونهما الأسود لم يعد بإمكانهما أن تمتثلا للاختفاء الذي تفرضه ظروف هذه المواجهة. بدت القذيفة الأولى تقف في المسافة القريبة وتفصل كتلتي الحديد عن بعضهما. في موقعه الآن من إحداثيات الرمي لا يستطيع أن يستمع لصوت القاذف وهو يدفع بكتلة الموت نحو الآخر. لا يستمع لصوت المقذوف في حرب دمرت كل شيء و لم يتبق منها سوى دبابتين تغطيهما كثافات سوداء لا يعرف إن كانوا جنودا يهربون من أرض المعركة المتكافئة أو قتلى في طريقهم للجحيم الأكبر.

يعرف أن الدبابة الناجية من هذا القتال ستعلن نصرها ونصر من تبقى من عسكرها، ولكنه لا يعرف إن كان هذا الصراع هو خاتمة حروب البشر. يعلم بأنه لن يعيش طويلا ليشهد ذلك وأن الحروب لم تنته ولن تنتهي.

هدأت الحرب الدائرة بين الآلتين ويكاد يرى السماء صافية في المسافة التي تفصلهما، يبدو أن القذائف المتبادلة بينهما قد أخطأت أهدافها، أو أن لا نية لأي من الآلتين بإنهاء القتال، ربما تفكر كل آلة بما ستفعله حين تقضي على نظيرتها ولا تجد طرفا تحاربه. لم يتقدم الجنود الذين يحتمون بجسدي الدبابتين إلى قتال بالأسلحة البيضاء.

لم يدم هذا الصراع طويلا. كان يتابع إحدى الآلتين تستدير إلى الخلف، تنفصل عنها سبطانتها الرمادية ثم تختفي من المشهد تاركة ساحة القتال للأخرى التي بقيت ثابتة لا تتحرك من مكانها.

"ماذا ترى يا خال؟"

"انظر! هل تدور معارك حقيقية بين الغيوم"

كان الخال ضيدان يشير إلى الغيوم وقد رسمت صورة لحروب خاضها ويعرفها جيدا، غيوم في سماء غير سماواته التي يعرف، غيوم تجمعت وتفرقت.

"إنها غيوم يا خال".

"غيوم! نعم ليست سوى غيوم"

كان يجلس على ضفة البحيرة يتابع تشكيلات الحظائر في ذهنه.

"هيا بنا ياخال لا بد أنهم جهزوا غرفتك الآن".

دفع رومي كرسي خاله المتحرك وأحكم لف وشاحه حول رقبته ووشاح الخال وقبعته.

"إلى أين قلت لي سنمضي"؟

"إلى غرفتك ياخال سيبدأ علاجك وتعود محاربا كما كنت".

لم يرد الخال ضيدان واستسلم لدفعات رومي وهو يرى زمنه القادم يتحرك ببطء هذه العجلات الدائرية للكرسي المتحرك.

في صالة الاستقبال أنهى رومي إجراءات الدخول وصعد الدور الثاني بصحبة خاله وممرضة خمسينية تولت دفع الكرسي المتحرك وهي تحدّث الخال بلغة لن يفهمها تماما. حافظ على ابتسامة ثابتة كردة فعل تصلح لكل حوار.

لم يبتعد رومي بعد خروجه من باب عيادة لندن حيث يرقد الخال ضيدان. سار قليلا في شارع "ديفونشاير" حتى "ميريلبون" تاركا سيارته في المواقف القريبة من العيادة. جلس في مقهى بالقرب من متحف الشمع وهو يفكر بما سيكون عليه مصير خاله خلال الستة أشهر المتبقية من عمره. كان يود أن يعوضه بشيء من المتعة كأن يصطحبه إلى الأماكن الجميلة التي أحبها في فرنسا ونيويورك ولكن جسد خاله لن يجد القدرة على تحمل كل ذلك. يقترب الزمن كثيرا من نهاية الخال الحتمية. ورومي يفكر في حالة الرجل الذي أنشأه ورباه. "لم أكن أعرف أنه سينتهي الآن". كان يود لو رحل الخال كأحد المقاتلين القدامى الأشداء، لو استطاع أن يصنع له تمثالا من شمع يمجده. لكنه ولد في بلاد لا تهتم كثيرا بخاله وغير خاله، بلاد تستهلك كل شيء حتى البشر الذين يعيشون عليها.

ستة أشهر هي كل ما تبقى ليتم الخال خمسينه الذي أضاعه في الرمال الملتهبة. كأنما الزمن يختصر عمراً ليس طويلاً ولكنه مليء بالأحداث في ستة أشهر فقط. ستة أشهر سيحاول أن يدفع الخال إليه ذاكرته كاملةً، أن يسترجع كل ما مرّ بها سواءً في السنوات البكر التي عاشها معه أو في سنوات النضوج التي عاشها بعيداً عنه.

"إن ذلك أقل ما يمكن أن أفعله، سأترك سيرة الخال للذين سيأتون من بعده، لهؤلاء الذين سيقفون أمام مَساطِر الجيش يحلمون بالعيش بعرق جلودهم وكرامتهم وسينتهون كما سينتهي ضيدان بعد ستة أشهر من الآن".

عاد رومي مرة أخرى الطريق التي سارها واستقل سيارته حتى سكنه وسط المدينة في شقة تطل على نهر التايمز. السماء ملبدة بالغيوم

والجو يبعث على الكآبة و لم يكن لديه مايفعله سوى متابعة أعماله عن طريق الكمبيوتر أو قراءة كتاب لم يكمله. ولكن فكرة كتابة تاريخ الخال تسيطر عليه كعمل خرافي سيقوم به أو مهمة شاقة لم يسبقه إليها أحد.

"سأحولك من رجل نكرة إلى ما تستحق أن تكونه، بطلا حقيقيا صنع كل ما يمكنه ولن يرحل دون أن يتذكره أحد".

يدخل المطبخ يفكر بشيء يشربه، شيء يساعد فكرة السطر الأول من الرواية على الورق. نام بكامل ملابسه دون أن يتمكن من كتابة شيء. نام وهو يردد بعد كأس نبيذ واحد.

"ما أصعب السطر الأول من الكتابة".

في الصباح خرج من شقته مغادرا إلى عمله، يوم روتيني عادي أنهى اجتماعات صغيرة على الهاتف مع مدير الأفرع في "جيرسي" و"ميسوري". أوكل أعمالها للسيد "روبرت هيوسن" الرجل الذي عاصر أعمال أبيه منذ بدايتها. تناول الغداء في مطعم أسفل المكتب ثم غادر إلى عيادة لندن بعد أن أخبر سكرتيرته بأنه لن يعود للعمل بعد الظهر.

كان خاله وحيدا على سريره ينظر إلى السقف بعينين يملؤهما بريق ووجه منحوت متغضن لم يكن هو وجه الخال حين زاره في الكويت.

"كيف أنت يا خال"

"هل هناك مرآة في الحمّام؟"

ابتسم رومي.

"هل تريد الحمّام؟"

"لا. أريد مرآة"

أحضر له رومي مرآة دائرية من الحمّام. نظر ضيدان إلى وجهه كمن ينظر إلى رجل يجلس قبالته على السرير. كان يود أن يمدّ له يده ويصافحه. حين مسّد طرفي شاربه عرف أنه هو صاحب الوجه المنعكس على ماء المرآة.

كان يمسد شاربه بإصبعين ويفتلهما في الأطراف المدببة والتي تمتد خارج حدود وجهه النحيل.

"احضر لي مقصّا"

"لماذا؟"

"افعل ما أطلبه منك"

حسنا. لم يكن في الحمّام مقص. فطلب من الممرضة التي دخلت وخرجت بسرعة.

"كل ساعة تدخل عليّ امرأة لم أرها من قبل"

"لا يا خال هذه هي ممرضتك بالأمس"

"هذه المرة الأولى التي تدخل بها".

"حسنا كما تشاء".

عادت المرأة بالمقص ووقفت تنتظر. ناوله رومي للخال الذي أشار للممرضة أن تخرج محركا أصابع يديه بطريقة لم تفهم المرأة إن كان يريدها أن تخرج أو تقترب. حين اقتربت صرخ بها كي تخرج فعادت للوراء دون أن تنزعج. خرجت ورومي يحاول أن يمتص غضبا لم يبد على امرأة خبيرة يبدو أنها رأت مرضى أكثر شراسة من هذا الرجل النحيل.

حدق ضيدان طويلا بشاربه ومسده ثانية وثالثة بأصابع يده اليسرى وهو يمسك المقص بيده اليمنى وفي المرة الأخيرة كان شاربه

بين فكي المقص. تطايرت شعرات الجهة اليمنى أولا ثم الجهة اليسرى فملأ الشعر الرمادي ملاءة السرير التي تغطيه. لم يحرك رومي ساكنا و لم يدافع عن شارب خاله الذي كان يرى فيه رجولته وبأسه وسطوته.

"لماذا فعلت هذا يا خال؟"

"لم يعد خالك ضيدان كما أعرفه، ولن يعود كما أعرفه".

حين أعاد رأسه إلى الوراء لاحظ رومي وهو ينظف الملاءة من الشعر بأن ماء عينيه يتكثف عند جفنيه ولا ينزل.

"مازلت شابا ياخال، أنت في الخمسين وحسب"

"خمسين بؤسا، خمسين لعنة، خمسين ماذا يا بني؟"

"هل أكلت يا خال؟"

"لا. نعم. لا. لا أتذكر"

"ما بك يا خال؟"

"لا شيء".

"أنت لا تتذكر شيئا. ولكنك تذكرني وتذكر نجمة وتعرف اسم والدتي. صحيح؟"

"أتذكرك وأتذكر نجمة وأعرف اسم والدتك"

"ولا تتذكر أنك أكلت شيئا!"

"لا. لا أتذكر. ولكني لست جائعا الآن".

حدق رومي طويلا في وجهه الذي أخذ يميل إلى السمرة وبدت الندبة في جبهته عند ملتقى عينيه وفوق الأنف مباشرة أكثر سوادا من بقية بشرته.

"هل تتذكر هذه الندبة؟ كانت أصغر".

"هذا المكان الأكثر عذابا في جسدي. ندبة زريبة بنيتها للأغنام، تذكرها أليس كذلك؟"

وهزّ رومي رأسه وهو يضع راحة يده على رأس خاله الحاسر. وأكمل الخال

"وهي أيضا ندبة شظية كادت تخترق جمجمتي في الحرب"

"أي حرب. لقد شاركت في كل حروبهم"

"حروبنا يا رومي، حروبنا"

"حسنا حروبنا، أي حرب"

"حرب قصيرة، حاولنا أن نصدّهم لم نستطع، كانوا أكثر"

"إذن أنت تتذكر كل شيء، هل تتذكر أين كنا أمس"

"كنا؟ أنت لم تأت بالأمس".

"يا الله!!"

جلس رومي على السرير بجانبه يضع يديه على رأسه وينظر بعيدا في عينيه. لم ير في نظراته أنه يمازحه. مسح الخال ضيدان على يدي رومي، ثم وضع يده تحت ذقنه ورفع رأسه إليه.

"أصبحت وسيما أكثر"

دخل الطبيب الغرفة فنهض رومي وصافحه. قال مخاطبا ضيدان

"كيف أنت يا بطل؟"

فهم ضيدان ما يقول ورفع إبهامه ليؤكد له أنه بخير. أنهى الدكتور فحصه وقرأ الملف المعلق في طرف السرير و لم يتحدث بشيء مع ضيدان أو عنه. قبل أن يغادر استوقفه رومي

"دكتور أنت كنت بالأمس هنا؟"

"وكنت هنا هذا الصباح و لم تكن أنت هنا"

"حسنا، انتظر"

التفت رومي لخاله يسأله

"هل زارك هذا الطبيب بالأمس يا خال؟"

"لا. هذه المرة الأولى التي أراه فيها".

ترجم رومي للطبيب ما قاله خاله.

"ماذا يقصد أنه لم يرني من قبل؟"

"لا أعرف. إنه يتذكر كل شيء في الماضي ولكنه لا يتذكر شيئا عن الأمس القريب".

"غدا سأستدعي طبيباً آخر معي ونفحصه جيدا. اطمئن ربما كانت حالة مؤقتة. يحدث ذلك عادة".

خرج الدكتور وعاد رومي ليجلس على الكرسي أمامه. كان يفكر كم هو محظوظ خاله ضيدان إذ لا يتذكر ما يحدث الآن. ألاّ يتذكر ما حدث وما سيحدث له. أن يموت دون أن تترك الحياة صورها القريبة في ذاكرته. ولكن السؤال الذي يحاول الإجابة عليه. "منذ متى توقف الخال عن التذكر؟" إن المشكلة التي يواجهها الآن كيف بالإمكان استعادة ذاكرة الخال لينسخها كما هي في روايته.

في اليوم التالي حضر الطبيب يرافقه طبيب آخر، شاب بشوش يتحدث الإنجليزية بلكنة شرق أوروبا. بدأ يسأل الخال أسئلة عما يتذكره الآن ورومي يترجم أسئلته للخال. لم يستطع الخال أن يتذكر أحداثا مرّ بها منذ تاريخ لم يتمكن من تحديده.

"لديه خلل في "الهيبوكامبس" وهو الجزء المسؤول عن نقل الذاكرة القصيرة إلى الذاكرة الطويلة".

"كيف حدث له ذلك"؟

سأله رومي والخال ضيدان ينقل عينيه من رومي إلى الطبيب الشاب الذي يحافظ على بشاشته وهو يتحدث

"اسأله عن الإصابة في مقدمة الرأس"

"أعرفها كانت ندبة مسمار وهو شاب ثم شظية في الحرب"

"هو ذاك، لن يستطيع أن يحتفظ بذاكرته طويلا"

"والعلاج، هل ممكن علاجه"

"لا أعتقد. أنت تعرف حالته الآن"

نكّس رومي رأسه وغادر الطبيبان الغرفة فيما بقي هو إلى جوار خاله، يفكر بطريقة يساعده فيها.

خرج رومي ليعود ثانية بلوح أبيض وقلم وماسحة، علق اللوح أمام الخال وطلب من الممرضة أن تكتب له التفاصيل المهمة التي يعيشها الخال في نهاره على أن يعود إليها في المساء، في محاولة لتدريب ذاكرته مرة أخرى. كأن يقول له "هل تتذكر أنك أفطرت خبزا وزبده وبيضة مسلوقة"؟ "هل تعرف أن الممرضة أعطتك الدواء عبر الأنبوب المتصل بذراعك"؟ ولكن جميع محاولات رومي لم تنفع. كانت إجابات الخال بالنفي.

في اليوم التالي وبعد أن يئس رومي من تمرين الخال على التذكر أحضر رومي أوراقه وأقلامه وجلس إلى جواره مساءً. بدأ ينسخ ذاكرة الخال الطويلة.

الملاك يحمل كتباً

كان حلمي الوحيد أن أهرب من هذا السكون القاتل إلى الضجيج. المرات القليلة التي رأيت فيها الحواضر كانت تستلبني تماما، ولا أريد أن أعود لهذه الفضاءات المسكونة برغاء الإبل وثغاء الأغنام. كنت في الثامنة لأعرف أنني أمتلك قطعانا من الماشية تدل على ثراء وحياة سعيدة لكنها ساكنة كموت. كانت أختي – والدتك – تكبرني بثمانية أعوام تقريبا، توفيت أمّنا و لم يتغير لون السماء كما توقعت، لم تكترث الشمس، بقيت تشرق وتغيب كعادتها، لم تقم قيامة صغرى أو كبرى. كل شيء استمر كما هو وكأن شيئا لم يكن. توقعت أن الله سيكترث لدموعنا في الليل وأنا أدس رأسي في حضن أختي ويعيد أمّنا في الصباح وكأن ما حدث هو خطأ كوني مؤقت. شيء ما يشبه عاصفة رملية تعود بعدها الأشياء إلى طبيعتها. ولكننا في كل صباح نفيق فيه نجد الركن الذي اعتادت أن تجلس فيه خاليا إلا من رائحتها.

أبي يدخن وهو يسند ظهره إلى عمود الواسط في بيت الشَّعْر الكبير وكأنه يبتسم لقادم من بعيد. نادى عليّ قبل أن آخذ الماشية للمرعى وتضع لي أمك حفنة التمر وثلاث قطع من اللبن الجاف في عليقة تشبه عليقة الفرس أعلقها على كتفي

"تعال! اقترب"

قال أبـــي واقتربت منه. أخرج كيس دخانـــه مـــن جيـــب دشداشته العريض وبدأ يلف سيجارة ويبلل أطرافها بلسانه ثم يضعها جانبا ويلف أخرى وهو يقول

"تعلّم كيف تلف الدخان!"

و لم أرد. كنت أتابع حركة أصابع يديه الخشنة تتحـــرك بآليـــة ولسانه الجاف كلحاء شجرة يحاول أن يبلل طرف الورقة ويطبقهـــا على الطرف الآخر. حين لف ثلاث سجائر ناولني إياها.

"حين يدخن الرعاة دخّن معهم"

دسست السجائر في الجيب العلوي وانطلقت فرحـــا وكأنـــه منحني صك الرجولة في سن الثامنة، بينما بقي والدي في البيت ليهتم بالناقتين والجمل.

حين عدت قبل مغيب الشمس بقليل رأيت بيتا صـــغيرا مـــن الشَّعر قد ارتفع بعمود وحيد وشاب يشرب القهوة إلى جانب والدي وقد اجتمعا حول نار شجر "الرمث" يتخلـــل الـــدخان الكثيـــف ملابسهم ووجوههم.

سلمت على الشاب الذي حاول أن يقف حتى تساوى وطـــول قامتي وهو يجلس على ركبتيه. قبّل خدي وقبلت خده وكان جسده مشبعا بدخان الرمث والعرق. عدت إلى أختي التي كانـــت تســـخن قديدة من يوم أمس

"هل تأكل؟"

"من هؤلاء الذين جاورونا؟"

"شاب وأمه. يبدو أنه جالٍ على قبيلتنا"

وضعت الأكل أمامي. الوجبة المتوفرة دائمـــا والـــتي أكلتـــها

بالأمس شبه طازجة. كنت جائعا وبدا لي الأرز المطبوخ بشحم الغنم، رغم احتراقه الزائد، وجبة دسمة كوجبة أكلتها قبل أيام في حفل زفاف ابن شيخنا.

"ما اسمه هذا الرجل؟"

"لم أسأل عن اسمه ولا يعنيني اسمه، كل ونم وغدا ستعرف".

في فجر اليوم التالي طلب الشاب أن يرافقني إلى المرعى. لم يكن معه سوى جمله وأغنام قليلة كان قد ضمها مسبقا إلى أغنامنا. عرفت أن والدي لم يمانع أن ترد ماشيته الماء الذي يرده رعاة قبيلتنا. لم يعطني والدي سجائر ذاك الصباح. كانت معي واحدة من يوم أمس قررت أن أدخنها بعد وجبة الإفطار، الوجبة الوحيدة حتى عشاء نهاية اليوم.

الشاب يحمل زوادة تبدو ثقيلة وتذكرت أنه شاب أكبر مني، ولكن زوادته لم تكن لأكله فقط. حين جلسنا على ربوة صخرية أخرجت التمرات من زوادتي بعد أن حلبت حليبا وأخرج هو تمرا وكراريس وكتابا. نظرت إليه باستغراب وابتسم

"سأقول لك كل شيء بعد أن نأكل"

قال دون أن أسأله عن شيء. هو يعلم بالتأكيد أن هذه الصحراء جرداء كعقولنا لاتحتمل رجالا يقرؤون في كراريسهم علوم المدينة، ولكن فضولي جعلني أقف خلفه أنظر إلى الأحرف المنقوشة في الكراريس وكأنها عوالم من الأمس البعيد لا يدخلها سوى من يجيد فك خطها المليء بالغموض.

"هل تريد أن تتعلم الكتابة والقراءة"؟

لم أتخيل أن يوما سيمر بـــي وأنا في هذه البرية ويهبط ملاكٌ من السماء يقول لي "هل تريد أن تتعلم الكتابة والقـــراءة". صـــرخت بصوت عال:

"نعم أريد، هل ستعلمني فعلا القراءة؟"

"والكتابة!"

كان حلمي أن أقرأ فقط أما الكتابة فليست ذات أهمية. كنـــت أعرف أنني لن أكتب لأحد ولكنني سأقرأ لأختي و لم أفكر حينها من أين يمكن أن أجد كتابا لأقرأه.

"ولكن ستدفع أجرة تعليمك"

قال لي بجدية فتراجع الحلم، كان إحساسي يقول بأنه غير جاد.

"تعرف أنني لا أملك شيئا وأبـــي لن يتخلى عن حَمَلٍ واحـــد من أجل أن أقرأ وأكتب"

"لا أريد منك مالا ولا حملانا، أريدك أن ترعى ماشيتي وتهـــتم شقيقتك بأمي حين أموت".

"سأفعل وسنهتم أنا وأختي بأمك"

و لم أسأله لماذا سيموت. ما أعرفه أن الموت للأمهات وكبـــار السن وهو شاب.

بدت القراءة سهلة مقارنة بالكتابة. كان يطلب مني أن أصـــور حرفا من الأحرف على الرمال بإصبعي، لم يكن لديه قلم أو كـــراس يتبرع به لي، فأمسح ما كتبت براحتي. ما لا أجد له تفسيرا الآن هو خوفي الشديد من أن يراني أحد ويخبر أبـــي الذي سيمانع أن أتعلم. لكن هذا الأحد لم يكن سوى الشاب نفسه الذي أخبر أبـــي ونحن نشرب القهوة في المساء. فرد أبـــي بهدوء

"هل هذا سينفع أغنامه؟"

و لم يرد الشاب فأكمل أبي

"اذن لا بأس أن تفعلا ذلك كأن تلعبا ألعاب الرعاة، هكذا كي يمر النهار الطويل".

فرحت أن أبـــي لم يمنعه من تعليمي.

أصبحنا أنا ومعلمي صديقين حميميْن، يعاملني كرجل بـــالغ لا كطفل في الثامنة. يسعده أنني أتعلم بسرعة وأهداني قرطاســـا وقلـــم رصاص وكأنه يفتح لي كوّة في السماء أنظر من خلالهـــا للســـماء السابعة. وأخبرني قصته.

كان الابن الأصغر لعائلة بدوية من الجنوب، هو العاشر بعـــد ثلاثة أخوة وست بنات. أرسله والده للمدينة كي يتعلم بعد أن حرم الإخوة الثلاثة من التعليم ليهتموا بماشيتهم وأسرتهم. حياتهم هادئـــة سوى مناوشات قبلية معتادة بين قبيلته وقبيلة أمه انتهت بمأساة حين حلّ خاله ضيفا على والده. اجتمع رجال من قبيلته يريـــدون قتـــل الخال ولكن والده وإخوته منعوهم عنه. وحين غادر خاله في الفجـــر رافقه الإخوة الثلاثة على خيولهم فاعترضوهم شباب القبيلة. بـــدأت المعركة كلاما إلا أن رجلا أطلق النار فأصاب الخال وأســـقطه عـــن فرسه وتبادل الطرفان إطلاق النار. سقط الإخوة الثلاثة وسبعة مـــن الطرف الآخر أحدهم ابن شيخ قبيلتهم. و لم تنته المعركة هنا. غـــدر الابن الأصغر لشيخهم بعد سقوط شقيقه وقتل والده وهـــو يصـــلي وحيدا على أبنائه.

أرسلت أمه جدائلها وجدائل أخواته الست له حيـــث يـــدرس وحين عاد إلى أسرته أقسمت أمه أن تقطع ثديها الذي أرضعه إن لم

يثأر لوالده. أرسل أخواته إلى أزواجهن. جهز نفسه للرحيل في الليل وبعد أن نحر غريمه من الوريد إلى الوريد لجأ إلى هنا مبتعدا نحو الشمال لاجئا إلى قبيلتنا كي لا يلحق به أحد. غيّر اسمه ولقبه وقرر بعد عام أن يرحل إلى الأردن.

أمضيت سنة كاملة أتعلم على يديه منذ شروق الشمس حتى مغيبها. كان يجد بي ضالته وأجد فيه حلمي. توقف كل شيء حين جاء يوم أقنع فيه والدي أن يلتحقا بالجيش العربي في الأردن ويتركا العناء في هذه الصحراء الموحشة. كانت مجاميع كبيرة من قبيلتنا قد نزحت من البادية لمدن الكويت وبعض رجالها رحل ليلتحق بالجيش العربي الذي أسسه جلوب باشا في الأردن.

فضّل والدي أن نستقر في الجهراء القرية التي استقر فيها أغلب أفراد قبيلتنا على أن يتركنا رعاة في الصحراء أو يأخذنا لبلد غريب سيغيب هو في معسكراته أشهرا طويلة.

باع أبي والشاب الإبل وتركا لنا الأغنام ولم يتغير بالنسبة لي شيء سوى أننا الآن نسكن على أطراف قرية نقصدها لنشتري حاجاتنا أو نبيع ما تنتجه أغنامنا. كنت أمضي نهاري كما كنت في السابق أرعى أغنامي وأقرأ في كتب تركها لي الشاب أو تلك التي يجلبها معه من الأردن. استمرت حياتي سنوات لم يفكر فيها أبي أن يلحقني بالمدرسة ورفض الفكرة التي طرحها الشاب عليه. كان حريصا أن أهتم بأغنامه وشقيقتي قبل أن يقرر تزويجها للشاب الذي سيكون والدك.

في تلك السنة انتقلنا من بيوت الشعر إلى عشيش غرب الجهراء وفي السنة الثانية عاد والدي مشلولا شللا كاملا إثر إصابته في الرأس

أثناء معارك الجيش مع البدو حسب رواية والدك. كانت أمك في بداية حملها بك حين عاد والدك إلى معسكره. ولدت وبلغت سنتك الأولى و لم يعد. كان علي أن أتكفل بك وبأمك وجدك وأنا في السادسة عشرة من عمري. كان كل حلمي أن أراك رجلا متعلما ومهمّا أمام عيني وهو ما فعلته أنت بعيدا عني.

الرواية التي نقلها لنا والدك لم تكن حقيقية و لم يسقط جدك برصاصة بدوي في القتال مع البدو. ما حدث يبدو غريبا ولكني سأنقله لك كما ذكره رجل من قبيلتنا خدم معهم في ذات الكتيبة. كان والدك، كما أخبرتك، شابا متعلما ووسيما متناسق الطول شديد البنية. اختاره الضابط البريطاني أن يكون سائقه وسكرتيره حين اكتشف أنه يجيد اللغة الإنجليزية وأصبح صديقا له أكثر من كونه سائقا عربيا لضابط أجنبي. كان يمضي النهار معه في المكتب والبيت ويعود في الليل إلى ثكنة العساكر الذين يقدّرون له علمه ولغة يترجم لهم من خلالها طلباتهم لدى القائد الإنجليزي.

بدأت الفتنة القاتلة بالمرأة الأجنبية زوجة الضابط الأجنبي التي عاد بها والدك من المطار مع زوجها لتستقر في البيت الذي كان يقتسمه في النهار مع الضابط. لا يكاد يجزم راوي هذه الواقعة إن كان هو سبب الغواية الأولى أم هي. ولكن الحديث الذكوري الذي يتمتع به العساكر كان سيلقي اللوم حتما عليها وأنها من أغوته وأحضرته إلى سريرها أثناء غياب الضابط في اجتماع مطول مع قيادات المعسكر. في تلك الليلة طلب الضابط من والدك أن يذهب إلى الثكنة لأنه سيذهب في مهمة خاصة ربما يغيب يوما أو أكثر في العاصمة. و لم يُظهر الشاب ما يدل على علاقة الإعجاب بينه وبين

زوجة الضابط. عاد إلى الثكنة لينام كما ينام كل العساكر قبل العاشرة مساء وليفيقوا مع صلاة الفجر. في هدأة الليل استيقظ وتأكد أن الثكنة تغط في نومها كمقبرة عدا شخير هنا وصراخ من ينتابه كابوس هناك. انسل من بينهم واتجه إلى موعده مع المرأة التي تنتظره. تكرر ذلك لليلتين وفي الثالثة لم يكتمل لقاؤهما حين سمع صوت محرك السيارة يتوقف أمام السكن الصغير للضابط وصوت باب السيارة يفتح ويغلق. فتح الشباك وانطلق كسهم متجها للثكنة والضابط يعود ثانية إلى سيارة الجيب بعد شجار سريع مع زوجته ليلحق به. كان قد وصل إلى فراشه وطلب من زميل له أن يتبادلا الأسرة فوافق الأخير وهو يدعك عينيه من النعاس الثقيل.

دخل الضابط الثكنة ليجدها كمقبرة مظلمة لا يسمع بها صوت آدمي. راح الضابط يضع رأسه على صدر كل عسكري في الثكنة كمن يفحص حقيقة نومهم، كان صدر والدك هو الأكثر ارتباكا يعلو ويهبط كمن يجري في مضمار وهو نائم. لم ينظر الضابط إلى وجهه في الظلام و لم يتبين من هو. أخرج حربته وجرح شحمة أذنه. لم تصدر من والدك نأمة أو صرخة خافته. حين تأكد من عودة الضابط إلى مسكنه وقف في وسط المهجع وصرخ بأعلى صوته فاستفاق الجميع. كان لابد له أن يشهّر بنفسه ويفضحها كي ينقذها. تدخل وكيل القوة وكان بدويا حكيما و لم يفكر كثيرا في الحل. أخرج حربته من جرابها وسنّها جيدا ثم طلب من الجميع أن يشاركوا زميلهم جرحه الصغير في شحمة أذنه.

في الصباح طلب الضابط من وكيل القوة أن يصطفّ العسكر ليتفقدهم بنفسه. اقترب من أول الصف نظر في شحمة أذن

العسكري كان جرحا تركه ليلة البارحة واضحا عليها لكنه جـــرح يتكرر على شحوم آذانهم كنسخ في مطبعة. عاد إلى الوراء وتوقـــف أمامهم وصرخ "لعنة الله على البدو ومن يخدم معهم". أخذ زوجتـــه وعاد إلى مكان لا يعرفه أحد و لم يروه ثانية.

محرجا من العار الذي ألحقه به أبوك بين رجالات البـــدو، دبّ الخلاف بين جدك وأبيك وطلب منه أن يطلق أمك. كادا أن يقتـــتلا لولا أن وكيل القوة تدخل ومنعهما وتوعد جدك أباك بأن يقتلـــه إذا عاد معه إلى الكويت. سقط جدك في معركة مع البدو ولكن أصابع الاتهام كانت تشير إلى والدك وأنه هو الذي أصابه وتركه حتى أنقذه عسكري من الفصيل الذي يقاتل فيه.

عاد جدك كسيحا لا يقوى على الحركة أو النطق وكان يطلب الموت وهو يرفع عينيه في الصلاة وتذكر أنت بالتأكيد يوم موته.

حين أنهى رومي تدوين هذا الجزء من حكاية الخال التفت إليـــه مستغربا

و لم يعد والدي أو يسأل عني وعن والدته؟

لا. لم يعد وغادرت والدته تبحث عنه في ثكنات العسكر كما تقول.

كانت نظرات الخال البعيدة في السقف القريب توحي بأن جزءا كبيرا من القصة قد تم تزييفه عن عمد و لم يسمح له الخال بمزيد مـــن الأسئلة. أغمض عينيه وقبل أن ينام "اطفئ هذا النور الذي يـــزعجني قبل أن تخرج"

أطفأ رومي النور كما فعل من قبل وخرج.

المَسْطَر

الصحراء ليست سوى بحر لا ترى له يابسة، لا تعرف أين ستنتهي بك قبل أن تبتلعك. الذين ولدوا في الصحراء يخيل لهم أنهم انتقلوا من رحم ساكن إلى حياة أكثر صخبا، ولكنهم يعرفون جيدا أنهم يدورون بحثا عن الرحم الأخير في صحرائهم، عن الملاذ النهائي فلا يتركون وراءهم سوى الغبار وماشية أقل أو أكثر، يحملون أبناءهم وهموم أبنائهم كإناث العقارب على ظهورهم.

كانت حياة صعبة وكأنها عمل مؤلم لا رحمة فيه. في أغلب الأيام كنت أتمنى أن ألاّ أستيقظ ليوم جديد. لم يكن هناك يوم جديد. اليوم طبعة مملة من اليوم الذي سبقه والذي كان طبعة تافهة من اليوم الذي سبقه وهكذا. أصحو من الفجر لتجهز لي أمك خبزا، تضع الزبد أو السمن الحيواني في آنية المعدن وتعطيني علبة الدخان الذي أدمنته. لا أعرف لماذا كانت تحتفظ بعلب الدخان في غرفتها كما تحتفظ بجلال التمر وعكّة السمن وكأنها مسؤولة التموين في البيت الذي لا يضم سوانا وطفل في المهد ورجل عاجز كليا. ربما لأن ذلك ما تفعله النسوة اللواتي يدرن المطابخ. لم يكن ذلك يزعجني. المهم أنني أترك في البيت من يهتم بوالدي في غيابي. وأقنع نفسي بأنني أعيش، أخرج للفلاة وأعود لبيت في الفلاة المجاورة.

أرحل للرعي في الدوّ الفسيح خلف منازلنا في الجهراء وأقطع أميالا طويلة لا أبحث عن شيء في أغلب أيام السنة عدا أيام الربيع المحدودة على هذه الأرض القاحلة. كانت أغنامي لا تجد سوى الورق والخشاش الذي تعتاش عليه في النهار وما أستطيع توفيره لها من علف في آخر النهار. الحياة ليست سوى الملل الذي يصيبك بالكآبة. لم يكن هناك سبب تصحو من أجله في الصباح ولا عمل مهم تنام باكرا من أجله. سلوتي الوحيدة هي الكتب القليلة التي أحصل عليها بطريقة أو بأخرى وأقرأ بعضها مرات ومرات لأقتل هذا الوقت البغيض.

كان كل شيء مكررا حتى كبرت أنت وبدأت تستطيع أن تجري حوارا معي، حوارا يمكنه أن يخترق سكون هذا الكون الذي يحيط بي ويوهمني، مجرد وهم، أنني أمتلك مستقبلا لطفل لا أريده أن يكون أنا، أنا المنبتّ ككائن لم يخلقه الله من أحد ولن يخلق منه أحدا.

كنت أعرف أنك ستكون الأول في كل شيء ويقيني الكبير أن كل ما فعله الله بوالدك وأمك وجدك وما فعله بي لاحقا كان من أجلك. ولكني كنت مخطئا. حرمتك من طفولتك وأجبرتك على العلم والكتب والأغاني التي أحبها لتكون نسخة أجمل مني. كنت مخطئا. ولم أكتشف ذلك إلا متأخرا حين اخترت أنت طريقك، الطريق الحقيقي والذي لم يفرضه عليك أحد.

هل أنت غاضب مني يا بني؟

لا يا خال. غاضب نعم ولكن ليس منك، ليس منك.

نهض رومي وأعد شراب اللبن الذي يحبه خاله بعد أن مزج الزبادي الرائب بالحليب وأضاف إليه قليلا من الملح.

أحضرت لك تمرا وسمنا

بدا الخال يضع التمرة في السمن وقبل أن يضعها في فمه شـــمّ رائحة سمن الجاموس

هذا ليس سمننا.

أعرف. لن تجد سمنك هنا.

هل تصنع لنا قهوة عربية؟

لا أعرف.

أنا سأساعدك.

كيف؟

لا بد أن نجمة وضعت قهوتي في مكان ما. كانت تفعل ذلـــك دائما. ابحث في أمتعتي.

فتح رومي كيسا في الحقيبة وضعت فيه نجمة قهوة عربيـــة ودلـــة صغيرة وفناجين قهوة. الخال يوجه رومي كيف يصنع قهوة عربية وكأنه يدربه كيف يحدد إحداثيات مدفع "أبو رديّن". أنهى الخـــال توجيهاتـــه وأنجز رومي القهوة وتركها قليلا ثم عاد لكراسه وكأنه أمـــام واجـــب مدرسي والخال يستجيب بسعادة وارتباك من يحاضر للمرة الأولى.

أخذتُ ورقة تثبت أنني أنا ضيدان ناشي ضيدان وأنني أنتمي إلى قبيلة صاحب المسطر الذي كلفته الحكومة بتجنيد أبناء قبيلته. تزاحم الرجال أمام مدخل "الجيوان" وهو المعسكر الذي ندفع إليه بأوراقنـــا وأجسادنا وأحلامنا كي نعبر من شظف إلى شظف ومن خيبـــة إلى خيبة. كانت السعادة التي تملأ محيّا الرجل الذي أمامي تعادل البلاهة ذاتها على وجهه. وعرفت أن والدك لم يُسْد لي معروفا حين علّمـــني الحرف قدر ما ساق لي شقاء هذه المعرفة كلها.

صرخ رقيب بدوي بالرجال الذين تبعثروا حوله كبرادة الحديد حول مغناطيس، تتحرك أينما تحرك وتقف حين يقف.

"يا بشر بالدور، صفوا صفا واحدا وأنا أنهي أموركم بسرعة"

ولكن محاولة صنع صف واحد كانت عصية عليهم. فما كان منه إلا أن استدعى رجال الانضباط العسكري ليتناثر الرجال خارج البوابة ويغلقها أحدهم. كنت أود العودة وأن أمزق ورقة هذا المسطر وأعود لحياتي وأغنامي وأنتظر هذا اللاشيء الذي لا أعرفه. ولكني خشيت من أن أفشل أمام نفسي، لم يكن أحد ليهتم بفشلي. جلست بعيدا عن الزحام والأجساد التي تلقي بنفسها على حديد البوابات. حتى تفتق ذهن الرقيب البدوي عن حل لهذه الفوضى.

بدأ ينادي بأسماء أصحاب المساطر، ويطلب منهم أن يصطفوا بعيدا عن الزحام. يأخذ أوراقهم ويدخلهم واحدا واحدا حسب الأسماء التي معه. انتهى النهار و لم يناد على مسطرنا. وعدنا في اليوم التالي و لم يتبق سوى مسطرين أحدهما ضم اسمي مع رجال من قبيلتنا.

بعد أشهر قليلة من المراجعات الطبية ولجان تحقيق أصبحت الجندي ضيدان وشعرت أخيرا بأن هناك تغييرا يطرأ على حياتي. لقد رهنت حياتي للأسوار وثكنات الجيش وسباب المدربين وعقابهم ومنحتهم حريتي وكرامتي لمجرد أن تتغير ملابسي وأخلاقي وبراءتي. حين كنت راعي أغنام ومثقفاً. كانت حياتي ملكي وليس بمقدور أحد أن يخترقها. ولكن كان علي أن أرهنها للحكومة من أجل هذه الأوراق البليدة التي ضحيت بحريتي من أجلها. لدي هوية شخصية تحمل رقما وإجازة قيادة وجواز سفر وكأني ولدت اليوم في معسكرات جيوان.

لم يكن معسكر جيوان أو ثكنات العسكر ستهتم بالكتب والمجلدات التي قرأتها منذ أن تعلمت الحرف الأول من الأبجدية، ولن تكترث بأغاني عمالقة الفن والقدود الحلبية. كان علي أن أبقي ضيدان الأمي ككل هؤلاء الأميين الذي أشاركهم الثكنة وساحات التدريب وقاعة الطعام وحمامات المعسكر الرطبة ورائحتها الخانقة. كان علي أن أترك عقلي عند البوابة التي يحرسها العسكر برشاشاتهم وأستعيده حين أخرج.

لم يكن كل القادمين من شمال الصحراء وجنوبها يستطيعون احتمال قسوة التدريب الذي يقوده عساكر قادمون من الجيش العربي في الأردن وفلسطينيون عاشوا الحروب العربية الإسرائيلية وحروب البدو. كنت أستمع طوال الليل لعويل شباب نجران كذئاب جريحة، وما إن ينتهي عويلهم ويتوقف صداه الذي يرج جدران الثكنة حتى نتمكن من النوم لنفيق على أسرّتهم باردة بعد غياب أجسادهم.

أشعر بأنني شخص آخر هنا وعلي أن أستعيد الشاب الذي يمضي نهاراته يستظل عباءته ويقرأ دواوين الشعر وكتب التاريخ وقصص ألف ليلة وليلة. قررت ألا أبيع أغنامي وأن أقسم نفسي بين العسكري الجاهل ضيدان والراعي المثقف ضيدان. الأمي المطيع بصمت والسيد المستقل. الشاب البدوي الذي كان يظن أنه يحكم الكون من جهاته الأربع يتقبل أن يطأ مدرب الفصيل على ظهره وهو يزحف على كوعيه وركبتيه. ولا ينفعل كما انفعل سعيد النجراني الذي استمر في عوائه حتى منتصف الليل ليتسلل خارجا ويقدّ المدرب بحربته ثم يقفز أسوار المعسكر كشبح ويختفي كسحابة من دخان.

أنهيت دورة الأغرار بكفاءة عالية كما يقولون دون أن أرى سببا منطقيا لهذا التفوق على مجاميع أقل مني كفاءة. كفاءة عالية، كأن أنصاع لأوامر غبية، كأن أقف على رجل واحدة لأطول مدة ممكنة ومن يفقد اتزانه عليه أن يتلقى الصفعة ليسقط أرضا وأن يقوم بتلميع حذاء المدرب الذي دخل به العسكرية قبل سنوات.

خسرنا مجموعة من المتدربين ومدربا واحدا وكرامات هنا وهناك. حاول المدرب غير المقيم أن يعانقنا كمن يعتذر عن عذاباتنا الصغيرة على يديه و لم أجد سببا لقبول اعتذاره. ليس لي أن أقتنع بأنك تصنع رجلا عنيفا بمجرد أن تشتم أمه أو تضع بسطارك العسكري على جسده. لكنني مارست ما لم أكن مقتنعا به فيما بعد مع عساكر آخرين.

كنا نتوقف فصائل من ثلاثين رجلا في الساحة، أمامنا ضباط برتب مختلفة قادوا بعضنا إلى ناقلات عسكرية، أما نحن الذين تفوقنا كما يقولون فقادنا ضابط برتبة مقدم إلى سيارة تقف في البعيد يقودها عسكري ضخم الجثة لم يرد علينا السلام و لم نسمعه يتحدث إلا بكلمة نعم سيدي حين أمره الضابط بالتحرك إلى المعسكر. نتلفت في وجوه بعضنا ولا نعرف أين هو المعسكر الذي يريده الضابط. السيارة تتجه إلى الشمال الغربي وذلك يعني أننا سنكون في معسكر قريب من الجهراء. وحين اقتربنا من الجهراء دخلت السيارة اللواء الذي تقصده. توقفت في منتصف الساحة واقترب منا ضابط برتبة ملازم ورقيب طلب منهم المقدم أن يهتموا بنا.

وضع الملازم يده على كتفي، رفعها ثم تحرك ليضعها على أكتاف عشرة عساكر

"ستلتحقون أنتم بسلاح المدفعية"

تركنا في مكاننا وسار بالبقية إلى جهة أخرى تاركا الرقيب معنا. سار بنا الرقيب إلى مطعم الأفراد وكانت الساعة الثانية ظهرا تقريبا و لم يكن في المطعم أحد من العسكر ولكن رائحة هذا المطعم هنا أفضل كثيرا من رائحته في معسكر الجيوان. صرخ الرقيب بالطباخ وطلب منه أن يعد لنا طعاما. حين غادرنا كان دمي يكاد يحتك بجدار شراييني كي أدخن. أخرجت علبة الدخان ودخنت ثلاثة سجائر أشعل كل واحدة من الأخرى حتى جاء الطعام. لم يكن اللحم الذي شممت رائحته. شوربة عدس في قدر كبير وصمون ناشف وشاي في سطل صغير.

"يبدو أن الحياة التي تركناها أفضل من حياتنا هنا"

عاد الرقيب ونظر إلى طعامنا وصرخ ثانية يشتم الطباخ ويطلب منا أن نتوقف عن الأكل.

"أحضر لهم لحما وأرزا حالا، هؤلاء عسكرنا الآن"

تأفف الطباخ وغادر إلى الداخل والرقيب يتبعه بالكلام

"هل تذبح لهم خراف أبيك يا جحش"؟

عاد الطباخ بالأكل ثانية وتذوقه الرقيب وكمن اطمأن إلى أنه هو أكلهم المعتاد هنا طلب منا أن نخرج أواني الطعام من حقائبنا ونغرف ونأكل كما نشتهي.

"إذا لم تشبعوا اطلبوا منه ثانية، الأكل كثير"

وغادرنا ثانية.

جهزوا لنا أسرة في إحدى الثكنات التي اقتسمناها مع عساكر سبقونا إلى هنا. ولكن الملازم عاد ثانية وطلب منا أن نخرج في إجازة لثلاثة أيام ثم نعود إلى المعسكر. خرجنا من الباب إلى الشارع ننتظر

سيارات عابرة ونحن نفكر ماذا سنصنع بثلاثة أيام من الحرية. أما أنا فأعرف أين أمضي أيامي الثلاثة.

حين وصلت البيت سمعت أمك تزغرد وهي تستقبلني وكأنني قائد حرر الأقصى. وضعت يدي على فمها ودخلت بها إلى الداخل. استبدلت ملابسي، قبلت والدي، تناولت كتابا وخرجت إلى البرية أريد خيمة الراعي الذي استأجرته ليرعى أغنامي. بقيت في الخلاء لثلاثة أيام هي إجازتي وكأنني أمارس حريتي التي سلبت مني في الأشهر الماضية. أنهيت المجلد الذي معي وقررت أن أعود في اليوم الثالث قبل غروب الشمس لأنام باكرا استعداد لمجهول يوم الغد. تذكرت أنني في سلاح المدفعية وأن علي التأقلم على القيد الذي أحكمته حول يدي.

في فجر ذلك اليوم صليت الفجر ولبست ملابسي واتجهت سيرا على قدمي حتى الطريق المعبد "بالجتش" الأصفر وهو ذات الطريق الذي أشار العسكري الذي نقلني من المعسكر أن أتوقف فيه بانتظار سيارات مدنية وعسكرية تتجه لمعسكر اللواء. لم أنتظر طويلا حتى توقف عسكري وأقلني معه مقابل حديث بطول المسافة التي سارها يسألني عن كل شيء وأجيب باقتضاب أزعجه. أوقف السيارة خارجا ثم سرنا حتى البوابة الرئيسة ورجل الانضباط العسكري يدقق في كل شيء. هندامك الخارجي، لمعة بسطارك العسكري الذي مسحناه بمناديل صفراء ثقيلة وبعض البصاق، لحيتك الحليقة يمرر عليها قطعة من البلاستيك بعكس منبت الشعر ليسمع هسهسة الشعر. يرفع "البريه" عن رأسك ويتأمل طول شعرك.

"هل سنكون كذلك في حالة الحرب"؟

"ثابت يا عسكري"

صرخ بـــي. ونحن نغادره قال العسكري الذي رافقته

"معك حق في الحرب يجب أن نكون عكس هذا تماما".

افترقنا وأنا أشاهد عددا من زملائـــي يتوقفـــون في الســـاحة الإسفلتية استعدادا لطابور الصباح.

"هل أفطرت؟"

قال لي أحدهم.

"لا، وأنتم"

"بسرعة معك ربع ساعة فقط وأمامك يوم طويل"

وأشار إلى مطبخ الأمس. وكنت أريد أن أقسم الربـــع ســـاعة المتبقية للإفطار ولسيجارة من علبة الروثمان العريض.

توقفنا نحن العشرة الذين اختار لنا الملازم ســـلاح المدفعيـــة في زاوية من الساحة ننتظر ما سيحدث وما سيكون من أمرنـــا. رأينـــا الرقيب يتجه نحونا ويقف أمامنا بحالة استعداد تام. تحركت الفصائل الأخرى و لم نتحرك. من الواجهة الأمامية للطابور تقدم ضابط برتبة رائد وسيم أبيض البشرة نحونا يتأبط عصا من الخيـــزران وفي يـــده اليسرى كراس. بلهجة فلسطينية أمر الرقيب

"تحرك نحو السلاح"

كان الدرس الأول هو التعرف إلى سلاحنا الجديد الذي بـــدا مهيبا بمعدنه الصلد وذخيرته المصقولة. لم يتدخل الرائد الذي قدم اسمه لنا سليم زعيتر وكنت أظنه في أول الأمر أردني لكني عرفت أنه مـــن فلسطينيي نكبة 48 استعان به الجيش الكويتي لتدريب أفراده علـــى سلاح المدفعية الفرنسية.

في الاستراحة جلسنا جميعا، نحن العشرة، على الأرض في ظل شجرة إثل بينما جلس الضابط بعيدا على كرسي خشبي متهالك وهو يدخن. يجلس بالقرب منه الرقيب. اقتربت منه وحييته باحترام

"سيدي هل أستطيع أن أقرأ هذا الكراس الذي بيدك"

"هل تعرف القراءة؟"

"نعم سيدي"

"أين تعلمتها؟ في المدرسة؟"

"لا تعلمتها على يد رجل متعلم"

"جيد، جيد، ولكنك لن تفهم هذا الكراس، عد إلى استراحتك"

حييته وعدت إلى جماعتي الذين لم يستمعوا للحوار الذي دار بيننا. وبدأت كراهيتي لعنجهيته وغضبي من تهوري وأنا أسأله ليردني.

أنهينا حصة التدريب والرقيب يسألني

"أين تعلمت القراءة؟ في أي جيش خدمت؟"

ولا أرد عليه.

عدنا إلى مهجعنا كان هناك عساكر يقتسمون الثكنة معنا. أحدهم يعد القهوة العربية ويقوم آخر بفرش المساحة خلف الثكنة بالبسط والمساند ثم يدعونا لنجلس في دائرة من عشرين شخصا تقريبا. كان بعضهم يدخن الأرجيلة برائحتها الخانقة ودخنت سجائري دون أن أهتم بأحاديث العساكر القدامى عن حياتهم هنا وكأنهم يجنّبوننا ثغرات وخيبات قادمة.

علينا أن نقيم في الثكنة ثلاثة أيام على أن نمنح نصف يوم إجازة، ولكن ذلك لم يكن ينطبق على الدفعة التي سبقتنا والتي تخرج بعد يوم ونصف اليوم لتعود في صباح اليوم التالي.

في يوم التدريب الثاني وبعد نهاية اليوم طلب الرائد زعيتر من الرقيب أن يصطحبني إلى مكتبه في إدارة السرية. لم أعرف سبب الاستدعاء وليس لي أن أرفض

"ما اسمك "؟

سألني الرائد بعد أن رد التحية

"جندي ضيدان ناشي ضيدان"

ابتسم الرائد وكأنه يقول لي عليك أن تنسى بعض تعليمات الأغرار

"لا بأس. سأمنحك الكراس إذا أخبرتني أين تعلمت القراءة"

وافقت على العرض وقلت له القصة كاملة وسلمني نسخة من كراس المدفع الفرنسي مترجمة للعربية. لم أذهب للثكنة حيث يجلس العسكر بين حائطها والشجر المحيط بها. كان علي أن أفهم هذا القاذف الساحر وكل تفاصيله وطريقة عمله. لم أتركه حين غابت الشمس إلا وأنا أعرفه جيدا.

رومي يعرف أن خاله يتحدث كمن يغمس كلماته بماء الحنظل. يغمض عينيه وهو يستحضر ماضيه بشقيه فسأله

"هل كنت تفضل أن تبقى راعي الأغنام الحر عديم الهوية والجواز وإجازة القيادة أم العسكري أسير الأسوار وصاحب هذه الأوراق".

"كان ذلك ممكنا قبل تشكل الدولة، تشكلت الدولة وأصبح من الصعب أن أعيش دون أن أسلّمها بعض حريتي".

"حسنا سأتركك لترتاح الآن وغدا نكمل"

وقبل أن يغادره

"أعرف سأطفئ النور".

القَرْو

كان رومي قد جهز كل شيء قبل أن يصل المستشفى. طلب من خاله ضيدان أن يرتدي ملابس إفرنجية وقبعة رعاة البقر وحذاء بعنق متوسط الطول. طوى الكرسي المتحرك ووضعه في صندوق سيارة "الفان" البيضاء وطلب من خاله أن يحاول المشي قليلا.

"إلى أين سنذهب؟"

"حين نصل ستعرف".

لم يتبادل الشاب والخال حوارا منذ أن غادرا العاصمة ودخلا الريف الإنجليزي. الخال ينظر من الشباك للسهول الخضراء تمتد حتى تلتقي السماء في جهة وزرقة النهر في الجهة الأخرى. أحسّ بأن هذه الأرض هي التي يجب على الرعاة أن يروها قبل الموت أو يموتوا فيها.

دخلت سيارة الفان إحدى المزارع المسوّرة من بوابة صغيرة تطاردها الكلاب. يرى الخال الآن إلى أين يريد به رومي؛ قطيع الماشية في الجهة اليسرى وأبقار في الجهة اليمنى. استقبلهما صاحب المزرعة مرحبا برومي وجلسا في المنصة المعدة لاستقبالهما.

أعد الرجل الشاي والحليب وقدم أنواعا من البسكويت الإنجليزي وقليلا من فاكهة الموسم ثم تركهما وخرج إلى المرعى ليجلب الأغنام أمام نظر الخال الذي سأل رومي

"أريد سيجارة"
وضحك.
نهض رومي إلى "الفان" وأحضر علبة روثمان عريض.
"هذه أصلية من بلد المنشأ"
شدّ على يده وعلى علبة الدخان وبكى
"لماذا تركتني؟ كنت أنت الوحيد الذي أحتاج إليه"
"وأنا أيضا كنت أحتاج إلي. اعذرني يا خال"
اقتربت الأغنام وضيدان يمسح دموعه ويضحك.
"هذه ليست أغنام ضيدان، أغنامي تعرفني"
تناول رومي كراسه وأشعل سيجارة أخرى لخاله

أقضي يوم إجازتي في البرية بعيدا عن الناس التي أشغلتْ نفسَها بالناس. كانت حياتي وسط الأغنام أكثر متعة، فهذه الحيوانات الصامتة تسعدني بصمتها. في نهاية يوم نحسي الأكبر كنت عائدا من الفلاة بقطيع صغير من الأغنام إلى المنزل. في الطريق مررت بالقَرو لأسقي الماشية من بئر ارتوازي نورد الماشية عادة منه. أدرت صنبور الماء وملأت القرو من الحوض الكبير لم أنتبه للون الماء وكأنه سائل يسبح في سائل يشبه الكاز الأبيض. شربت الماشية وكنت عطشانا وشربت. أحسست بما يشبه النار تسري في جسدي وأسرعت أمنع الماشية عن الماء وأزجرها. سرت بها أكثر من خمسة كيلومترات حتى استطعت أن أصل البيت وألقي بنفسي في الحوش بالكاد ألتقط النفس وأخرجه لألتقط النفس التالي بصعوبة وكأنني أمارس عنوة بقائي حيّا. لا أعرف بعد ذلك ما الذي حدث حتى وجدت نفسي في سرير مستشفى يتم التعامل معي كحالة ميؤوس من شفائها.

الصور الوحيدة التي تراودني في تلك المحنة هي أصوات المدافع وحركة الأفراد من حولي وهي تلقمه القذائف التي كنا نطلقها في حرب وهمية وصور ثغاء الماشية وجرس المرياع وهو يقود الأغنام إلى حيث يريد الراعي. أنا الرجل الصارم أحد أفراد حظيرة المدفع الذي يرتفع صوته وسط دوي المقذوف واهتزاز القاذف والراعي القارئ الذي يضع ساقا على ساق في خيمته الصغيرة أستمع لأغاني الراديو وأترنم معها بهدوء كي لا أزعج السكون من حولي.

حين خرج الطبيب الشعبي واستعدت صحتي تدريجيا عرفت أنني عقيم وأني لن أترك هذا الوهم الذي أعيشه إرثا لأحد. عرفت أنني لن أداعب طفلا ولن أراه وهو ينقض كسلوقي صيد على حمل صغير ويطرحه أرضا ولن ينادي حين تُجرَح ركبته "بابا" وهو يشير إليها. لن تكون لي طفلة ربما كبرت وزوجتها لك لأمنعك من الرحيل. عرفت أنني عقيم وأنني آخر سلالة لا أعرف أولها لكنها انتهت عندي. وحزنت.

لم أستسلم لقدري. ما لا تعرفه عني يا رومي أنني عالجت نفسي منذ بداية مرضي حتى قناعتي الأخيرة بأن العقم هو أفضل ما يجب أن نتعرض له في هذا البلد. كان بودي أن يخصوا كل هؤلاء البؤساء الذين يعاملونهم كبغال الجيش يطلقون عليها النار في نهاية خدمتها. العقم الذي فشلت في مقاومته هو الهبة الأجمل من الخالق، الذي كنت أبتعد عنه في نهاية حياتي، كي لاهب من يأتون بعدك هذا العذاب الطويل الذي عشته.

كان معالجي أخصائي عقم في شارع "فهد السالم". رجل بشوش يمنحني وقتا طويلا وكأنني العقيم الوحيد الذي يعرفه في البلد.

يحدثني عن اليأس الذي عليّ أن أتقبله وأحدثه عن الأمل الذي أعيش به. أخرج منه بمجلة طبيبك أو أي مجلة قديمة لا يحتاجها. زرته آخر مرة بعد التحرير وقد رفضوا تجديد إقامته، احتضنني وهو يقول

"هذه المرة سأحسدك لأنك عقيم، هذا الوطن العربي كله لا يستحق ابتسامة طفل".

لم يبك و لم أبك في وداعه، تأملت وجهه يتغضن ومئة علامة أسف على وجهه

"أنت ستعود إلى بلد تمارس فيه خبرتك الطويلة، من سيقبل برجل مَدافِع مثلي، كنت تعطي الناس الأمل بالحياة وأعطيهم الموت".

حين تماثلت للشفاء على يد الطبيب الشعبي كانت الطائرة تقلني إلى حرب هزمنا فيها قبل أن تبدأ. لم أقاتل فعليا، كنت في الخط الثالث ولا أستبدل مع حظائر الخط الأول. في أيام الإجازة نذهب إلى العاصمة أكتفي بكتاب في كل مرة وعشاء في مطعم وأستمع للراديو في المقهى وأنا أدخن. بعد أشهر قليلة طلب آمر اللواء أن أعود إلى الكويت. ولكن هذه النزهة في حرب 67 لم تكن كذلك في حرب 73. في الحرب الأخيرة كنت أعانق الموت وأعضّه حتى يطلقني ويعضّني حتى يكاد يقضي علي.

نهض رومي من كرسيه وصب الشاي ثانية للخال الذي أشعل سيجارة جديدة بعد أن مررها على أنفه واستنشقها

"هل تعرف أن التدخين ممنوع عليك؟"

"لماذا ممنوع علي؟ هل سيطول عمري إذا امتنعت عنه؟"

"لا أعرف ولكني أريدك أن تستمتع بما يمتعك. سنخرج كل يوم لتدخن"

"هل هنا قهوة؟"

"نسيت أن أحضر دلّة نجمة وقهوتها"

نهض رومي للداخل كان صاحب المزرعة يجلس على سرير ويتابع مباراة في كرة القدم.

"هل يمكن أن تصنع لنا قهوة؟"

ونهض الرجل مرحّبا

"بالطبع! سأصنع لكما أطيب قهوة"

حين عاد رومي كان الخال يتريض بالقرب من الأغنام ويداعب الكلب الذي يقعي قبالته كمن يتعرف عليه.

أبو رديّن

"إلى أين ستأخذني اليوم"

قال الخال ضيدان ورومي يجهزه للخروج

"سنذهب لترى متنزّه **الهايد بارك** وسنشرب قهوة نجمة العربية وتدخن"

جلس الاثنان على ضفاف بحيرة **سيربنتاين** بعيدا عن صخب المتنزه في هذا الوقت من العام. لم يتبادلا حديثا، كان الخال يتأمل الغيوم البيضاء المتفرقة وانعكاسها على الماء والبط الذي يتحرك بهدوء بين بياض الغيم المنعكس وزرقة الماء، بينما رومي يرتب كراسه ويستعيد ما كتبه حتى الآن.

"هل عشت حياتك بين هذه الطبيعة؟"

يسأل الخال ضيدان رومي

"عشت يا خال وما زلت أعيش. سعادتي ليست الطبيعة فقط وإنما الإنسان، الإنسان الذي اكتشفته بداخلي"

"هل تعتقد أنني نادم لأنني أعطيتهم كل شيء؟"

"أنت نادم. بالتأكيد أنت نادم"

"لا يا رومي لست نادما ولكني حزين، حزين فقط لأنهم كانوا يكذبون وهم يأخذون كل شيء. في الحرب السابقة زارنا مسؤول كبير وقال لنا أنتم أبناء هذا الوطن وحين ترجعون سننهي أمور

تجنيسكم، عدنا أحياء وشهداء و لم يلتق بنا أو يهتم بنا أحد"

"لن ترجع إليهم ستبقى هنا معي وستأتي نجمة أيضا لتعيش معك"

نهض الخال من مكانه وألصق جسده بجسد رومي ووضع يده على كتفه

"لا تتركني أموت غريبا هنا، حين أموت أعدني إليهم هؤلاء الذين يكذبون. إنهم أهلي وأريد أن أُبعث في قيامتي معهم"

ابتسم رومي وهو يعرف أن الخال لا يحتمل البعد في الموت كما لم يستطع البعد في الحياة.

"اكتب يا رومي!"

بعد هزيمة 67 غلبنا اليأس وأدركنا أن هزيمة إسرائيل مستحيلة. كانت الجيوش العربية تجهز لحرب و لم نكن نعرف متى ستقوم ولكنها ستقوم. طوال هذه السنوات ونحن نتدرب وكأننا في حرب. في ليلة من ليالي أكتوبر 73 طلب منا الآمر أن نذهب لنودع أهالينا ونعود قبل شروق الشمس. كنت حديث زواج لم أستمتع به كما يجب. نجمة كانت صغيرة السن، أنت تفهم الآن، كانت تنام على فراش من القطن على الأرض بجانب سريري الخشبي المرتفع قليلا عن الأرض. حين غادرت كانت نائمة كطفلة. رأيت أمك في الباب تنتظر خروجي. قالت إنها لم تنم وكانت تصلي طوال الليل كي يحفظني حتى لا تضيع العائلة. أخبرتها أين أضع النقود التي ادخرها والدي وأن تتقبل غيابي. وبكت. غادرت دون أن أحتضنها أو ألقي نظرة أخيرة على والدي. كان لدي أمل كبير بأن أعود سالما من هذه الحرب القاسية.

"لواء الجهراء" هو اسم اللواء المحفل الذي يضم سرية المدافع التي تضم حظيرة مدفع الهاوتزر الفرنسي الذي أصبح صديقي الحميم وأصبحت آمر حظيرة من خمسة أفراد يشرفون عليه وعلى ذخيرته. كان آمر القوات يقف أمامنا يشد من عزمنا ومسؤول كبير من الحكومة كنا رأيناه في الحرب الأولى يؤكد لنا ثانية أنه سيتم النظر في موضوع تجنيسنا حين نعود. ضحكت في سرّي وعرفت أنه مجرد وعد يشبه الوعد الذي قبله.

تم شحن معداتنا برا وسافرنا جوا للجبهة السورية هذه المرة. تم الاتفاق أن ندافع عن دمشق وأن تستقر القوة في منطقة السيدة زينب، لكن آمرنا رفض ذلك وطالب أن نشارك في القتال الذي جئنا من أجله. وتم نقلنا إلى سفح جبل الشيخ في مواجهة مباشرة مع العدوّ.

تمركزت قوتنا في موقع مثالي نستطيع من خلاله القتال بمدى مدفعية أفضل من المدفعية السورية ولمدى 22 كيلومتر. كان الرجال الذين معي خمسة أبطال أطلقت على أحدهم المجنون. لم يكن ينام سوى ساعتين ويسهر طوال الليل معلقا الراديو الذي اصطحبته معي على سارية العلم التي ترتفع خلف المدفع ولا تعرف إذا كان يطرب لصوت القصف أم لصوت الراديو.

كانت سيارة المؤن تقف في الصباح توزع علينا اللحم والأرز وما نحتاجه من مؤونة وقبل أن تغادر قفز غازي المجنون إليها واستل خروفا كاملا وهبط وهي تسير في الطريق البرية متجهة لفصائل أخرى.

"لماذا فعلت ذلك؟ الأكل كثير هنا".

"والأكل كثير لديهم سنقيم وليمة الليلة".

في الجهة القريبة من موقعنا كانت هناك حظيرة مدفع عراقية طلبت من المجنون أن يدعوهم للعشاء معنا. أعد المجنون وليمته المسروقة وقد توقف القصف في المساء وهبطنا الخنادق بعد أن موّهنا المدفع. حضرت الحظيرة العراقية وكان معها ملازم أول عرفني على اسمه "مازن الشعلان" هو مساعد سرية المدفعية. تبادلنا الحديث والدخان وبعد العشاء طلب الشعلان أن يكون العشاء في الليلة المقبلة في خندقهم.

في صباح اليوم التالي اشتدت المعركة وبدا تبادل إطلاق النار مرعبا. كنا نرد على القصف بقصف أشد وحاولت الطائرات أن تحلق فوقنا وتسقط قنابلها باتجاهنا واحتدمت معركة السماء كما هي معركة الأرض. كنا نود لو أننا نطلق ألف مقذوف في الدقيقة لنسكت أصوات قذائفهم. القذائف تتساقط بالقرب منا وبدا الخوف يدب فعلا على قلوب أفرادي وأرى الموت على وجوههم. لا شيء يمكن أن نفعله سوى الرد على القصف بالقصف. ألقى المجنون ملابسه العلوية ومازال الراديو يغني وكأنه في نزهة ويصرخ بالآخرين ألاّ يفتر جهدهم.

سقطت قذيفة بالقرب وتطايرت أشلاء الأرض التي حفرتها. عفرنا ترابها وأخذ العساكر يزحفون إلى الخندق وسقطت أخرى وأخرى وخشيت أن تسقط قذيفة مباشرة على الخندق فتدفنهم أحياء وصرخت بهم أن يثبتوا مكانهم حتى يهدأ القصف. ولكنهم لم يسمعوا صرختي وسط هذا الدوي الهائل للقذائف والذي يصم الآذان ويفزع الروح. اقتربت من أولهم ونمت إلى جواره رأيته يصرخ دون

صوت. ربما أصيب بالذهول ورأيت المجنون يقف على رأسي عاريا وهو يقول "ننام وهم يقصفوننا، انهضوا" ونهض الرجال عدا صاحبي هذا الذي ظل يصرخ دون أن نسمع له صوتا.

"هل أنت خائف من الموت؟ لا تكن عارنا"

سحبته حتى الخندق ودخله يزحف كوَرَل مذعور من أفعى. عدت إلى المدفع وقررنا أن نباشر القصف ونحن نستمع لمدافع حظائرنا تَقصف وتُقصف.

تلبدت السماء بالسحب البيضاء التي غادرت سفح الجبل تحت وابل القذائف وكنت أخمن أن الموت في حالتنا عمل إرادي. لم تعد تفكر بما وراءك وما عليك أن تفعله بعد سنة من الآن، عليك أن تقاتل لتعيش لدقيقة قادمة. كل دوي حولك هو موت كان بالإمكان أن يصيبك وكل قذيفة تطلقها ليس بالضرورة لتقتل غيرك ولكن لتدفع الموت عنك. لا شيء يحميك من الموت سوى الأرض التي حفرتها لتحتمي بها منها، وربما يكون خندقك الذي حفرته هو قبرك.

صوت المدافع يشعرك بأنك في دوامة الحرب ولكنه ليس نذير موتك قدر ما هو اطمئنانك. تلجأ إليه بشموخه وعنفوانه وبدويّه الفاتن. وجوده أمامك كسرية كاملة من المقاتلين يبعد عنك وحشية المعركة وحين يصمت تعرف بأن كل شيء من حولك قد صمت إلى الأبد.

مضى أغلب النهار ويبدو أننا قمنا بعمل خرافي توقفت القذائف التي تتساقط حولنا وبدأنا نتأكد من حياتنا. هبطت الخندق لأرى الشاب. كان يرتجف كمصاب بحمىّ.

"ما بك؟ انهض! توقف القصف"

"إنني خجل منك"

"لا عليك لقد أخرسنا مدافعهم"

ابتسم وهدأ جسمه ثم نظر إلي

"لقد مات والدي في الحرب الأولى وتـــرك لي ســـت بنـــات وطفلين، حين أموت.."

بكى على كتفي و لم يكمل. رأيته يضم رأسه إلى صدري بقوة وكأنني ساتره الترابـــي الوحيد الذي سينجيه من الموت.

"ولماذا التحقت بالجيش إذن؟"

"وأين يذهب أمثالنا، ليس لنا سوى الجيش"

كان محقا، وهو لا يختلف عني أبدا كان بودي أن أجد وســـيلة ليعيش ولكن لا الخندق ولا العراء طوق نجاة. تمنيت أن يصاب بجرح وأعيده إلى الخطوط الخلفية. أعرف أن ظروف الآخرين ليست أفضل منه. بالتأكيد هنا من هو أسوأ منه ويكتم مأساته الخاصة بين أضلعه. لبس الشاب خوذته وكمن استسلم للواقع وخرج إلى زملائه وطلب من مساعد الرامي أن يرتاح قليلا ويحل محله.

بدت القذائف تسقط بعيدا عن حظيرتنا، نسمع دويهـــا فقـــط ونرى السحب الرملية التي تخلفها تصـــعد كـــأرواح الشـــهداء إلى السماء. جهزنا ذخائر مدفعنا وبدأنا نسيطر على المسافة التي يمنحهـــا لنا مدى المدفع وما نسمعه بوضوح هو أغاني المجنون ودوي المـــدافع. أزيز الطائرات في البعيد هو الصوت الأكثر رعبا حين عبرت السماء فوقنا سمعنا دويا رج الأرض تحتنا. توقعت أننا قصفنا مباشرة. رفعت رأسي أتفقد أعضائي والموتى حولي كان المجنون يصرخ

"قصفوا موقع العراقيين.." ويكررها وهو يركض نحو موقعهم ويعود كمن يتوقع قصفا جديدا لموقعنا وفي محاولته التالية شددته إلى الخلف

"خذ مكاني"! قلت وركضت بكل سرعتي إلى الموقع الذي تناثر على مساحة واسعة من الأرض. حين وصلت أرعبني منظر الخندق المقصوف وكأنه جرح مفتوح يتقاطر أشلاء ودماء. على بعد مئة متر كان الصوت الحي الوحيد للملازم مازن يكاد يزحف وكأن باستطاعته أن ينقذ أفراده الذين اختلطت دماؤهم بالحديد الذي سقف به الخندق. ركضت نحوه كان مصابا بفخذه وساعده. نزعت عنه ملابسه ومزقت قميصه لأربط فخذه وساعده.

"جرحك ليس عميقا"

قلت ولكنه نظر إلي

"لا تهوّن علي سأفقد ساقي، أعرف ذلك"

"أنت لا تعرف شيئا. سأنقلك للخط الثاني. هناك سيارات السرية والعيادة الميدانية"

حملته على ظهري. كان شابا نحيلا وخفيفا وكان عليّ أن أقطع كيلو متراً حتى الخط الثاني لقيادة سريتنا. كنت نشطا في المائة متر الأولى وبدأت أفقد طاقتي وسمعته يئن.

"من الأفضل أن تتركني هنا وتعود بسيارة إنقاذ"

"ستكون نزفت كثيرا، العيادة قريبة"

حاولت أن أهرول لأثبت له أنني متماسك وقوي.

"اعذرني نسيت اسمك"

"ضيدان.. ضيدان"

قلت وأنا أتنفس بصعوبة وكأنه ابتسم

"اسمك صعب مثلك"

لم أتجاوز نصف المسافة حتى رأيت سيارة جيب من سريتنا تتجه نحوي، ساعدني قائدها بوضع الجريح في حوض الجيب وركبت السيارة عارية الأبواب. انطلق الرجل نحو العيادة الطبية في قيادة السرية وهو يسألني

"هل حظيرتك بخير؟"

"تركتهم بخير. لقد قصفوا الموقع العراقي و لم ينج سوى هذا الضابط".

طبيب العيادة نقيب من فلسطين يعمل في عيادة اللواء في الكويت مشغول ببعض الجرحى الذين سقطوا نتيجة الانفجارات. قال إن الجريح الذي معنا يحتاج إلى دم وعلينا نقله إلى المستشفى الميداني. وقررت أن أتركه وأعود إلى موقعي ولكن آمر السرية أمرني أن أرافقه حتى المستشفى الميداني في الخطوط الخلفية.

فعل الطبيب العسكري ما يستطيع وأعطى الجريح مسكّنا للألم. كانت سيارة الإسعاف تقف أمام العيادة وضعنا الجريح على النقالة ودفعناها إلى جوف السيارة ثم انطلقنا إلى المستشفى الميداني وهو مازال يئن. بدأ يهذي قليلا والعرق ينزّ من جبهته. سمعته يتحدث عن أسماء لا أعرفها، رجال ونساء أو أطفال ذكور وإناث ليس لي أن أعرف ما يريد. مسحت العرق عن جبهته وصدره وأغمض عينيه وهو يشد على يدي وكأنه يتأكد بأن وصيته التي لم أفهم منها شيئا قد فهمتها.

تركته في المستشفى الميداني وأخبرته بأنني سأعود إليه قريبا ولكنه لم يرد عليّ حتى بإشارة من عينيه وتوقعت أنني لن أراه ثانية.

عدت إلى موقعي وكانت السماء تمطر قذائف وصواريخ من كل جهة و لم تهدأ الجبهة حتى أقبل الليل. أطلقت في السماء قنابل إنارة بدأت حمراء في أول إطلاقها ثم أحالت مساحة من الجبهة المظلمة إلى نهار مؤقت تبعها قصف على مواقع بعيدة نوعا ما عنّا.

حاولت أن أرتاح قليلا في الخندق وكان المجنون يشعل النار خلف الساتر ويستمع لأغانيه. يجلس على ساقيه كمن يستعد للسجود يحدث الحظيرة حول إبريق الشاي بصوت مرتفع وحين رآني سألني عما حدث للحظيرة العراقية و لم أرد عليه. ألقيت رأسي على كيس محشو بالملابس ونمت قبل أن أتمكن من التفكير بشيء.

أمضينا الأيام الثلاثة الأولى وقد لوحت الشمس جسد غازي المجنون وبدأ التعب والإرهاق علينا جميعا. صوت غازي المجنون لم ينل منه التعب و لم يصبه الفتور والملل وهو يعمل عن حظيرة كاملة ويغني مع مطربته الشعبية بحماس أكبر وكأنها تغني له وحده. جاءت سيارة السرية وطلبت أن نعود للخطوط الخلفية على أن نستبدل بحظيرة أخرى. حملنا ملابسنا المتسخة وأجسادنا وغادرنا الموقع على أن نعود في اليوم التالي. وضع غازي رأسه على كتف زميله ونام.

غسلت ملابسي واستحممت في مرافق السرية وقررت زيارة الملازم مازن في المستشفى الميداني. حين رآني من بعيد ابتسم ولوح لي بيده. يبدو بحالة حسنة، شد على يدي وجلست إلى جواره على طرف السرير الحديدي.

"كيف أنت الآن؟"

"كنت أردد اسمك قبل أن تدخل. لا أريد أن أنسى من أنقذ حياتي"

وضحكت. ربما نسي اسمي مرة أخرى

"ضيدان"

"أعرف. لن أنسى هذا الاسم".

لم يكن بيننا الكثير لنتبادل الحديث حوله ولكنه سألني عن حظيرته.

"للأسف. لم ينج أحد منهم"

وضع يده على رأسه وأغمض عينيه

"هذه الحرب يا سيدي. لا نعرف متى موعد النبضة الأخيرة لقلوبنا"

ودعته على أن ألتقيه ثانية في الاستبدال التالي. عدت إلى السرية وأمضيت الليلة في الملجأ الكبير وغازي المجنون يتحدث عن أشياء سيفعلها حين تنتهي الحرب وهو يقلي باذنجان بمقلاة صغيرة أخرجها من أوعيته.

"سأشتري سيارة جديدة وأتزوج. هل لديك سيارة يا ضيدان؟"

"لا ليس بعد، ولكن لدي زوجة"

وتذكرت نجمة وتوقعت أنها مازالت نائمة منذ مغادرتي البيت.

"هل تريد "؟

وهو يمد لي قطعة باذنجان مقلية

"لا أحبه"

"هل تريد أن أسرق لك خروفا من مطبخ السرية؟"

"لا. شكراً. ستسجن يوما كسارق خراف المعسكرات"

"السجن في الحرب حماية من الموت، لن أسجن"

الحقيقة أن غازي المجنون لم يكن بهذا الجنون أيام السلم. ورغم شراسته وعبثه وكثرة عقاب الضباط له فهو زائر دائم لزنزانة المعسكر لأسباب غالبا تافهة، لكن المرح لا يفارقه أبدا. لم أتوقع أن يكون بهذه الشجاعة. أعتقد أن الأشخاص الذين لا يربطهم شيء بالحياة هم الأكثر استعدادا للموت. لم يكن للمجنون غازي أهلٌ نعرفهم. يمضي نهاراته في التدريب والمشاغبة وينام في المعسكر ليلا. يستغلّه الزملاء بالحراسة نيابة عنهم مقابل إفطار شهي من خارج المعسكر أو عشاء ساخن في ليلة باردة. ويخرج لحالات نادرة كأن يدعوه زميل لحفل زواج أو مناسبة عشاء.

حين عدنا في اليوم التالي لاستبدال حظيرة الاحتياط التي حلت محلنا ليلة أمس تجرد غازي المجنون من لباسه العلوي وعاد عاري الصدر كما كان، يحث الحظيرة على العمل حتى أرهقهم. سألته أن يتوقف حتى أذهب وأحد الأفراد لتعويض الذخيرة التي استخدمتها حظيرة الاحتياط بالأمس. وحين وصلت السرية كانت الأخبار تقول بأن الحرب توقفت وعلينا أن نوقف القصف.

هدأت أصوات المدافع في الجبهة و لم نعد نستمع إلى صوت قذائف سوى صوت متقطع لم نتبين مصدره. لم يسمح آمر السرية بنقل مزيد من العتاد إلى موقع الحظيرة وطلب مني العودة للحظيرة التي أُبلغَتْ بأوامر توقف القصف.

حين اقتربت من موقع حظيرة مدفعنا كان صوت المدفع واضحا والطائرات الإسرائيلية تحوم حوله. كدت أصرخ بغازي المجنون أن يتوقف. رد العسكري على جهاز اللاسلكي المحمول وطلبت منه أن يوقف غازي عن القصف.

"طلبت منه ذلك ورفض، يقول سيقف حين تنتهي الذخيرة التي معه".

أغلقت الجهاز وأسرعت نحوه. فجأة حال الغبار الكثيف بيني وبينه و لم أعد أتبين الموقع من المسافة التي تفصلنا.

"الموقع يقصف. الموقع يقصف"

العسكري يصرخ في الجهاز. توقف القصف

"هل أنتم بخير؟"

"نعم. ولكن غازي سقط جريحا"

أسرعت نحو الموقع كان غازي المجنون مخضبا بالدماء والأنين. هرعت إليه وضعت رأسه على ذراعي. كان عاري الصدر كعادته ومبتسما.

"أصابني الحيوان. أفرغت كل ذخيرة "أبو ردين" على رؤوسهم".

تفحصت جسمه. كانت ذراعه مصابة إصابة بليغة. لففتها بقميص داخلي ووضعت قميصه المعلق إلى جانب الراديو فوقه. كان زملاؤه الذين احتموا بالخندق بخير. ركبنا جميعا سيارة الجيب.

"سأنقلك إلى المستشفى الميداني، ستعيش. لن تموت بسهولة"

غادرت بالحظيرة متجها للسرية في الخط الثاني ثم انطلقت إلى المستشفى الميداني في الخط الثالث بعد أن ربطت ذراع غازي من الأعلى وغسلت وجهه المعفر بالتراب. ألقيت عليه بطانيته وفي منتصف المسافة فقد الوعي تماما. كنت أخشى أن يكون قد مات للنزيف الشديد الذي فقد فيه دما غزيرا. مددت يدي إلى جبهته. كانت دافئة ومازال يتنفس.

"قلت لك ستعيش. صدقني"

لم يكن يسمعني. كان الهدوء على الجبهة يثير الغثيان. يبدو أننا اشتقنا لصوت القذائف من الجهتين. العسكرية الأبدية لا معنى لها إلا في الحرب، ليس السلم بأكثر من انتظار حرب لا نعلم متى تنـــدلع. حملت غازي بين ذراعي وأنا أدخل المستشـــفى الميـــداني. وضـــعوه بسرعة على سرير. فحصه الدكتور سريعا ونظر إلى الممرضين حوله

"بتر"

قال و لم يقل غيرها

"ماذا تقصد؟ بتر؟ ستبتر ذراعه"

"لكي يعيش، ابق خارجا لو سمحت".

خرجت. لا أستطيع تخيل غازي المجنون بدون ذراعه التي تحقق له كل جنونه. كان يمكن أن يفقد أذنا، عينا أما أن يفقد يدا أو قدما فذلك يعني أن لن يعود غازي المجنون هو ذاته غازي المجنون.

ذهبت لأتحدث مع الملازم مازن. كان يجلس على كرســـي في الجهة الأخرى من المشفى.

"كيف أنت؟"

"بخير، هل جئت تزورني؟"

"لا. ليس بالضبط. معي جريح من حظيرتي سيبترون ذراعه"

"لقد توقفت الحرب منذ الصباح، متى أصيب؟"

"لم تتوقف حربه. استمر يقصفهم حتى قصفته طائرة"

مد مازن لي دخانا وصب لي كوب شاي من إبريق أمامه

"صاحبك هذا غبـــي، أصلا هذه الحرب لم تكن مـــن أجـــل شيء، لن نعيد فلسطين ولن نلقي الصهاينة في البحر"

"لا أفكر بذلك الآن، أفكر كيف سأحتضنه"

ونهضت لأقترب من سريره، ربما أعرف ما الذي يجري الآن. لم أتمكن من معرفة شيء. ردني الممرض إلى الخارج. وعدت لمازن.

"قبل أن أنسى أريد عنوانك".

قال لي

"للأسف بيتي لا يحمل رقما وليس أمامه شارع كي يكون لـــه اسم"

"كيف أصل إليك"؟

"حين تصل عشيش الجهراء اسأل عن بيـــت العقـــيم الكـــل سيرشدك"

بعد ساعتين أو أكثر خرج الدكتور وسألته عن غازي. قال إنه بخير وسيعيش. مضى دون أن يتحدث بتفاصيل يبدو أنها لم تعد مهمة له.

فقد غازي المجنون ذراعه. تركته في المشفى الميداني وعدت إلى السرية. بينما خرج مجموعة من أفرادها يصـــحبهم آمـــر الســـرية لزيارته.

عاد غازي المجنون إلى الكويت وقد ترك ذراعه في أرض المعركة وكنت متلهفا لرؤيته حين عدت بعد أشهر من الحـــرب. لم يكـــن غازي المجنون هناك. تم تسريحه من الخدمة ولا أحد يعرف أين يعيش وكيف.

نهض رومي من مكانه وهو يشد على يد خاله ضيدان

"هل كنتم مجموعة من المرتزقة يا خال؟"

"لا تقل هذا يا رومي، كنا وطنيين وندافع عن وطن نعيش فيه"

لم يعلق ولكن الألم الذي يقرؤه على وجه الخال يقول كلاما آخر.

"هل نعود الآن يا خال"؟

نهض الخال متجها إلى سيارة "الفان" وكأنه يسأل نفسه

"هل كنا مرتزقة فعلا"؟

عاد الخال إلى المستشفى بعد تناول وجبة في مطعم ريفي يطل على جدول رائق وحقول حدودها الأفق. ساعدت الممرضة الخال وهو يصعد السرير وصوت تنفسه يصعد ويهبط وكأنه يصعد تلاً.

"يجب أن تنام، وعليّ أن أذهب الآن. سأراك في الغد"

وقبل أن يخرج رومي أطفأ النور وفي ذهنه ذراع مقطوعة تتأرجح وحيدة في الظلام.

بخار "البنزين"

لم يشاهد رومي خاله ضيدان ذلك الرجل العسكري المشـــدود الجسم والثابت كسارية علم يبكي إلا حين فاجأه في زيارة مبكرة في أول الصباح لم يعتدها الخال. حاول الخال أن يتظاهر بـــأن دموعـــه مجرد حالة تذكّر لا تنتقص من قوته التي عهده بها ابن أختـــه منـــذ ولادته في كنفه.

جلس رومي وكأنه يشاهد خاله يتصبب عرقا لا أكثر، كـــان يبتسم دون أن تنعكس على وجهه المرارة التي تعتريه. و لم يركز كثيرا في ملامح الخال التي بدأت تستعيد وضعها الطبيعي.

"سنخرج بعد أن أجهز القهوة، سترى أجمـــل بحـــيرة علـــى الأرض"

"لا أريد أن أخرج اليوم، اجلس نتحدث"

"هل أنت تعب يا خال؟"

وأشاح الخال بوجهه عن عيني رومي واضعا رأسه بين راحتيه.

"لا لست تعبا ولكنني مهموم لأنني لم أفهم في حينها ما يجب أن أفهمه، هذا الجهل الذي تكتشفه لاحقا يثقل جسدك كالمرض"

وضع رومي معطفه على الكرسي وقرر أن يلغي خطة الرحلـــة التي كان ينوي القيام بها. جلس يســـتمع لحـــديث خالـــه بصـــوته المتهدج..

كان اسمه خميس العطلي، هكذا اختصر العسكر اسم والده عطاالله، وكأن نطقه سيكلفهم الكثير من وقتهم المليء بالتافه من الكلام، شاب في العشرينات من عمره، كلما نظرت إليه ذكرني بغازي المجنون وصيحاته وخفته وهو يقفز بين الآليات كأنما ولد بين حديد السبطانات وجنازير الدبابات. التحق خميس كآخر دفعة تم قبولها من "البدون" في أول الثمانينات قبل أن تغلق المعسكرات أبوابها أمام الشباب الذين أخذوا يتسكعون في الشوارع يدخنون ويشربون ماء الكولونيا بعد أن يشنّوه بالماء خلف محولات الكهرباء التي يلجؤون لظلها ويكتبون بذاءاتهم عليها. كانت تلك أرخص طريقة ليغيبوا عن واقعهم المؤلم.

كان خميس شابا هادئا يعشق حديد الآليات ويتحاشى العسكر. حين ينتهي من التدريب يلجأ إلى شجرة أو حائط ليجلس في فيّه يحدث نفسه ربما أو يستمع إليها. لم يستطع أحد أن يدخل هذا الحوار الذي يدور بينه وبينه. لم يكن شابا غامضا كان محبوبا يعيش حياته العسكرية وكأنه خلق لها. كنت أحب أن أراه في المناورات العسكرية وكأنه يخوض حربا حقيقية أو أراه في موعد تنظيف الآليات وتزييتها. كانت بدلة العمل التي يرتديها تغرق بالبنزين وكأنه خرج من خزان وقود. ينهي عمله بسرعة وينهي عمل آخرين تكاسلوا عن عملهم.

استمر يعمل بتلك الروح حتى سقط فجأة ذات صباح في ساحة التدريب. نقله العساكر إلى فيّ شجرة. غسلوا وجهه بالماء البارد ولكن ذلك لم يعده إلى حيويته ونشاطه. نقلته بسيارة الجيب إلى العيادة الداخلية وطلب الطبيب المجند أن ننقله إلى المستشفى وبعيدا عنه أسرّ لي الطبيب بأنه يخشى أن يكون مصابا بالسرطان. تظاهرت

بأنني لم أستمع للكلمة جيدا وخمنت أن الطبيب شاب حديث التخرج وقد بالغ كثيرا في وصف الحالة التي أمامه. كان السرطان أيامها كلمة تعني الموت الأكيد ونتحاشى أن ننطقها فنقول المرض اللعين أو الخبيث.

لم أرافقه بسيارة الإسعاف إلى المستشفى، اصطحبه اثنان من الممرضين ولكن الأنباء التي جاءت من هناك تؤكد ما خمنه الطبيب الشاب. أصيب خميس بالسرطان ويحتاج إلى علاج خارج البلاد. كانت تلك صدمة كبيرة لنا جميعا ونحن نرى شاباً في ربيع حياته يسرع هكذا نحو خريفه.

طلب مني الآمر بناء على توجيه الطبيب الشاب أن نتوقف عن استخدام البنزين في تنظيف الآليات و لم يقل لنا أحد بأن خميس كان ضحية هذا البخار. كان هذا توقعا يسيرا.

أعددت خطابا بناء على توجيه الآمر للوزارة نطلب فيها الموافقة على إرسال خميس للعلاج في الخارج على نفقتها ولكن الرد كان محبطا وتمت إحالته للعلاج في الداخل ومنحه الإجازات المستحقة فقط. اجتمع رفاقه في الساحة الترابية أمام ملحق بيت حكومي استأجره لأسرته وقرر الحضور أن يتكفلوا بعلاجه مهما كلفهم ذلك. في نهاية الشهر وبعد استلام العساكر لرواتبهم اجتمعوا في الثكنة مصطحبين صندوقاً لجمع تبرعاتهم. كان الطابور الذي يقف أمام الصندوق يجعلك تشعر بزهو جميل. لم يتأخر أحد. تبرع آمر المعسكر بمرتب خميس وسط هتاف العسكر والضباط وقررنا أن يبقى الصندوق مفتوحا شهريا حتى يعود خميس لعمله. جمعنا ما يكفي لسفر خميس إلى الخارج وينفق على أسرته هنا.

غادر خميس إلى لندن، وربما كان هنا في هذه العيادة وعلى سريري هذا، استمر علاجه أشهرا طويلة، واستمر زملاؤه في دفع تكاليف علاجه حتى عاد إلى الكويت ليصلّوا عليه. دفعت الوزارة نهاية خدمته القصيرة لأسرته وبقيت ذكراه فترة من الزمن ثم نسيه الجميع.

طوال ذلك الزمن وجميعنا ننتظر مصيرا يشبه مصير خميس، نحن الذين تشبعت أنوفنا ببخار البنزين. وربما أنا الآن هنا بسبب ذلك البخار اللعين.

"لا أعتقد يا خال، لقد مر زمن طويل على هذه الحادثة أليس كذلك؟"

"لا أثق كثيرا بالزمن، لم يبق لدي الكثير منه. أعرف ذلك يا رومي!"

عبّار الرويعي

في ظهيرة يوم أحد أخرج رومي خاله ضيدان إلى منزله. كان الجو معتدلا. العاملة المؤقتة التي تأتي كل نهاية أسبوع لتنظيف البيت تجهز الشرفة الخلفية المطلة على النهر البعيد نوعا ما. تغلف اللحم وقطع الدجاج وتضعها إلى جانب الشواية وتضع زجاجة النبيذ والعصير والكؤوس على الطاولة الصغيرة بين المقعدين المخصصين للخال ضيدان ورومي.

أدخل رومي الخال إلى الحمام وطلب منه أن يستحم بصابونة **بالموليف** أصلية وأن يمسح جسده بعد أن ينتهي بدهان له رائحة ذكية. خرج الخال من الحمام مرتديا البيجامة التي وضعها له رومي في الحمام. بدا الخال منتعشا رغم إحساسه بأن هناك أشياء لا يجد لها تفسيرا تشعره بالألم، ألم لا يستطيع أن يضع يده عليه. يعرف أنه مريض ولا يعرف اسم مرضه. في مرات كثيرة لا يتمالك نفسه من السقوط ولكنه لا يتذكر متى آخر مرة سقط فيها. لا يتذكر متى جاء إلى هذه البلاد ولا كيف جاء ولا يتذكر حتى اللحظة التي سبقت دخوله الحمام. لن يدرك بالتأكيد كم هو محظوظ لأن يتبخر من ذهنه كل ما مر به في السنتين الماضيتين.

"بيتك جميل، هل تسكن هنا لوحدك"؟

"نعم يا خال! طلقت زوجتي"؟

لم يتأفف رومي لأنه سبق وأخبر خاله عن ذلك. أخذ بيده إلى الشرفة بعد أن وضع على كتفه رداءً قطنياً وأجلسه في الزاوية البعيدة عن الشواية التي أشعلتها العاملة.

"هل تريد عصيرا"؟

أشار الخال إلى زجاجة النبيذ.

"هذه خمرة!"

قال رومي. هزّ الخال رأسه "بنعم" ومازال يشير إليها. ابتسم رومي وصب له قليلا من النبيذ وهو يعرف أنه لن يطيقه. ولكن الخال دفعه مرة واحدة إلى جوفه. وأغمض عينيه.

"تعرف أنه ممنوع عليك"

قال رومي حين أشار الخال إلى الزجاجة مرة أخرى.

"لن أموت بسبب ذلك، ربما لسبب غير هذا، تعرف! لم أتخيل نفسي أنني سأشرب في يوم ما"

"لم أتخيل أنك تشرب"

"هذه قصة طويلة"

"سأضع اللحم على النار ونشرب معا"

الصدفة وحدها جمعتني بعبار الرويعي. رأيت فيه نقيضي وربما النقيض الذي وددت لو أنني أمتلك الجرأة لأكونه. كان شخصا غامضا غريبا حين يصحو صباحا لا يؤمن بأن سيعيش حتى نهاية النهار وحين ينام ليلا لا يؤمن بأن سيشرق عليه اليوم التالي. كل ما يعرفه في الحياة هو أنه كائن طارئ على الوقت سينتهي بذات الهدوء الذي جاء به.

كان الوقت قبيل الغروب حين تلبدت السماء بالغيوم وكأنها تسوق أبواقها وأضواءها. طلبت من الراعي أن يتأكد من أطناب الخيمة ويعيد طرق أوتادها. جمعنا الماشية في الحظيرة وربطنا الحمار في بابها وجلسنا نترقب ليلة عاصفة. أدخل الراعي حطب "الرمث والغضا" قبل أن يصيبه البلل إلى زاوية في الخيمة وجلس خلف الموقد يراقب إبريق الشاي ودلّة القهوة ويبتسم كلما أبرقت وأرعدت السماء كمن أصابه الخوف.

لمع البرق بزرقة حادة كادت تكشف الصحراء أمامنا ثم أرعدت السماء بقسوة مرعبة لينهمر المطر كشلال والراعي ينهض إلى باب الخيمة ويعود إلى العمود في منتصفها ويجلس خلف الموقد ويبتسم بفرح غريب

"أحب السماء حين تغضب"

يقول. ولم أرد عليه، أظنه يواري خوفه. كان صوت المطر فوق الخيمة وحولها يثير بداخلي وجلاً ما وكنت أخاف السيل رغم أننا اخترنا تلة "النهد" مكانا مرتفعا لخيمتنا. يكاد المطر يتسلل من تحت جنبات الخيمة حين طلبت من الراعي أن يأخذ الرفش ويدفن أطرافها جيدا.

خرج الراعي ليدخل رجل لم أتأكد من ملامحه أول الأمر، كان مبتلا يرتجف اقترب من النار وبقي ساكنا لا يستطيع أن يضيف كلمة أخرى على التحية التي ألقاها عليّ وأسنانه تصطك على حروفها. بقي الرجل واقفا فترة من الزمن دخل فيها الراعي وطلب منه أن يجلس إلا أنه رفض وفضل أن يبقى واقفا وكأنه يخشى أن يبلل سجادتنا أرضية الخيمة كاملة.

"لا عليك يا رجل. اجلس!"

نظر إليّ وكأنه يتأكد من طلبي ثم جلس بوداعة مفرطة لا تليق بخشونة مظهره. تحت وهج النار وقد استعرت بمزيد من الرمث والغضا وتحت ما يسمح به السراج المعلق في عمود الخيمة رأيت رجلا غامضا يعتمر ثوبين ويضع على رأسه غترة بيضاء وشماغ أحمر يلفهما بعصابة سوداء، له ذؤابتان قصيرتان مسدلتان حتى كتفه ولحية سوداء غير مهذبة وشارب طرفاه معقوفان.

حين استراح قليلا صب له الراعي الشاي ثم القهوة ودون أن نسأله عن اسمه قال

"أنا عبار الرويعي"

"حياك الله".

قلت. وراح يحدثني عن رحلته من بر العراق حتى الكويت يبيع ما يحمله الجمل من سمن ولبن مجفف وصوف ووبر لتجار السوق الداخلي في الكويت. ويعود محملا جمله تبغا وقماشا وبهارات وعطورا ليبيعها هناك.

نام تلك الليلة ثالثنا في الخيمة وربما كان يحلم بالعرض الذي قدمته له في الصباح.

"لماذا لا تبيع حمولة جملك لي بسعر تجار السوق هنا دون عناء دخول الديرة وأشتري لك ما تريد من السوق الداخلي؟"

"هل تقيمون هنا دائما؟"

"ولن نرتحل لمكان آخر حتى نخبرك".

"هذا أفضل لي"

وتصافحنا كتاجرين كبيرين نعقد صفقة فقيرة لبضاعة ربما لا

تكفي عائلة واحدة شهرا كاملا. ولكنه كان دخلا أنا بحاجة إليه وصفقة قادتني إلى بعض الرخاء المادي. كان عملي هذا سري الوحيد الذي لم أطلع عليه أحداً ولم يكن عبار الرويعي حين يزورني في الجهراء سوى بدوي قريب لنا من بعيد. لم يعرف أحد من جيراني اسمه.

كان عبّار رجلا من وهم، عاش حياته لم يحمل في جيبه ورقة تدل عليه وليس له صورة ليرى فيها كيف كان بالأمس مقارنة باليوم. لا يعرف في الحياة شيئا أكثر من الأغنام التي شاركته بها فيما بعد ولا يدرك حتى خطورة عمله الذي يقوم به وربما لو عرف الرعب الذي ينتظره هناك أو هنا لما تجرأ عليه. لا يتحدث إلا نادرا لأنه لا يجد موضوعا يتحدث به، فحدود وعيه بالأشياء لا تتجاوز هذه الحيوانات التي تتحرك أمامه وما تنتجه هذه الحيوانات. كنت أرى فيه الرجل الذي سأكونه لولا تدخل القدر الذي قدم لي معلّما ينير لي دربي سواء بقصد أو دون قصد. كل ما استطعت تقديمه لعبار فيما بعد هو أن يتعلم قيادة السيارة دون أن يدخل المدينة. وربما أيضا ما حدث فيما بعد حين زوجناه أنا ومازن الشعلان.

في ذلك اليوم الذي حمل فيه عبّار رسالة الضابط مازن الشعلان بعد فراق طال بيننا لسنوات، قررت أن أزور مازن الشعلان في مقر عمله على الحدود مع الكويت. في تلك الفترة هدأت الأمور بعد اعتداء الجيش العراقي على مركز الصامتة الكويتي ومقتل جنديين من عساكرنا في هجوم ربما شارك فيه الضابط مازن شخصيا.

كان لقائي الأول بمازن الشعلان كصديقين التقيا بعد يأس من لقائهما. أتذكر أنه احتضنني وألقى برأسه طويلا على كتفي أمام

مجموعة من عشيرته ومرافقيه. قال بصوت عالٍ "هذا الرجل الكويتي أنقذ حياتي" ثم التفت إليّ معاتبا "لولا هذا العبار المهرب لما التقيت بك". وضحكت "إنه شريكي الآن وترك التهريب منذ زمن".

بعد وليمة خرافية أقامها الشعلان في مضيفه انتقلنا إلى غرفة خاصة بعد أن غادر الجميع. أخرج الشعلان زجاجة خمر وقدم لي كأسا. كانت تلك المرة الأولى التي أشرب فيها دون أن أمتلك رغبة في المقاومة أو الرفض.

استمرت علاقتي بالشعلان حتى بعد تعيينه ضابطا في حرس الرئيس العراقي الجديد صدام حسين معتمدا على تاريخ عسكري وعائلة مرموقة. استخرج لي خطابا من وزير الداخلية يسمح لي بدخول الأراضي العراقية والإقامة فيها متى أشاء. كانت تلك فرصة ليقيم عبار في العراق وأنا في الكويت حتى أصبحنا نمتلك ماشية يسد غبارها عين الشمس.

في ليلة سهرنا فيها أنا والشعلان وشربنا وعبار الرويعي ينظر إلى حالتنا ويهز يده دون أن يدرك سبب هذا المزاح الذي يشق عباءة الليل. التفت إليه الشعلان

"عبار لم لا تتزوج؟"

"ومن ستأخذني"

والتفت إلي

"سأزوجه الليلة"

نهض الشعلان وأدار محرك سيارته الجيب وطلب منا أن نذهب معه لوالد العروس المرتقبة. اقتربت منه

"مازن أنت سكران. دعنا نذهب في الصباح"

لكنه أصر وأشار لعبار أن يصعد في المقعد الخلفي وصـــعد دون أن يأخذ هذه المزحة التي أطلقها رجل تمكنت منه الخمرة على أنهـــا مزحة.

وصلنا بيتا من الشَّعْر يقع على أطراف بيوتات موزعـــة هنـــا وهناك وصرخ الشعلان باسم رجل في الستينات من عمره خرج إلينا مرتبكا ومرتجفا يتهدج صوته وهو يرد على الشعلان بألقاب لا حصر لها و لم يستقر على لقب بعينه.

"نريد كريمتكم لصديقي عبار"

"متى شئتم هذا شرف لي"

"من الأفضل أن تسألها"

"ليس لها كلمة من بعدي"

"لا لن أقبل حتى أسمعها توافق"

دخل الرجل زاوية البيت حيث أسرته وعاد إلينا بموافقة سريعة

"سنعقد القران الآن"

"ومن سيعقد القران"

"ضيدان! إنه رجل دين ومثقف وصديقي أيضا"

وأشار إليّ و لم يجد الرجل سببا في تكذيب ذلك.

استدعى الرجل شاهدا آخر من البيوت المجاورة وخلال غيبتـــه عرف عبار من هو صهره الجديد و لم يتمكن من معرفة اسم زوجتـــه القادمة

"ستعرفها حين تفض بكارتها"

وضحك الشعلان بصوت عالٍ. كنت أعرف أنه ثمل وربما فسخ عقد القران في الصباح. ولكن كل شيء تم كما يشاء ضابط الحرس

الجمهوري المرعب وعقدت قران عبار دون أن أعرف النص المقدس في تلك الحالات.

في الأسبوع التالي احتفلنا بزفاف عبار الرويعي بحضور مجموعة من حرس المراكز الحدودية ولكن الشعلان لم يكن حاضرا. قال أحدهم بأن حربا اندلعت بالأمس بين إيران والعراق وكان ذلك آخر عهدي بالضابط مازن الشعلان والذي لم ألتقه إلا في عام 1990 أثناء احتلال الكويت.

تركت السيارة الفورد وشاحنة المياه لدى عبار في الصحراء العراقية وكان كتاب وزير الداخلية واسم الشعلان وبعض الكرم الذي كنا بحاجة لتقديمه ورشاوى صغيرة كل ذلك يبعد عساكر الحدود عن مضايقتنا. ما كدر هذا السكون هو وفاة شقيقتي وأمي الصغيرة ورحيلك إلى الأبد وعقمي الذي أبقاني وحيدا تأكلني الوحشة كآخر إنسان على هذه الأرض.

عاش عبار سعيدا بسبب جهله الذي كان ميزته الأهم. لم يكترث لصراع بلد مع بلد ولا لمتفجرات تسقط هنا أو هناك. لم يهتم أبدا بأن يستمع معي للأخبار أو أغاني الحماس التي تبثها الإذاعة العراقية. لم يكن مثلنا ينظر لحرب البوابة الشرقية وكأنها حربنا الأكثر أهمية. الحرب التي دفعنا ثمنها مالا أحيانا ورعبا أحيانا وعشنا ثماني سنوات في خنادقنا دون قتال حقيقي ولكنه قتال نتوقعه في أي لحظة. ربما كان عبار يقول بصَمتِه أشياءً كثيرة وهو يتابع اهتمامي البالغ بمجريات الحرب، ربما كان يتفوق بجهله على وعيي. ولكنه بالتأكيد جهله الذي قتله لتتطاير أشلاؤه وأشلاء أسرته وأشلاء أغنامنا وسيارة الفورد وتنتهي علاقتي بالصحراء إلى الأبد. لم أر عبّار سوى مرة

أخيرة بعد أن اندلعت الحرب تجاهنا بشكل غير مرتقب، كانت حربا سريعة وغير متكافئة و لم يكن لنا أن نصدها. لم أشهد سوى ما تبقى من دماء سوداء على الأرض وقطع حديد لهيكل سيارة احترق لونها وبقايا بيت الشَّعر وصمت عبار الطويل.

ليلة باردة جدا

كانت جلسات العلاج التي يتعرض لها ضيدان هي محـــاولات يائسة للحد من انتشار المرض إلى أعضاء أخرى مـــن جســـده. لا أحد يخبره حقيقة ليس بإمكانها أن تلتصق بخلايا ذاكرته لأكثر مـــن لحظتها التي استقبلها بها. ما يعرفه عن نهايته يكاد يـــراه في الأعـــين التي تحيط به، في زفرات الممرضة التي تبذل حنانا فائقا، في الهمـــس الأجنبـــي الذي يدور بين طبيبين تتخلله نظـــرات قلقـــة وفي هـــذا الحزن الأبدي على وجه رومي وكأنه يعاتب نفسه على هذا الجحود الكبير الذي قابل به خاله ومربيه. الأيام المتبقية للخال لا تســـعفه في تعويضه عن كل ما فات وهو لا يعلم تحديدا مـــا الـــذي يمكـــن أن يعوض الخال.

"أريد أن أكلم نجمة"

قال الخال مخاطبا رومي الذي يجلس إلى جواره بعد نهاية جلسة العلاج.

"ستكلم نجمة"

اتصل رومي بنجمة، ترك الهاتف مع خاله وخرج إلى مقهـــى العيادة في الدور الأرضي. كان يعيد قراءة ما كتبه حتى الآن ويحـــرر الكثير من الأخطاء ويعالج بعض الكلمات التي يعتقد أنهـــا لا تحمـــل المعنى الذي يريد. شرب كأسا وألحقه بكأس ماء بارد. نفض رأســـه

بين يديه قبل أن يشرب قهوته السوداء. جمع أوراقه المكتوبة والأوراق البيضاء وعاد ثانية لغرفة الخال.

كان الخال نائما وسماعة الهاتف مازالت في يده التي يضعها على صدره. أعادها رومي لمكانها وتركه يرتاح قليلا. أخرج كتابا من حقيبته التي تركها إلى جواره وجلس يقرأ وهو ينظر لحركة الشارع خلف النافذة دون أن يلتفت إليه أحد.

دخلت الممرضة تحمل دواء الخال في موعده فأيقظه رومي. تناول الخال حبات الدواء وهو يحدث رومي

"هل تعتقد أن هذه الحبات ستطيل عمري؟"

"لا أحد يعرف متى ساعته. مهمتك أنت أن تعيش، الموت ليس مهمتك"

"يبدو أنك نضجت سريعا يا رومي"

"كيف حديثك مع نجمة؟"

"لم تتصل بي نجمة. أريد أن أكلم نجمة"

"لقد تركتك وأنت تتحدث معها"

"مع من؟"

"نجمة. نجمة يا خال"

"لم أحدث نجمة منذ زمن طويل"

"لم تفعل! حسنا يا خال سنتصل بها لاحقا. هل ركبت قطارا تحت الأرض من قبل؟"

"لا تحت الأرض ولا فوقها"

جهز رومي الخال كعادته وطلب الخال أن يستخدم عكازه بدلا من الكرسي المتحرك. سارا معا إلى محطة "ريجينت بارك" والتي تبعد

خمس دقائق تقريبا عن العيادة. كان الوقت مريحا في النهار والقطار أقل ازدحاما. دفع رومي ثمن التذاكر والخال يتخيل أن هناك عالما حقيقيا تحت الأرض. حين تحرك القطار في الأنبوب الضخم تحده جدران الأسمنت من الجانبين التفت الخال إلى رومي

"هذا القطار يذكرني بحياتي يا رومي"

"كيف يا خال؟"

"كنت مثله ليس لدي مفترق طرق. كان عليّ أن أسير هذا الطريق وهذا الطريق فقط"

احتضنه رومي وهو يتابع الحزن في عينيه البعيدتين في محجريهما الضيقين.

عشت حياتي بعيدا عن الناس قدر استطاعتي. أرى في نفسي إنسانا متصالحا مع ذاتي وأنا وحيد في البرية أعيش بين أغنامي وكتبي ورعاة يقتسمون معي الأكل والشرب بصمتهم الأبدي؛ أرى نفسي شخصا هادئا وديعا نقيض الشخص الذي أعيشه في المعسكر وأنا أصرخ بهذا وأعاقب ذاك فيتحاشى الجميع الصدام معي. أنا وكيل القوة الجديد أقف عند الباب أتفقد الجند وأعاقب المخالفين الذين أهملوا في هندامهم العسكري أو تأخروا قليلا لسبب ما. ربما لم أبتعد أنا عن الناس ولكنهم هم من ابتعدوا عني، لم أعد ذا فائدة لأحد. لا أتجاوز النظام ولا أسمح لأحد بتجاوزه؛ أعيش فترات الفراغ في المعسكر في مكتبي وحيدا إلا من كتاب أو مجلد يسهرني حتى الفجر.

في أحد الأيام الشتوية أرسلت لنا كلية الضباط مجموعة من الطلبة الضباط للتمرين القاسي على الأسلحة المدرعة والمدافع. ألقى

الضابط المناوب عليهم كلمة قصيرة وأوكل مهمة تدريبهم لمدرب مشهود له بالكفاءة وطلب مني أن أصطحبهم للثكنة الخاصة بهم. كانت ثكنة منعزلة بعيدة عن العسكر تركتهم ليرتاحوا فيها ساعة على أن يجتمعوا ثانية في الساحة الإسفلتية القريبة من ثكنتهم.

كان الطلبة على خلق رفيع يستجيبون لحصص التدريب دون تذمر عدا شاب أبيض ناعم البشرة له لكنة غريبة ليست من لكنات الحضر أو البادية. اشتكى منه المدرب أكثر من مرة وأنه يسيء له ويشتمه بصوت هامس كأنه لا يقصده. طلبت منه أن يعيدهم للساحة ليلا بكامل لباسهم وعرفت الشاب دون أن يشير إليه المدرب.

"هو ذاك؟"

"نعم هو"

اقتربت منهم وطلبت من مدربهم أن يوزعهم على أبراج الحراسة بدل العسكر. صمت الجميع و لم يتكلم أحد سواه

"نحن طلبة ضباط ولسنا حرسا"

لم أرد عليه.

"نحن ضباط كويتيون وأنتم بدون"

لم أرد أيضا، توجهت إلى المدرب

"من يرفض أحضره لي في مكتبي"

ومضيت إلى مكتبي.

كان على الحارس الليلي أن يتواجد في البرج منتبها مستعدا ساعتين حتى يتم استبداله بزميله. توقعت أن الشاب لن يستمر طويلا هذه الليلة. كان في البرج في الساعات الأولى من الليل وقبيل الفجر

رأيت البرج خاليا. عدت إلى الثكنة رأيته متدثرا في فراشه يغـــط في النوم. ضغطت العصا على صدره

"انهض. انهض"

فتح عينه وبدأ يرتجف

"أنا مريض وبردان"

"انهض"

"إلى أين؟"

"ستعرف"

أخذته إلى الساحة المقابلة للثكنة كما هو بمنامته. أدرت صنبور الماء في الخرطوم وكان يرتجف قبل أن يمس الماء جسده. صرخ بـــي

"أنت لست آدميا. أنا مريض"

بدأ الماء ينهمر من أطراف منامته وهامته وتفاصيل جسده. أخذ يرتعد وينتفض وتتراقص أطرافه

"ما اسمك"

"عب.. بد.. عبد.. عبدالله"

كان صوته يرتجف

"اسمك كاملا"

"عبد.. عبدالله غ غ غلوم"

"والنعم"

لففت ملابسي جيدا على جسدي وأحكمت ربط شماغي لثاما على وجهي. وضعت نظارتي. طلبت منه أن يركب سيارة الجيـــب. كانت سيارات الجيب العسكرية دون سقف أو أبواب. لا أعـــرف حالته الآن ولكني أتوقعها، فبرغم كل هذه الملابس التي عليّ كنـــت

أرتجف والجيب يذرع الشارع الخالي بأقصى سرعته ترتطم به ريح الشمال الباردة. بدأ يجمع جسده المبلل بيديه ويضم قدميه على بطنه، يدس رأسه بين ركبتيه ثم يسقط في التجويف تحت المقعد.

عدت به إلى المعسكر. ملأت الزنزانة ماء حتى عتبة الباب وألقيته فيها لا يستطيع الجلوس أو الوقوف. عدت إلى غرفتي. كان العسكر يصلون الفجر في المسجد. تحررت من ملابسي. دفنت نفسي في الفراش ونمت دون أن أفكر فيه.

في الصباح نقله ضابط الخفر إلى عيادة الوحدة وأبقاه محجوزا فيها ثلاثة أيام حتى استرد صحته. لم يشك منه المدرب مرة أخرى. وقبل أن تغادر المجموعة المعسكر مرّ بي وهو يقول

"حين أجد فرصة سأقتلك".

و لم أرد عليه. كنت أعرف بماذا يفكر الآن. و لم أصدق أنني سألتقيه في فجر ذلك اليوم اللعين.

كنا جميعا نواجه ونشعر بهذا التفريق بيننا وبينهم، هؤلاء الذين يعتقدون أننا لا ننتمي إلى حيث ينتمون. وكان المعسكر يحميني دائما من أي عنصرية تواجهني، المعسكر كان يضم العدد الأكبر منا، نحن المقبولين فيه والمرفوضين خارجه. وكنت أرى في عزلتي عن الخارج حيث لا أحتك مع أحد ولا أطلب شيئا من أحد جنةً صفراء حارة أحيانا وباردة أحيانا لكنها جنة حقيقية لأنها خالية من الناس.

ليلة ساخنة جدا

أنهى الخال حكاية الشاب وهما يتجولان في المتحف الحربـــي، كان الخال يقف أمام مدرعة قديمة بعض الشيء.

"تلك كانت مدرعته أو تشابهها"

ويمضي دون أن يشاركه رومي الحوار. يتركه يستعيد ذكرياتـــه العسكرية. يمسح على فوّهة مدفع أو يجلس أمام ناقلة جند.

"هذه الآليات قديمة يا خال لا أظنها تشبه آلياتكم"

يرفع الخال بصره إليه

"آلات القتل تتشابه يا بني"

ينهض الخال ويسير به رومي جهة الكافتيريا

"تعال لترتاح قليلا"

"وأحدثك عنه، ذلك الشاب الجميل"

"سأحضر لنا شرابا"

كانت الأرض تغلي في النهار ويتبخر صهدها في المســـاء فـــلا تفقد الأرض حرارتها. شهر أغسطس تزيد سخونته وترفع حرارتـــه حركة الآليات التي تحيط بحدودنا الشمالية وقلق العسكر والناس من احتمالين أحدهما التهديد والآخر الهجوم. الأكثر تفاؤلا كان يظن أن المسألة انتهت في ليلة مفاوضات مدينة "جدة"، والأكثر تشاؤما كان يتوقع أن تتوقف القوات العراقية في "المطلاع" شمال الجهراء.

طلب مني الآمر أن نزرع خلية استطلاع صغيرة في الحدود. كانا فردين وجهاز اتصال. جاءت الأوامر بعد ظهر يوم الأربعاء بإلغاء حالة التأهب وإعادة الوضع إلى الوضع المعتاد. خرجت في الثانية ظهرا من المعسكر وللمرة الأولى قررت ألاّ أتجه للبرية. عدت إلى البيت ونمت حتى وقت العشاء. في المساء جلست في المكتبة أقرأ وأدخن ونجمة تجلس قبالتي تصب لي الشاي دون أن أطلبه وترفعه حين يبرد وتأتي بغيره.

"ما بك؟"

رفعت بصري إليها قالت

"لقد أنهيت علبة دخان حتى الآن."

"حين يرن الهاتف سأخرج وربما لن أعود. عليك أن تغلقي البيت وتذهبي إلى إخوتك".

رفعت صينية الشاي وخرجت من الباب الداخلي إلى مطبخها. بعد لحظات عادت ثانية.

"لن أترك بيتي وإن دفنوني فيه"

في الحروب نعاني الخوف على النساء أكثر من الخوف على الوطن.

سهرت حتى منتصف الليل متوقعا تماما الاتصال الذي جاءني من المعسكر أن ألتحق حالا. القوات العراقية تبدأ بالتحرك لاجتياز الحدود. في الواحدة صباحا كنت في المعسكر الخالي تقريبا من العسكر. بدأنا نتصل بالفصائل التي تستطيع قيادة المدرعات الآلية. وفي الثانية أو الثالثة فجرا بدأت الفصائل تجتمع وتكوّن لدينا يقين باهت بأنها تستطيع أن تقود معداتها.

طلب الآمر مني ترتيب فصائل المدرعات والتأكد من الـــذخائر على أن نخرج من السور الجانبـــي للمعسكر وفي حـــال تراجعنـــا ندخل من السور ذاته. في زحمة الترتيب واضطرابه تقدم مني شـــاب برتبة ملازم أول وقال لي أريد أن أكون في التشكيل معك. ســـأقود هذه المدرعة. نظرت في وجهه طويلا حاولت تذكر أين رأيته وأيـــن سمعت لهجته. وقبل أن أخمن من هو. قال

"أنا عبدالله غلوم".

لم أجد ما أرد به عليه أركبته إحدى المـــدرعات ولكـــنني لم أركبها معه. ركبت مدرعة أخرى واتجهنا إلى الجسر الواصـــل بـــين الجهراء والمطلاع. كانت القوات العراقية علـــى مســـافة عشـــرين كيلومترا تقريبا من مواقعنا حين هاجمت الأرتال العسكرية طـــائرات كويتية وأغارت علينا طائرات عراقية ونشبت في السماء معارك بين طائرات الهيلوكوبتر. الأرتال التي تتقدم نحونا بـــدأنا نقصـــفها مـــن الجسر.

"لقد نفذت ذخيرتي"

سمعت صوت الملازم عبدالله على الجهاز.

"انسحب إلى المعسكر، لا نستطيع توفير ذخيرة"

"لن انسحب أرسل من يحضر لنا ذخيرة"

"هذه أوامر الآمر، عليك أن تنسحب"

ولم يرد. تركت موقعي واتجهت إليه

"عليك أن تنسحب، لا وقت لجلب ذخيرة والعودة ســـيكونون هنا"

"اذهب أنت وعد بسرعة إلي"

نظرت في عينيه كان لديه تصميم غريب أن يموت. قلت له
"اذهب أنت وأنا أنتظرك هنا"
"كنت وعدتك أن أقتلك ولكن ليس بهذه الطريقة"
وقررت أن أتركه. وضع يديه على كتفي
"ضيدان! تذكر أنني سامحتك"
احتضنني وعاد إلى مدرعته.

كان يجب أن أنقذه بكلّ طريقة. انسحبت المدرعات إلى المعسكر وانطلقت إلى مخازن الذخيرة. شاحنة ذخيرة كنا جهزناها تقف في الساحة، انطلقت بها إلى ناحية الجسر. سلكت طريقا فرعيا وقبل أن أصل الطريق العام رأيت النار تتصاعد من جانب الجسر. توقعت أنها مدرعته. أوقفت الشاحنة بين الأحراج التي تفصل المنازل عن الجسر وركضت نحوه. كانت القوات العراقية تعبر الجسر بسرعة جنونية وتدك بجنازيرها كل ما يقف في طريقها.

وصلت إليه من تحت الجسر. كانت عربته تحترق وهو ملقى إلى جانبها، كانا جثتين لا حياة فيهما. سقطت القذيفة بالقرب مني. أخذت الأرض سريعا لكن شظية طائرة كادت أن تستقر في جبهتي. لم أشعر بها إلا كلسعة سيجارة لم أكترث لها. وضعت يدي على جبهتي كانت الدماء قليلة مسحتها بكمي ونهضت. ساعدني شباب مدنيون بسيارتهم لنقل الملازم إلى مستشفى الجهراء وعدت بشاحنتي عبر السور إلى موقع الدبابات في الشمال. كانت الآليات تستعد للانسحاب إلى السعودية وانسحبنا.

لم يكن هناك ما هو أقسى من الشعور بالهزيمة والهزيمة السريعة بالذات. فجأة ضاعت البلاد تحت هذا الزحف الكبير الذي أطبق

عليها كفراشة ضوء بين دفتي كتاب. تحركت الآليات بأفرادها الذين تركوا وراءهم كل شيء: نساءهم، أطفالهم، حاضرهم ومستقبلهم والسؤال الذين يدور في أذهاننا جميعا "متى نعود؟". السؤال الذي لم يسأله أحد منّا للآخر خوفا من الإجابة القاتلة بأن ما ذهب لن يعود.

تجاوزنا الحدود السعودية واستقبلنا حرس الحدود السعودي بالطعام والماء وكأننا تائهون في الصحراء. طلبت من الآمر أن أذهب للمستشفى مع سيارة حرس الحدود وعدت في نفس اليوم للآليات التي تربض في الصحراء ومقاتليها الذين يستفيئون بظلالها. تركت الشظية في جبهتي ندبة أكثر اتساعا من الأولى ومازلت أشعر بأن هناك جزء منها مازال مستقرا في منتصف جبهتي.

بدأنا نستقر كوحدة عسكرية ننتظر أوامر الحرب ولكننا لا نقودها ولا نتحكم بأوامرها. يجتمع إلينا عساكر من وحدات أخرى وأفتقد صيحات غازي المجنون حول مدفع "أبو ردين" الذي لن يكون له دور في هذه الحرب المنتظرة. في أحد الأيام اجتمع بنا المسؤول ذاته الذي رأيته في حربين سابقتين. وقال لنا للمرة الثالثة بأننا جميعنا أبناء وطن واحد وكلنا كويتيون. وكتمت ضحكتي وأنا أنظر للجهة الأخرى بعيدا عنه.

المهمة الخاصة

حين عدنا إلى المستشفى كان الخال يود الحديث أكثر ويبدو أنه يجد متعة في سرد حياته وكأنها حياة خاصة وحافلة لا تشبه حياة أخرى و لم أتوقع أن تكون كذلك إلا وهو ينتهي منها.

كنا في بداية أكتوبر حين طلب أعضاء المقاومة في الكويت أجهزة اتصال عالية الجودة للتواصل مع القيادات الكويتية في السعودية. تم تجهيز سيارة نقل من نوع GMC قديمة الصنع بمعدات اتصال مخبأة في أماكن سرية. واقترح الآمر أن يسند لأحد العساكر القدامى مهمة إيصال السيارة لمكان متفق عليه مع المقاومة في الكويت. وقع اختياره على وكيل ضابط لديه زوجتين وأبناء لا أعرف عددهم. كان وجهه كظيما ولا يبدو عليه الحماس لإنجاز هذه المهمة القاتلة. جلس في طرف الخيمة لا يتحدث إلى أحد. نهضت إلى جواره.

"ما بك؟"

"أنا لا أعرف الصحراء جيدا ولا أجيد الكذب لو حققوا معي"

"أنا أجيد الكذب وأعرف الصحراء كراحة يدي. سأذهب بدلا منك".

تغيرت ملامح الرجل وكأن أحدهم يعيد إليه حياته التي فقدها قبل قليل. دخلت خيمة الآمر وأعرف أن هناك مزيج من الغضب والقلق والترقب نقتسمه جميعا في ظروف كهذه.

"خير وكيل ضيدان"

"سأذهب أنا بالسيارة إلى الكويت"

"لا. أحتاجك هنا، هل هو خائف؟"

"لا ولكنه لا يعرف الصحراء سيقع بسهولة بين أيديهم"

"هو خائف ولا يليق برجل مثله"

دخل أحد الضباط وأنقذ الموقف. طلب من الآمر أن يذهب معه إلى اجتماع الأركان في إدارة القاعدة والتفت إليّ الآمر وهو يجمع أوراقه من على المكتب

"انصرف وكيل ضيدان وتولّ الأمر بنفسك. لا بأس"

حييته وخرجت قبل أن يخرجا.

كان الملازم المكلف بتجهيز سيارة النقل قد أنهى عمله وأخبرته بأنني سأقود السيارة إلى الكويت. ابتسم وكرر علي ماقاله الآمر

"يبدو أن صاحبك خائف"

"لا هو فقط لا يجيد مهمة كهذه، ستراه في القتال رجلا آخر"

تم إصدار أوراق ملكية للسيارة باسمي وتزويدي بهوية وطنية كويتية مزورة أحسست بأنني لن أمتلكها حتى الموت. كان الأمر واضحا في المهمة هو أن أترك السيارة في موقف عام محدد وسيقوم أعضاء من المقاومة برصدها وفي حال القبض علي أتجاهل تماما علمي بما في السيارة وكنت أعرف أن اعترافي أو إنكاري سيؤديان في النهاية إلى نهايتي المؤلمة والسريعة.

علي الآن أن أستفيد من عبّار وطريقته في الملبس. وضعت دشداشة شتوية رغم حرارة الجو في بدايات أكتوبر؛ لبست غترة قديمة ولففت حولها عصابة سوداء؛ وضعت قدميّ في نعلين من الجلد

اليابس وتركت شاربي ولحيتي دون تهذيب. حين خرجت من المعسكر لم يشك أحد بأنني مجرد راعي أغنام كان يبيع اللبن في المعسكر.

كان الطريق الأسلم أن أدخل العراق من الحدود السعودية ثم أدخل الكويت بسهولة من هناك. كان الدخول من السعودية للكويت مغامرة لا أعرف نهايتها.

انتظرت حتى الغروب برفقة اثنين من حرس الحدود السعودي كانا يتناولان الأمور بكثير من البساطة البدوية ويحاولان أن أتراجع عن قرار الذهاب إلى الكويت. ما بداخلي كان قلقا يجب ألا يُقرأ بوضوح. تناولنا التمر والقهوة تحت ظل سياراتنا وقبيل الغروب ودعتهما وغادرت متجاوزا الحدود السعودية ويقيني يزداد بأنني سأصل عبار وأغنامه في الجهة المقابلة وستصبح الأمور أكثر يسرا.

بعد عبوري الحد بأقل من عشرة كيلومترات أطفأت أنوار السيارة واعتمدت على النجم حتى أبتعد عن الحد العراقي ودورياته. لم يفضحني الضوء وإنما الصوت المخيف الذي تلا ارتطامي بحجر في منطقة منبسطة. كان صوت المحرك يصدر ضجيجا مرعبا في هدأة الليل ويجلب لي أصواتا من بعيد. حاولت أن أوقف السيارة وأترجل منها بدلا من إضاءة مصابيحها الآن، يبدو أن الوقت يسرقني. توقفت سيارة نقل صغيرة يعتلي حوضها رجال الحدود العراقي. صرخ بي أحدهم

"توقف يا حمار!"

كنت حينها متوقفا وترجلت من السيارة. لم أبتعد خطوتين عن الباب حتى ضربني أحدهم بأخمص البندقية فسقطت دون أن أسمع ارتطام رأسي بالأرض. وجدت نفسي مقيدا في حوض السيارة بعد

ساعات ربما من سقوطي والسيارة تقف أمام مركز حدود ومجموعة من الحرس يهرجون ويدخنون حولي.

"إذا سمحت"

قلت بصوت هادئ و لم يرد أي منهم

"أريد ماء، ماء"

نظر إليّ أحدهم وكان أكبرهم سنا ثم دخل إلى المركز وعاد بطاس فضية

"اشرب سم"

قال بخشونة. مددت يدي إلى دخاني كانت جيوبي خالية من كل ما فيها. رغم مصيري المحتوم الذي أتوقعه أريد دخانا حتى لو كانت تلك رغبتي الأخيرة قبل أن أموت.

مرة أخرى ناديت الرجل بأدب

"إذا تكرمت يا أخ أريد دخاني"

ولكنه رد مستهزئا

"هل تريد عشاء قبل الدخان؟"

"لا شكرا يا أخي، أريد دخاني فقط"

تظاهر بأنه لا يسمعني وعاد لهرجه مع زملائه الذين تعالت أصواتهم. مر وقت طويل وبدأت خيوط الفجر الأولى حين صرخ أحدهم من الداخل بهم

"أدخلوا هذا البدوي الكلب"

سحبني أحدهم من وثاقي على مؤخرتي من جوف السيارة حتى سقطت على الأرض وأحدهم يضع يده تحت رأسي كي لا يرتطم بحديد السيارة.

"انهض يا بغل، الضابط يريدك"

يبدو أن الضابط يصحو للتو من النوم. دخلت مكتبه وهو بقميصه القطني الداخلي. كان يشرب شايا ويدخن. نهض بالقرب مني وكنت سأسأله دخانا ولكنه قطع الحديث الذي لم يبدأ بأن هوى على وجهي بكفّه فترنحت وأنا أحاول أن ألتاث نفسي وأمنعها من السقوط كان الكف الثاني قد هوى بي على الأرض. نظرت بعيدا في عينيه. لم أمتلك أن أصنع شيئا ولن أتمكن من صنع شيء حتى لو لم أكن مقيد اليدين والقدمين.

"ماذا تعمل؟"

"أعمل أين؟"

"يا بغل ماذا تشتغل"

"أنا راعي غنم وغنمي في العراق مع شريكي ولدي تصريح من الداخلية العراقية والآن نحن بلد واحد"

يبدو أنه ابتسم أو هكذا يخيل لي.

"انهض"

حاولت ولكني لم أستطع في أول الأمر ونهضت في المحاولة الثانية واضعا كلتا يدي على الأرض.

"ماذا كنت تفعل في السعودية؟ لا تكذب"

كنت أعرف أن ادعائي بأنني لم أكن في السعودية سيكلفني الكثير، لا بد أنهم تتبعوا آثار سيارتي.

"كنت أجمع مالي من نقود على تجار الغنم"

"وأين هي النقود؟ لم نجد معك سوى ريالات قليلة لا تكفيك أيام"

"صحيح، لم يدفعوا لي".

"حسنا. أنا لست مخولا بالتحقيق معك سأرسلك وسيارتك إلى بغداد وهناك يحققون معك ولكني سأحضر لك شايا وأعطيك دخانك".

طلب أحد عساكره وأمره بأن يحضر لي شايا بعد أن يحل وثاق يديّ وأبقى وثاق رجليّ. حين خرج العسكري أخرج من درجه مغلفا يبدو أنه يضم أغراضي وناولني دخاني وولاعتي بينما دس المغلف في مكانه. خرج وهو يصرخ بشخص نسيت اسمه الآن. شربت الشاي ودخنت سيجارتين في غيابه عن مكتبه.

عاد الضابط ومعه عسكريان أحدهما كبير السن الذي أحضر لي ماء. وقع الضابط أوراقا في الملف وسلمه لكبير السن الذي عرفت من صاحبه أن اسمه حجي صلاح. أنهضني العسكري الشاب وخرج حجي صلاح قبلنا فخاطب الضابط العسكري

"لا تضربوه. سلموه وعودوا بسرعة"

خرجت من غرفة إلى غرفة أخرى وتوقعت أن أمر الضابط لا تضربوه هو ضربي حتى أفقد الوعي أو أعترف بما في السيارة. لكن العسكري شد عصابة سوداء على عيني وأركبوني السيارة التي نقلوني بها إلى بغداد دون أن أعرف حتى ماركتها أو لونها.

طوال الساعات التي استغرقتها الرحلة لم أكن أنتبه لأحاديث الرجلين في المقعد الأمامي كنت أفكر بما يمكن أن تنتهي حياتي عليه. أن أنهار تحت التعذيب وأعترف لكي أخلص نفسي من التعذيب بالموت. الموت الذي أتمنى أن يأتي هكذا فجأة. أسمع أحيانا دوي رصاص يخترق جسدي أو أرى حبلا يتدلى أمام عيني. أتخيل حفلة التعذيب القادمة

أحدهم يقتلع أظافر يدي والآخر يوصل أسلاكاً كهربية في خصيتي وأرتعش وأنا أصرخ بداخلي دون أن يسمعني الرجلان وهما يدخنان ويضحكان. سأموت دون أن يعلم أحد أين دفنت ودون أن أعلم إلى أي شيء انتهت عليه الحرب التي لم أشك لحظة واحدة بأنها ستبدأ قريبا إذا لم تحدث معجزة في زمن لا معجزات حقيقية فيه ولكنها الحرب التي ستنقذني من الموت على أن تقوم قبل أن نصل بغداد.

يبدو أن السيارة توقفت في مكان ما ولا أعتقد أننا وصلنا بغداد، فتح العسكري الباب وسألني إن كنت أريد أن أتبول وقلت لا أريد أن تشعل لي سيجارة. أشعل لي سيجارة وأنا مغمض العينين لم تكن بذات الطعم الذي أعرفه، كنت أعشق رائحة الدخان حين أراه وأتحكم بدفعه خارج صدري. أنهيت سيجارتي؛ تحسست علبة دخاني ربما انتهت حياتي قبل السيجارة الأخيرة فيها. مازال لدي ما يكفي من الدخان والوجع.

عادت السيارة ثانية لمسيرها و لم يتبادل الرجلان حديثا معي حتى الآن. فكرت وأنا في الطريق بالعقيد مازن الشعلان وندمت أنني لم أذكره أمام الضابط في المركز. يبدو أن عقلي الباطن رفض أن أقحم رجلا أحبه في موقف كهذا، سيكون وضعي مخزيا لو فتشوا السيارة وعثروا على الأجهزة وهم حتما سيفعلون هذا. ولكنني لا أعرف أين سيارتي الآن. ربما نقلت إلى بغداد قبل مسيرنا هي بالتأكيد لا تسير خلفنا بصوتها الذي سيتسبب بكل مصائبي، سيارتي أول من وشى بي.

توقفت السيارة وفتح الرجلان بابيهما. فتح أحدهما الباب الخلفي وطلبت أن يشعل لي سيجارة.

"هذه ستكون آخر سيجارة في حياتك"

ولم أرد. لم يقل غيرها غير أنه لم يعد العلبة إلى جيب دشداشتي. يبدو أنهم سيعدمونني أولا ثم يحققون معي. وضحكت في سري وأنا أدعي بطولة أمام العسكر هناك وأتهاوى من الجزع والخوف هنا. توقعت أنهما دخلا المبنى وتركاني وحيدا هنا ولكن رائحة دخان غريبة تمر أمام أنفي تؤكد أن أحدهم يقف قريبا مني.

سمعت أقداماً تركض نحوي وهي تصرخ:

"أين هو؟ أين هو؟"

أيدٍ تثبت قبضاتها عليّ وأخرى تهوي عليّ صفعا أرجل تركلني

"جاسوس حيوان، سأسلخ جلدك"

جروني حتى البناية دون أن أرى شيئا مما يحدث. وفي الباب سمعت أحدهم يقول

"أدخلوه زنزانة 1 ألف وارفعوا العصابة عن عينيه وفكوا قيوده"

لا بد أن الزنزانة الآن أرحم من خارجها. كان عنقي ساخنا يؤلمني ومؤخرتي لا أطيق الجلوس عليها. هذه الوجبة السريعة من التعذيب تنبئ بما هو أشد.

لم تكن الظلمة في الزنزانة 1 ألف أوهن من ظلمة عصابة عيني. لا أكاد أرى شيئا. حتى بعد أن توقعت أني أتأقلم عليها فشلت في رؤية راحة يدي. أمضيت الليلة الأولى دون أن يعتدي عليّ أحد سوى هاجس لم يتركني أنام

"إذا لم يجدوا الأجهزة في السيارة سأخرج من هنا

إذا وجدوا الأجهزة سيدفنونني حيا

إذا لم يجدوا الأجهزة في السيارة

إذا وجدوا الأجهزة
إذا لم يجدوا
إذا وجدوا
إذا لم
إذا
إذا
إذا"

لم أستطع التفكير بغير هذا و لم أنم. كان الضجيج يهزني كمن يقيم بجوار محطة قطارات.

مرت الليلة وأنا أغالب الصور الموحشة التي سأكون عليها في الصباح. في الفجر أو هكذا خيّل لي نمت ولكن ليس لوقت طويل كما يبدو، أيقظني صوت صدأ حديد البوابة التي يبدو أنها ضخمة تحت الضوء القليل الذي ينبعث من الممر.

"انهض يا جحش"

لم تعد الإهانات تثيرني فهي أقل ما أتوقعه. نهضت متوقعا أن يخرجني من الزنزانة للتحقيق في غرفة ما ولكنه أنهضني ليضع أمام البوابة طاساً به ماء وخبزة يابسة

"كلْ الآن"

"أين أنا؟"

لم يقل شيئا غير ذلك، خرج وأغلق البوابة تاركا صرير صدئها يجيبني عنه. يبدو أنني بالغت في توقعي عن التعذيب المرتقب معتمدا على الصورة النمطية التي أعرفها عن النظام وقسوته، ولكن حتى الآن لم أتلق سوى هذه الصفعات والركلات والتي خف أثرها.

مرّ عليّ أكثر من أسبوع كما أظن. لم أر أحدا سوى هذا الزائر الذي يطرق بابي في الفجر يترك لي الماء وخبزته اليابسة ويخرج. تفتح نافذة صغيرة في أعلى الزنزانة من الخارج وتبقى مفتوحة لساعة تقريبا لأرى خيوطاً ضعيفة من الضوء أتلمس من خلالها المكان. هناك مقعد حمام عربي صغير وسطل فيه ماء آسن وليس في أمعائي أكل حتى تتبقى فيها فضلات. كنت أتبول مرة واحدة في الوقت الذي تفتح فيه النافذة وأعد الأيام بعدد مرات فتحها. سبع مرات فتحت النافذة وكنت أنتظرها أكثر من انتظاري للوجبة اليتيمة التي يقدمونها لي.

فتحت النافذة ويبدو أن الفجر هو موعدها. دخل الزائر وطلب مني أن أنهض كعادته ولكنه هذه المرة تقدم نحوي وأدار جسدي ليكون خلفي. شد عيني بعصابة سوداء وأعاد يدي إلى الخلف ليقيدهما ثم دفعني أمامه.

لا أسمع جلبة كبيرة في الممر الذي سرت فيه. لا حركة هواء ولا صوت بشر، كل شيء ساكن كأول العاصفة. توقعت أن أستمع لأصوات بساطير عساكر لكن المكان يبدو أنيقا وليس معسكرا. حذاء العسكري خلفي له صدى حاد وكأنه يسير على رخام أو بلاط من البورسلان. مررت من خلال باب كان مفتوحا فأغلقه العسكري خلفي. أوقفني في زاوية ما من الغرفة وسمعت أشخاصاً أمامي يتحدثون فيما بينهم ثم يرفع أحدهم صوته موجها حديثه لي

"ما اسمك"

هزني العسكري من الخلف ليؤكد لي أن السؤال موجه لي

"ضيدان ناشي ضيدان"

"ماذا تعمل؟"

"راعي أغنام ولدي شريك.."

"اخرس! يكفى"

وخرست. تناقشا بهمس لا يصلني منه سوى همهمة ناعمة لا أفهم منها شيئا.

"أنت كويتي ودخلت من السعودية إلى العراق لماذا؟"

"هذه سيارة أستخدمها للتنقل في البر ودخل بها شقيقي إلى السعودية وذهبت لأعيدها"

"ماذا كان في سيارتك؟"

هذا السؤال القاتل الذي تمنيت ألا أسمعه.

"لا شيء محدد سوى أكل وماء للرحلة"

"متأكد؟"

"نعم"

وكبحت نفسي بسرعة عن قول "نعم سيدي"

كان يتحدث بصوت خافت لرجل إلى جواره وكأني سمعته يسأل عن سيارتي والآخر يرد بكلام لم أسمعه. خمنت أنهم لم يحضروا سيارتي بعد وبأني سأعيش إلى حين.

"أعده إلى الزنزانة وأحضره في الموعد القادم"

وخرجنا من غرفة التحقيق لأعود إلى زنزانتي وأنا على يقين الآن بأنهم سيفتشون سيارتي ويعثرون على أجهزة التسجيل. مرت أسابيع ثلاثة أخرى على وجودي في الزنزانة دون أن يستدعيني أحد للتحقيق.

من تكتب له الحياة يعجز الموت عن اختطافه. تزامن الكشف عن سيارتي وعثورهم على الأسلحة مع وصول العقيد مازن الشعلان

للمبنى الذي كنت فيه. فتحت الزنزانة ليقف مازن أمامي كملاك اخترق هذه الجدران الخرسانية. احتضنته وانهمرت دموعي وسمعت نشيجي وحشرجة صوتي المخنوق في صدري.

"ضيدان كنت رجلا طيلة حياتك. كن رجلا".

أخذني برفقة اثنين من معاونيه ودخلت القاعة مبصرا لأول مرة. كان أمامي ثلاثة ضباط برتب متنوعة وعسكري يقف إلى الباب توقعته الرجل المكلف بي طيلة هذه المدة.

"هذا الرجل صديق لي ومعروف لدى الرئيس شخصيا ووزير الداخلية وليس له علاقة بما حدث، هو ضحية لهم. أشكرك سيادة العقيد على موافقتك الإفراج عنه وأنا كما قلت لك سأكفله شخصيا"

"نحن بالخدمة عقيد مازن وبلغ تحياتي لسيادة الرئيس"

"تبلغ"

صافح الرجل الذي يتوسط الجلسة مازن ووقع أوراقا أمامه سلمها لمازن وخرجنا دون أن يوجه لي أحد كلمة. كنت أعرف بأنه يلعن الساعة التي دخل فيها مازن الغرفة ليقف دون الرصاصة التي كانت ستمزق جسدي.

حين خرجت سألت مازن كيف عرف بوجودي وأخبرني أن عبار زاره في بيته وترك رسالة يخبره ما حدث لي. لم يكن عسيرا على أحد رجالات الرئيس أن يصلني وأن يخلصني من مأساة حقيقية. أقمت ليلة في مضافة والد مازن وفي الصباح نقلتني سيارة عسكرية برفقة عسكريين حتى منزلي في الجهراء.

لقد فشلت مهمتي ولا أعرف كيف أتصرف. قررت بعد أيام أن أذهب حيث يقيم عبّار ومنه إلى السعودية مرة أخرى وكأني

أجازف بحياة إضافية أمتلكها لا حياتي الوحيدة. لم يكـــن عبّـــار في مكانه المعتاد. أقمت تلك الليلة في البرية حتى بقي على الفجر ساعتان تسللت بعدها عبر الحدود و لم ينكشف الضوء حتى دخلت المعسكر الحدودي الذي غادرت منه أول مرة. نقلتني سيارة إلى حفر البـــاطن ومنه إلى معسكري أعتذر عن خيبتي عما حصل.

صاروخ جو-أرض

كنت أعرف أن دوري سيحين في لحظة ما منذ أن انطلقت هذه الحرب المدمرة وبدأ العسكر يكتبون شتائمهم على جنبات زملائي الذين يتم إخراجهم من صناديقهم المجاورة للصندوق الذي أرقد فيه منذ أشهر بعد رحلة طويلة من الغرب البعيد إلى الشرق. ليس لي رأي مهم في اختيار الهدف الذي عليّ إصابته، أن يكون جسرا أو ملجأ أو رأس القائد مباشرة الأهم بالنسبة لي هو أن تنتهي حياتي بطريقة بشعة كما خطط لي. كان الكثير من زملائي يفشلون لسبب أو لآخر ويدفنون رأسهم في الرمال دون أن يحتفلوا بالنهاية المبهجة التي خلقوا من أجلها. ينتظر هؤلاء الزملاء زمنا طويلا لينفجروا في أوقات السلام ليفتكوا بأطفال أبرياء أو رعاة ماشية سذج تنفجر نيران الجحيم في وجوههم وهم يعبثون بأسطوانة الموت المدفون ثلاثة أرباعها في الرمال الناعمة. لو حدث ذلك معي سأندم كثيرا على الوقت والجهد الذي بذله صانعي، وقد يرى الفشل فشلي لانحرافي عن مساري الذي قدره لي الرامي ولا يلقي بالفشل عليه هذا الذي ارتجفت يداه وهو يداري صاروخا يشبهني يفجر هذه الكبسولة النارية التي يقودها بجنون القتل والخوف من القتل. ليس لي أن ألومه على شعوره ولكني أفضل أن أقوم بدوري الذي صممت من أجله.

كان العساكر يتبادلون ألفاظهم القبيحة بالقرب من الصندوق الخشبي الذي يضم أربعة من رفاقي ونحن أقرب للتوائم منا للرفاق، يكاد يقتلنا التشابه الفج في أشكالنا الأسطوانية ورؤوسنا المستديرة وكمية الجحيم الذي نحمله. رفعوا الغطاء الخشبي عن صندوقنا الخاكي وبرزت أجسادنا العارية للعراء. نعرف الآن أنه قد حان دورنا وعلينا أن نؤدي هذه المهام القاتلة بذات الصمت الذي رافقنا منذ وضعنا معا في المستطيل الخشبي كأجساد ميتة كرست لمهمة الموت. اقترب أحدهم كثيرا مني حتى رأيت بخار أنفاسه تتكثف على جسدي المعدني المصقول. طلب من زميله حملي خارج المربع الخشبي الذي تم تخزيننا فيه بينما حمل عساكر آخرون بقية الصواريخ ونقلنا إلى فضاء أرحب حيث تقف الطائرات الصغيرة التي ستنقلنا إلى مصائرنا الأخيرة لتنتهي مصائر أخرى لم نتعرف إليها بعد.

رفعني العسكريان إلى الأعلى حتى بلغت زعانفي أول الجناح المثلث للطائرة. وكنت أنظر لزميلي الذي علق هو الآخر على الجناح المقابل كانت رؤوسنا متجهة للأمام و لم نتبادل تحية وداع. العساكر يعملون بصمت ودقة يتأكدون من سلامة تركيب المكابس ووصلات الجحيم وحين انتهوا من عملهم تقافزوا وهم يربتون على جسدي وجسد الطائرة. أخرج أحدهم من سترته قلما عريضا وكتب على جسدي الناعم

Fuck them all Hellfire

ورغم رداءة خطه وبذاءته إلا أني تمكنت من معرفة اسمي في الدقائق المتبقية من عمري. تصافقت أيديهم وتراجعوا إلى الخلف

ليصعد قمرة القيادة طيار شاب بعد أن تأكد من بعض الأمور الفنية. وربما قرأ ما كتب على جسدي وابتسم. كنت أرى ضابط الملاحة يحرك يديه بأن تتقدم الطائرة للأمام وحين وضعت نفسها في مسار الارتفاع ضجت الأرض تحتنا وارتفعت الطائرة تخاتل الريح والأرض تبتعد بسرعة خارقة وكأننا سنشق عمود السماء.

كانت المهمة الملقاة على عاتقنا أن نهاجم صواريخ أخرى أكبر منا حجما وأكثر فتكا وشراسة وعلينا أن نفجر أجسادنا بها كي لا تتمكن من قتال جنودنا ودك مهاجعهم أو مهاجمة مدن بشكل عشوائي. كنا ندعي أننا الأكثر دقة وحرفة في عملنا لا نكاد نخطئ وأخطاؤنا لا تقارن بأفعالنا الرائعة في القتال. كانت الحيلة التي لجأ لها الطرف الآخر هي وضع هذه الكتل الحديدية الضخمة وآلياتها التي تنقلها إلى بيوت في الصحراء تبدو من بعيد وكأنها مساكن رعاة الماشية.

ألقت الطائرة مجموعة من المناشير على البيوتات المتناثرة في الصحراء لتحذيرهم بأن يغادروا البيوت كي لا تقصفها الطائرات. استدار الطيار مرة أخرى وهو مطمئن بأن عدوه لا يمتلك القدرة على مهاجمته. بدت الأرض قريبة مني ورأيت بيوتاً سوداء من شعر الماعز وكأني لمحت مجموعة من الأغنام البيضاء وسيارة نقل حمراء في الحركة الأولى التي سبقت إلقاء المناشير. ارتفعت الطائرة عموديا مرة أخرى كمن تتفادى قاذفا لن يوجه إليها أبدا بعد قتال جوي شرس أبطل كل حيلة للطرف الآخر والذي ينتظر نصرا على الأرض بعيد المنال كما يبدو.

هزتني الريح وتمايل جناح الطائرة حتى تخيلت أنني سأسقط دون إشعال. اعتدلتْ ثانية وانطلقت كنسرٍ على فريسة ثابتة لا تجيد

الحراك. حين أصبح الطيار في مستوى إطلاقي سرت حرارة ما في أعلى جسدي وأفلتني القابس لأتحرر من قيدي وأغادر الجناح نحو هدفي تراوغني الريح وأتمايل ثم أستقيم وليس لي أن أفشل في جو كهذا. توقعت أنني سأرتطم بكتلة الحديد تحت بيت الشعر وحين أصبحت على بعد ثانيتين لم أر سوى بيت من الشعر ورجل يرتدي ثوبين ويعتمر غترة وشماغ يعصبهما بعصابة سوداء وامرأة وطفلتين خرجوا جميعا ليتوقفوا أمام سيارة حمراء يلوذون بها من هذا الجحيم. لم يكن خروجهم تنبؤا بانحداري الخارق نحوهم وإنما للصوت الذي خلفته الطائرة خلفها. تحركت الأغنام تريد أن تنجو بنفسها لم يكن هناك وقت لهذا ارتطمتُ بالأجساد الرخوة ثم بالأرض لأشعل جحيما صغيرا كان كافيا لتتناثر الأشلاء البشرية والحيوانية وليتحول كل شيء من حولي إلى كتل سوداء متفحمة.

"هكذا انتهت الحرب بالنسبة لي: خسارة رجل بريء وجميل لم يكن طرفا فيها و لم يهتم كيف بدأت وكيف تنتهي". قال خالي ضيدان

كانت دمعة تتقافز حول عينه اليمنى ربما هي الدمعة الأخيرة التي ترددت في السقوط وهو يبكي عبّارا مرتين أو أكثر. قلت وأنا أستعيد الشخوص الذين فقدوا أرواحهم خلال رحلته القصيرة في الحياة.

"هناك أشخاص يعيشون كنجوم لا يصلنا ضوؤها ولا يهتم بها سوى من اكتشفها"

لم يعلق خالي ضيدان كان ينظر إلى البعيد وهو يطل من الشباك إلى أنوار تتلألأ في الخارج. ما يملكه الآن هو ذاكرة قديمة يجد سعادة

غامضة في استدراجها الحزين. كان يقف على حافة النهاية، يبصرها جيدا ولا يجزع من السقوط المرتقب فيها.

"أغلق الستارة"

نهضت لأسدلها كان يضع الملاءة البيضاء على عينيه يبسط فوقها ذراعه أفقيا ليمنع الضوء أو ليداري بكاء حقيقيا.

"اطفئ النور إذا خرجت".

أطفأت النور وخرجت. لم أكن حزينا عليه ولكني أشفقت على تلك اللحظة التي ارتكب فيها القرار الخاطئ. القرار الذي ساقه لهذه النهاية المفجعة.

تداعيات نجمة المرعبة

في مساء عادي من أواخر شهر مارس اعتدلت فيه الحرارة قليلا وبدت رياح الربيع تضوع متسللة إلى شرفة رومي وبابها المفتوح. يتأمل النهر وقوارب تمخره إلى جهة لا يعلمها.

كان عليّ أن أسافر إلى أمريكا لإنهاء بعض ترتيبات إدارية تخص الشركة. أخرجت من خزانة الملابس بذلتين رسميتين وقمصاناً وربطتي عنق وزوج أحذية وملابس داخلية وجهزت حقيبتي لأكون هناك في فجر اليوم التالي. رتبت بعض أمور المكتب هنا واتصلت بوكيل السفر لإرسال التذكرة للبيت بدلا من الشركة. جلست في الشرفة متلحفا بدثار ناعم بعد أن صنعت قهوة سوداء وكأنما الهواء المنعش داعب عيني فنعست.

سمعت صوت الهاتف كمن يرن في الخارج. فزرت من غفوتي التي لم يكن موعدها في وقت كهذا وتوقعت أنه جهاز الاتصال المعلق في الباب نهضت إليه ولكن الصوت كان صوت هاتف المنزل. يبدو أنه رن أكثر من اللازم وقبل أن تتحول المكالمة لرسالة صوتية خطفت السماعة لأجد نجمة على الطرف الآخر.

سأعترف هنا بأنني نسيت خالي ونجمة وانشغلت كثيرا منذ أن تأكدت من خروجه من المعتقل العراقي وعودته إلى الكويت مع القوات الكويتية. توقعت منه أن يتواصل معي ويتصل بي بعد

عودة علاقتنا أثناء زيارتي الأخيرة ولكن هذا المراس الصعب لديه لم يتغير وهو ما ورثته عنه.

"خير نجمة، ما بك؟ لن أفهم وصوتك غارق بدموعك"

"خالك.. إنه يذوي وربما يموت في أي لحظة"

لم يكن هناك مجال لأستمع للقصة كاملة عبر الهاتف.

"سأكون عندكم اليوم أو غدا"

أغلقت الهاتف واتصلت بوكيل سفري، حجزت تذكرة للكويت.

"ممتاز. نعم أنا جاهز للسفر أصلا. سأخبرك بما حدث فيما بعد"

في السادسة مساء كنت في المبنى الثاني من مطار هيثرو أنتظر طائرتي التي ستقلع للكويت وعلي أن أذهب من هناك إلى أمريكا مباشرة.

وصلت فجرا و لم أشأ أن أزعج بيت خالي حجزت في الشيراتون كمكان اعتدت عليه منذ أول مرة. وفي الصباح أخذت تاكسي للشعبيات. كانت المساكن هادئة

طرقت الباب وكانت نجمة قريبة منه كأنها تنتظرني منذ مكالمتها.

"أهلا رومي، تفضل خالك في الديوان"

كان خالي منهكا. هو ليس الرجل الذي أعرفه، بدا نحيلا وكأنه فقد الكثير من وزنه، تلك الصورة التي رأيتها له في طفولتي وهو يخضع للكي. قبلته في جبهته ونظر إليّ وإلى نجمة كأنه يعاتبها لأنها أبلغتني وأشغلتني به. انسحبت نجمة مدعية بأنها ستحضر الشاي.

"ما بك يا خال؟ ماذا حدث؟"

"لا أعلم. لا أتذكر سوى أنني مريض الآن، هكذا تقول نجمة"

"ستكون بخير. لا عليك"

"تقول نجمة أنه ليس بإمكاني الذهاب للمعسكر مرة أخـــرى، أريد أن أعود إلى عملي"

"ستعود، أعدك بأن تعود"

كانت ملامح خالي الصفراء تدل أنه رجل على بعد زفرتين من الموت. ومرضه عضال وحالة البلاد هنا لا تسمح بعـــد الحـــرب أن تعرف سر مرضه. كان يجلس متكئا على وسائد من الصوف الملـــون الخشن ويدثر نصفه الأسفل بفراء الخروف مستقيم النظر كأنه يحدق بصورته تتوسط الجدار الخالي إلا منها. يقف منتصبا باعتزاز غـــامض متأبطا عصا الخيزران القصيرة وقد ترك عينيه تتسعان وهو ينظر بعيدا عن عين العدسة التي التقطت صورته. ترتخي يده اليسرى على جنبـــه الأيسر وينعكس لمعان حذائيه كأنما المصور خصص فلاشـــاً خاصـــاً لهما. حدقت معه في وجهه النحيل والقاسي كصـــحراء قديمـــة، في شاربيه الكثين ونهايتيهما المدببتين، في ذقنه الحليـــق كظهـــر مـــرآة مصقولة ببشرة داكنة منذورة لهبوب الرياح الصيفية الحارة من كـــل الجهات.

دخلت نجمة ثانية تحمل صينية عليها إفطار خفيف. خبز تنـــور طازج له رائحة ماضٍ نسيته أو تناسيته وجبن وسمن حيواني وثـــلاث بيضات مسلوقات.

"تفضل يا رومي"

رغم أني أفطرت في الفندق إلا أن خبز التنور فتح شهيتي ثانية.

"هل تأكل معي يا خال؟"

هز رأسه نافيا. قالت نجمة إنه أفطـــر في الصـــباح البـــاكر. ثم التفتت إليّ هامسة

"ولكنه لم يعد يصلي يا رومي، لم يعد يصلي، كأنـــه يعاقـــب نفسه"

لم أهتم لتعليقها ولكن الخال الذي عرف ما تقوله التفـــت إلي متجاهلا نجمة

"سأستمع لكلمات الداعية نجمة، ستخبرنا ما سنكون عليه بعد هذا العمر الطويل"

لم تسكت نجمة كما توقعت لكنها ردت دون أن تنظر إليه

"عمر طويل. لم تعش سوى خمسين عاما أو أقل. عمر طويل لا تنهه بغضب الله عليك"

"هو المرض الذي جعلك تتجرئين عليّ"

أشار الخال لنجمة بيده كي تنهض و لم تفعل. كنت مستمرا في الأكل دون أن أهتم لنقاش يبدو أنه تكرر كثيرا قبل وجودي ولـــن ينتهي.

"أنت تعاقب لا أحد. الله غني عن صلاتك. الله ليس الحكومة"

بدت الأمور تتعقد نوعا ما وصراع الزوجين يأخذ بعدا خطيرا. ولكني سعيد أن نجمة تربط الله بالحكومة لسبب ما. أعاد الخال رأسه إلى الوراء وتظاهر بالشخير في بداية الأمر لكنه نام فعلا قبل أن أنهي رغيف الخبز وأشرب الشاي الذي تجيد نجمة صنعه مضيفة له قلـــيلا من حبوب الهال.

"أحيانا لا ألومه. لقد مرّ بكل مأساة يمكن أن يمر بها إنســـان. أنت لا تعرف ما مر به يا رومي ولكن ذلك ليس عذرا بأن يتوقـــف

عن عبادة ربه"

"هو يعرف ما يفعل لا أحد يجبره على ذلك، وهو أكثر معرفة وثقافة مني ومنك"

"هي هذه الكتب التي أضاعته عن طريق الله"

كنت أريد أن أسأل نجمة عن إمكانية نقل خالي خارج البلاد وموقف الحكومة منه الآن وهو بهذه الحال. ولكنها أسهبت في أمور تبدو مؤلمة وغير منطقية أيضا ولكنها متوقعة على أية حال

ضيدان رجل صلب يحب الكتب والبرية ويتحدث بفخر عن الحروب التي خاضها. ولكنه منذ مصرع صديقه عبار بطريقة وحشية ترك حياة البر وعزف عن تجارة الأغنام وكان يمضي نهاراته في المعسكر ومساءاته هنا في هذه المكتبة. لا يلتقي به سوى أحد رفاقه ربما هو الشخص الوحيد الذي نجح في اختراق عزلة أجاد حياكتها حول بيته وحياته. لم يكن يلتقي حتى بأسرتي وأحيانا كثيرة لا يلتقي بي أنا زوجته التي صبرت على كل مراراته.

في ضحى أحد الأيام قبل عام تقريبا سقط كما قالوا لنا في الساحة وهو يدرب العساكر. أنت ربما لا تعرف كم كان قاسيا على نفسه وعليهم. تصورت أن أحدهم أصابه ولكن أخي أكد لي أنه سقط لوحده في الساحة دون أن يقترب منه أحد. بدأت رحلتنا من عيادة لأخرى ومن طبيب خاص لمستشفى عام دون أن يستطيع أحد أن يحدد لنا مرضه وكل ما نستمع إليه هو احتمالات تشبه أن يخبرك أحد بأنك ستموت يوما ما. لم يعد خالك الذي لم يتغيب عن معسكره يوما ما أن يواصل عمله منحوه إجازاته المستحقة وإجازة طبية ثم طلبوا منه أن يتقاعد لأنه شارك في الحروب العربية كما تعرف. قبل أيام زارني

أحدهم وطلب مني أن نخلي البيت خلال ستة أشهر على الأقل. راتب خالك التقاعدي لا يكفي أن نستأجر غرفة واحدة فنحن عائلة صغيرة دون أطفال ومستحقاته المالية هي مرتبه الأساسي فقط. أريد أن أرسله للعلاج في الخارج ولكنهم رفضوا منحه جواز سفر.

"وماذا يفعل الذين لم يشاركوا في الحروب؟"

"لا أعلم"

"لا عليك. سأشتري لكما شقة هنا وأرسل لك ما تحتاجين إليه، اتركي لهم البيت بعد أن نعود والخال من رحلة علاجه"

"أين ستذهب به؟"

"لن أتركه هنا سيعود إلى لندن معي"

في صبيحة اليوم التالي اصطحبت خالي ضيدان لنعبر بوابة "الجيوان". قبل أن أدخلها كان عقلي يضج بأصوات رجال المساطر وصراخنا أمام بوابة التسجيل ومطاردة رجال الشرطة العسكرية لنا. كان الضابط صلف الأخلاق

"ليس لدينا صلاحية منحه جواز سفر كويتي هذا اختصاص وزارة الداخلية"

"ولكنه كان يخدم عندكم وأصيب أثناء الخدمة"

"لا نستطيع أن نفعل شيئا، هذه قوانين لم أصدرها أنا"

واعتذر بأن لديه اجتماع. خرجنا من مكتبه و لم يكن الوضع في وزارة الداخلية أفضل منه هنا. قال الرجل المسؤول بأن ضيدان لم يعد موظفا في الحكومة ولكن القانون يمنحه وثيقة سفر لا جواز سفر. انتهى الأمر هنا وحصلت له على فيزا لأمريكا وبريطانيا وسافرت وأنا أفكر جديا بألاّ أعيده إلى الكويت.

ليلة الوداع

كان رومي والخال ضيدان في شقته ذلك اليوم حين دخلت سكرتيرة رومي لتوقيع أوراق مهمة للشركة. كانت تنظر طويلا إلى ضيدان وهو يجلس على كرسي عريض أمام رومي الذي انشغل بأوراقه، ثم تنظر إلى لوحة منسوخة من أعمال رامبرانت بعنوان "دورية ليل" حافظت النسخة على جودة تقترب من الأصل. حين أنهى رومي توقيع أوراقه رأى سكرتيرته والتي تجاوزت الأربعين من عمرها تبتسم في وجه ضيدان وهو يرد بابتسامة خجولة.

"سيدة بروك! هل تغازلين خالي؟"

ردت بصوت خافت بالكاد يسمعه الخال

"كنت أتمنى لو كان لديه بعض الوقت"

امتعض رومي محاولا ألا ينتبه الخال

"بإمكانك أن تغادري الآن"

غادرت السيدة بروك وهي تشعر بأسى يخالجها لما بدر منها، لكنها كانت تنظر إلى رجل لن يعيش طويلا.

أعدت العاملة وجبة الغداء وطلب الخال نبيذا و لم يجد رومي سببا لرفض طلبه.

"من الذي ظلمني يا رومي؟ لا تقل لي أنا ظلمت نفسي كما قالت لي نجمة. هل تعرف يا رومي أن البغال في الدولة العثمانية حين

تشيخ يتم تكريمها والإحسان إليها حتى تموت بكرامتها".

"ليس مهما الآن من هو يا خال، عش كل لحظة كأنها حياة طويلة"

"تخيل الدولة تظلمني وأنا أظلم نجمة وعبّار"

"نجمة هي الهبة الأجمل في حياتك وأنت لم تقتل عبّار"

"نجمة هي الضحية التي ساقها قدرها لتكون عروس النيل ولو أني علّمت عبّار القراءة لقرأ المنشور الذي ألقته عليه الطائرة وأنقذ نفسه وأطفاله"

"نجمة كانت سعيدة وتحبك ولو تعلم عبار القراءة لما بقي نقيا وجميلا كما صورته"

أنهى الخال زجاجة النبيذ و لم يجد شهية للأكل. عاد به رومي إلى المستشفى. تركه ليرتاح على أن يعود إليه في المساء. نام الخال ضيدان عميقا وبدا مرتاحا وكأنه تخلص من شياطين كانت تهدد نومه كل ليلة.

في الممر التقى رومي برئيسة الممرضات وطلبت منه أن تتحدث إليه

"إن خالك يدخن بشراهة ويشرب وذلك سيقضي عليه"

"نحن نعلم أن خالي أنهى المدة التي حددها له الأطباء ولن يعيش طويلا فليعش كما يريد"

تركها ترفع منكبيها وتكتنز شفتاها وخرج من المبنى.

إن لحظة الوداع قادمة لا محالة. هذا ما يؤكده الطب ولكن ما هو غير مؤكد أن يستطيع الخال المقاومة لمدة أطول من تلك التي قررها الأطباء. رومي لا يبدي الكثير من التفاؤل فهو رجل لا يؤمن

بما هو خارق. السرطان يأكل خلايا الخال وذاكرة الخال القصيرة أعدمت نهائيا وتلك الحسنة الوحيدة لهذه الشظية المخاتلة وقد عمقت جرح مقدمة رأسه. من الأفضل ألا يتذكر ما آلت إليه أموره وكيف هي نهاية محارب قديم. ليس أمام رومي الآن سوى أن يمنح خاله بعض وقته وماله وفاء لسنوات عمره الأولى.

لم يعد رومي إلى البيت وفضل أن يذرع الشوارع سيرا على قدميه وأن يبقى قريبا من نداء الموت الذي يضج في قلبه وغرفة الخال. جلس في مقهى صغير يغطي رأسه بغطاء معطفه والبرد الناعم يداعب وجنتيه ويديه. ابتسمت له النادلة وابتسم عنوة. طلب قهوة بالحليب وقطعة كعك إنجليزي ووجع صغير يباغته كشعور بالندم على جفوته الكبيرة لرجل قام على تربيته وعوضه أبا لا يعرفه. ليس بإمكانه الآن أن يعيد خيوط الحكاية إلى النقطة التي يريدها، ليس بيده من أمر خاله الطيب شيء. ما يملكه رومي هو المال وهو ليس المعضلة التي كانت تواجه الخال ما واجه الخال هو الجحود الذي كان ينكره وهو يبتعد عن مواجهة الحقيقة لائذا في صحرائه بما يشبه الاستسلام التام لقدره.

أمضى رومي في تجواله وقتا اعتقد أنه كافٍ كي يصحو خاله من النوم. عاد أدراجه إلى المستشفى والشمس تقترب من المغيب تاركة حزم الضوء الذهبي على واجهات الزجاج. حين دخل الغرفة كانت الممرضة تخرج الخال من الحمام وحين رأى رومي ابتسم

"كنت أنتظرك"

كانت الممرضة قد وضعت صينية الأكل أمامه و لم يأكل بعد.

"وأنا كنت أنتظر حتى تصحو من نومك"

"تقصد حتى أفيق"
"كل الآن لا بد أنك جائع"
"لا كنت أريد أن أخبرك شيئا مهما"
"حسنا"
"هل تريد أن تكتبه؟"
"سأرى ما هو وأقرر"

كنت صادقا معك في كل ما ذكرته ولكنني كذبت بشأن والدك. هو ليس أمرا مهما بالنسبة لي ولكنني أرى أنك تستحق أن تعرف الحقيقة كاملة حتى أرتاح من ثقلها الذي أزعجني. حين عاد والدي كسيحا ومشلولا إلى الكويت كان يرافقه والدك ولسبب ما لم أفهمه غادر في منتصف الليل هو ووالدته إلى جهة لا أعلمها. في الصباح كانت داره خاوية. مر وقت لا نعرف أين استقر به الحال ولكن حادثة إصابته لوالدي كانت صحيحة ويؤكدها هروبه في الليلة التي عاد بها رفيقهما إلى الكويت. رفيقهما الذي شهد ما حدث ورواه لي.

مرت سنة أو أكثر حين عاد والدك يريد أن يأخذك ووالدتك. صرخت أمك حين رأته وطلبت مني أن أثأر لأبي وكنت أنا أيضا أريد أن أقتله. أوقفني أنه والدك ومعلمي وكنت أفكر بأن الثأر لن يعيد لوالدي حياته السابقة. ولكنه دخل البيت واعتدى على أمك و لم أستطع أن أغفر ذلك له. لم أقتله. ولكنني أفشيت سره الذي أعرفه. ذلك كل ما فعلته. أرسلت إلى قبيلته في الجنوب أنه هنا. ذات ليلة اقتحموا البيت بهدوء وأركبوه سيارة تركت أثرها في الصباح على الرمال و لم تترك له أثرا. لقد كنت شابا في السادسة عشرة من

عمري ولا أعرف إذا كان ما فعلته صحيحا أم لا. بدأت القبيلة تنفر مني والجميع يلومني لأنني خنتهم جميعا قبل أن أخون صهري. وأعرف أنك أيضا غاضب مني الآن.

"أنا لا أعرفه حتى أغضب له وربما لو كنت هناك لوقفت معك"

"هل تسامحني؟"

"لا تحتاج عفوا مني. أنت والدي وأنا أعتذر لك أنني تركتك كل هذه السنين لهذا الضياع"

"حين أموت عدني ألا أدفن هنا وأن تهتم بنجمة"

"أعدك"

"ارفع هذه الصينية من أمامي وتعال أشم رائحتك"

وضع رومي الصينية جانبا واحتضنه الخال طويلا، مسح على وجهه بيده ثم أعاد رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه

"لا تنس أن تطفئ النور"

أطفأ رومي النور وخرج. كان ذلك آخر نور رآه الخال ضيدان.

أوتاوا

2017–2015